نبيـل سـليمان

درج الليل .. درج النهار

روايـــة



دار الحوار

نبيل سليمان

درج الليل.. درج النهار

رواية

دار الحوار

- درج الليل .. درج النهار
- نبيل سليمان
- الطبعة الأولى 2005

- الناشـــر: *دار الحـــوار للنشـــر والتوزيـــع*

سورية ــ اللاذقية ــ ص. ب: 1018

هاتف وفاكس: 963 41 422339

البريد الإلكتروني: soleman@scs-net.org

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

قال بعضهم:

"لا يكـون الـرجلُ بالغاً دَرَجَ الحقـيقة حـتى يشهد فـيه ألـفُ صديقٍ بأنه زنديق".

ورد في (تأويل الشطح) للشعراني.

***

"ضـحكتُ زمانـاً وبكيـت زمانـاً، وأنـا الـيوم لا أضـحك ولا أبكـي".

أبو يزيد البسطامي.

***

"أن تكتب روايةً يعني أن تحمل ما هو متباين وغير متكافئ وتمضـي بـه إلى الأقاصـي في تمثـيل الحـياة البشـرية، ففـي خضـمّ امتلاء الحـياة، وعبر تمثيل هذا الامتلاء، تقدم الرواية دليلاً على ارتباك العيش الشديد"

وولتر بنجامين

القسم الأول

الفصل الأول: درج النهار

1 ـ عندما أصاب المسّ عقد المرجان وربيع لشلاش.

2 ـ زيارة المروِّجة المحجبة.

3 ـ ونسة.

4 ـ بانتظار جنان.

1

عندما أصاب المسّ عقد المرجان وربيع لشلاش

ستظل تتشكك بالنجاة حتى تتنقع بالماء الساخن المعطّر. الآن صارت طرابلس بعيدة حقاً، لكأن عشرة أيام من المفاوضات والمواعيد السائبة وثرثرات الجلسات الطويلة لم تكن. لكأنك لم تختنق ليلةً بالوحشة كلما انصرفوا وتركوك وحيداً. والآن ستكون قادراً على أن تقف أمام الدكتور عيسى باعتزاز: تفضّل يا دكتور: هذا عقد السدّ أكبر من أي سد نفّذه المجمع 21 حتى اليوم.

ومثل طفل خَبَطَ الرغوة وقفز من البانيو ملاقياً عريه في المرآة: ما بقيت في الصدر شعرة سوداء: هامس المرآة راثياً، والتفّ بالمنشفة وأسرع إلى السرير. وانزاحت المنشفة عن عريه الذي تبسّم في المرآة راثياً: إلى عانتك وصل الشيب يا ربيع! يلّله بلا كسل.

من ساعة التيلفزيون سرق نظرة: الثانية والنصف. الثانية واثنتان وثلاثون دقيقة بالضبط، وملء الشاشة طائرة تنقذف إلى أسفل سافلين وتقصف، وطائرة تخترق السماء. صمت مفاجئ. أشلاء بيوت وعمائم. قندهار. موسيقى مفاجئة تحرض. برجا نيويورك يتهاويان: منذ متى يعيدون هذه الصور وإلى متى؟

في السادسة عليك أن تكون في المطار. ستقلع الطائرة في الثامنة، وستصل إلى دمشق في الحادية عشرة: بأي توقيت تحسب؟

سأل العاري المستلقي في المرآة، فانقلب ربيع على جنبه ينشد غفوة. لكن المرآة لكزته: يلّله بلا كسل. ما رأيت من تونس إلا ما سمحت به نوافذ السيارة. لا في الذهاب إلى طرابلس رأيت ولا في الإياب. على الأقل درْ حول الأوتيل. ادخل البار. اشرب كأس ويسكي. إذا صحَّ ما يشاع عن استقالة أو إقالة الدكتور عيسى فلن تعود لا إلى تونس ولا إلى طرابلس. ادفنْ رأسك في الوسادة كي تغلب الكسل وتنهض. قبل إحدى عشرة سنة كانت مهمتك الخارجية الأولى إلى هانوفر. كنت رئيساً للجنة الإشراف التي كان الدكتور عيسى قد اخترعها قبل شهر. الآن ما عاد للّجنة رئيس، وأنت مثل سائر الأعضاء والعضوات من تابعية المكتب الخاص الذي اخترعه الدكتور عيسى قبل شهرين، وتركه بلا رئيس. ولكن لماذا ضمّ جنان إلى المكتب؟ هل تكون هي من جعل الدكتور عيسى يؤثرك بهذه المهمة إلى طرابلس؟

هل ستنام أم ستستمتع بما تبقى من ليل تونس؟

* * *

كانت ساعة التيلفزيون قد اقتربت من السادسة عندما دعك جفنيه وتمطى قبل أن يدركه السؤال، فهبّ يسابقه إلى المطار. ولما اطمأن إلى أن الطائرة لن تفوته، أسرع إلى السوق الحرة: لا بد من هدية لجنان وهدية للدكتور عيسى.

بلهفة حيّته البائعة السمراء كأنها تلاقيه بعد فراق، وكان عزف بدائي وخافت يتلاشى خلفها مثل النعاس والأضواء. وحين عرضت عليه عقداً من المرجان نظر إلى عنقها، وأخذ العزف يقترب، فأومأ إلى العقد، ثم أومأ إلى المسجّلة، وقالت السمراء الصغيرة:

- هذه فرقة أولاد الجويني. كاسيت حنون لكنه يرقّص.

وتمايل كتفاها وخصرها وهي تزنّر علبة العقد بالشريط الماسي: مبروك.

- والكاسيت؟

سأل بصوت غائم مثل نظراته، فاختفى العزف وقدمت البائعة الكاسيت هامسة كأنها مقبلة على فراق:

- تذكّرني وأنت تسمعه أو ترقص عليه. بالسلامة.

- بالسلامة.

تمتم ذاهلاً، واختفى.

***

مــن الطائــرة إلى السوق الحرة أسرع مراوداً زجاجة الفودكا الكــبرى التـــي راودتـــه قبل عشرة أيام. ومثل الزجاجة أضاءت ابتسامتها، فدقق في البطاقة الغافية على صدرها: شهلة صادق.

وقالت وهي تُودِعُ الزجاجة في كيس فكيس:

- نوعية ممتازة.

فكّر: أنتِ خبيرة إذن. وكانت تهزج:

- مع إنها بلاشْ.

فكّــر وهــو يــناولها ورقة الخمسين دولاراً: الأسعار في هذه السوق أقل منها في تونس. وهمّ بأن يسألها عن السبب، ثم همّ بأن يســألها عــن راتــبها، وربما تمتم مستهجناً: 23 دولاراً وبلاشْ!
وكانت تناوله بقية الخمسين دولار وتهزج:

- الحمد لله على السلامة.

عندئذ أعشاه بريق عينيها، فلجأ إلى عنقها، وأصابه المسّ: عقد المرجانٍ لهذا العنق. ومراتكْ يا مجنون؟

عقــد المــرجان لهذا العنق، والمسّ يدفع بأصابع المجنون إلى جيــبه، يعقــل لســانه ويضيع العقد. يظفر بالعلبة ويرخي عقدة شريطها الماسي. يُشْهِرُ العقد الذي أصابه المس أيضاً فتعلّق بعنق شهلة وترك ربيع مبهوتاً مثلها، بينما تنحنح زبون آخر في الخلف. وقــد يكــون ربــيع تعثّر باسمه وحاص. وقد تكون شهلة تعثرتْ بابتســامتها أو ببريق عينيها، حتى إذا صَحَوَا، طار مسابقاً الدرج الكهربائي وخلفه طار نداؤها، وكاد يظفر به لولا أن جنان أفردت ذراعيها وصدحت بصوت غريب:

- الحمد لله على سلامتك.

لكن هذا الصوت صوت شهلة يا مجنون، وجنان ليست في البيت، وعنق شهلة يزيد عقد المرجان بهاءً، وأنت تتلمس كاسيت أولاد الجويني في جيبك وتنسى السمراء التونسية الصغيرة، وصوت جنان الغريب يعبس:

- وين هديتي يا بخيل؟

لذلك تتكوم على الكنبة: الكاسيت أيضاً لشهلة. وجنان تصير قبيحة عندما تغضب:

"لو خطرت لك علي بال كنت قلت: آلو."

"حاولت عشرين مرة. لا تنسي أنا كنت في طرابلس."

"طيب أنا نسيتني، نسيت غِوى يا مجنون؟"

"غِوى في باريس نسيتْ بابا وماما."

"غِوى اتصلت مرتين تسأل عن بابا حبيبي. وبابا غرق في تونس وطرابلس."

"غِوى لا تتصل إلا إذا نزل رصيدها: بابا حوّلْ لي ولو مية يورو."

وبابا الآن يغرق في الكنبة وملء عينيه عنق ناحل أسمر ــ تُراها السمراء التونسية الصغيرة؟ ــ وعنق أبيض ممتلئ ــ تُراها جنان؟ ــ وعنق غامض يوشيه عقد من المرجان، فترتّل شفتان: شهلة.

2

زيارة المروِّجة المحجبة

زقـزق العصـفور من جرس الباب فصحا ربيع من غفوته، ووقف يتمطى متسائلاً عما يدعو جنان إلى استخدام الجرس.

زقـزق العصـفور ثانية فأسرع يفتح الباب ويبتسم ساخراً من غفلـته: لـو أنها جنان لاستخدمت المفتاح يا أهبل. ومثلما باغته الـباب بابتسامة الشابة المحجبة باغتها بابتسامته. وزقزقت الشابة كأنها عصفور الجرس:

– رحـاب، مـندوبة صالون مرمر للتجميل. أرجو ألا أكون أزعجتك.

فرحّب بها وقد غدت ابتسامته عجباً: منذ متى تستقبل جنان في البيت مندوبة صالون للتجميل!

– المدام موجودة؟

سألت الشابة برقة لوّنتْ صوت ربيع بالندم على غياب جنان.

- ومع ذلك أرجو أن تسمح لي بدقيقتين. أظن معي ما يهمك.

قالـــت الشابة بثقة جعلت ربيع يدعوها إلى الدخول، وينظر إلى الباب متهيباً قبل أن يغلقه. وبينما كان يشير إليها بالجلوس نزعت الإشـــارب الـــذي يغطي رأسها بإحكام, فازداد تهيبه وغدا ارتباكاً وهو يراها تملأ الكنبة التي كان يتكوم فيها.

- المدام مسافرة أم حضرتك؟

ســـألت الشابة التي زادها السفور رقة، وهي تومئ إلى حقيبة ربيع.

- أنا راجع من تونس.

قال وهو يهرب من الشعر الطويل المحنّى.

- الحمد لله على السلامة.

هزجـــت كأنهـــا شهلة صادق تناوله الآن بقية الخمسين دولار وتدفع إليه باسمةً زجاجة الفودكا، فحدّق يتقرى كل هذا الشبه بين وجه رحاب ووجه شهلة، وكانت تضع حقيبتها على ركبتيها قائلة:

- لابد أنك أحضرت للمدام هدية.

ثم نظرت إليه بغنج:

- هدية أم أكثر؟

أطرق معترفاً بالذنب:

- للأسف لم أحضرْ لها شيئاً.

وتذكّـــر أنه لم يحضر للدكتور عيسى أيضاً هدية، فتلفّتَ يبحث عن عذر، وكانت رحاب تقول:

- هذا من حسن حظي وحظك يا أستاذ. الاسم الكريم؟

- ربيع لشلاش.

- أستاذ ربيع: اسمح لي أن أختار هديتك للمدام. تفضل اجلس بجانبي.

انقاد لأمرها وعيناه تبحثان عن عقد المرجان في الحقيبة التي أسفرت عن علب صغيرة ملونة عديدة. وأحسّ بالضيق من جرأة الشابة التي اندفعت تعرض ما تحمل: هذه العلبة ماركة فايليرنج كما ترى: مقص ومبرد لأظافر اليد وقطاعة لأظافر القدم وملقط. هذه العلبة ماركة جانيك: فرشاة شعر وفرشاة للخد. ما رأيك بهذا العطر: بيدرا للرجال وللنساء كما ترى؟ معي أيضاً هذه العلبة: نينا ريسي، وهذه العلبة: بالمن.

- يكفي.

قال بجفاء وهو يفكر في أن جنان قد تكون تذهب إلى صالون مرمر أو سواه، على الرغم من أنها تتباهى دوماً: أنا أجمّل نفسي. ولكن منذ متى لم يعد ربيع يلاحظ إن كانت جنان تقوّس حاجبيها مثل رحاب، أو تلوّن شفتيها بمثل البني الذي يتمرى على شفتي رحاب؟ بل منذ متى لم يلاحظ أن لجنان أظافر تقصّها أو تبردها أو تطليها أو تلونها بمثل الزهري الذي يتمرى على أظافر رحاب؟

من شرود تساؤلاته اللائمة أعادته رحاب إليها وهي تختار لجنان هديتين، فاستسلم بغبطة، ولهج في سره ممتناً لإنقاذها له من ورطة العودة من تونس أو من طرابلس فارغ اليدين. وحين ناولها خمسة آلاف ليرة، وراحت تبحث عن مائتين لتعيدهما إليه، حدق في صدرها يبحث عن بطاقة باسمها مثل التي كانت تغفو على

صدر شهلة صادق. وحين تناول المائتين منها، افتقد ــ كما افتقد البطاقة ــ أي شبه بين وجهها ووجه شهلة، لكن لسانه لغا:

- في السوق الحرة في المطار بائعة تشبهك. سبحان الله!

فرقرق صوت رحاب:

- لابد أنها شهلة. شهلة صادق.

- قريبتك؟

سأل ملهوفاً، وتعلقت نظرته بعنق رحاب التي انهمكت بترتيب حقيبتها، وقالت:

- لا, ولكني تعرفت عليها في صالون مرمر وصرنا صديقتين.

وكانت صورة شهلة تغيم في عينيه، فتقلقل متشككاً فيما يذكر من صوتها أو وجهها، وأسرع يسأل عن موقع صالون مرمر، فمدت رحاب يدها بعدد من جريدة الوسيط، وأشارت إلى إعلان كبير عن الصالون، وتشاغل ربيع بالقراءة: إزالة الشعر والوشوم بالليزر ــ تقشير وسنفرة البشرة بالكريستالات ــ شد الوجه والحقن التجميلي ــ معالجة الوحمات والآفات الوعائية و.. وقالت رحاب وهي تشير إلى إعلان آخر في رأس الصفحة:

- صالون مرمر يتعاون مع هذا المركز للجراحة التجميلية.

قال ربيع وهو يضع الجريدة بجانب هديتي جنان:

- كأنك لست مندوبة مبيعات فقط!

قالت رحاب وهي تغطي رأسها:

- أنا أروّج للصالون بزيارة البيوت. مدام مرمر لا تعتمد على الإعلانات وحدها. وبالمناسبة: أبيع ما أستطيع لحسابي.

ووقفتْ، فوقف متسائلاً:

- كيف تجمعين بين هذا العمل وبين الحجاب؟

- بصراحة يا أستاذ: أنا لا أتحجب إلا أثناء العمل. بالحجاب أستطيع أن أدخل إلى البيوت المحافظة. والحجاب أيضاً يوفّر عليّ تطاول بعض البيوت. المدام تتحجب؟

- لا. ولكن أنت: أنت رفعت الإيشارب عندما دخلتِ، وأنا ــ عفواً ــ وحدي.

- حضرتك تُطَمْئِن من النظرة الأولى. أرجو أن تشرفنا المدام في الصالون. وحضرتك أيضاً يمكن أن تشرفنا.

قالــت وهي تتجه نحو الباب، فقهقه وسبابته تشير إلى صدره غير مصدقة:

- أنا؟

- نعــم حضرتك. في الصالون فرع للشباب. وحضرتك ما شاء الله لا زلت شاباً.

قالت دون أن تلتفت إليه.

- وماذا يفعل الشباب عندكم؟

ســأل وقــد راوده الشــك في أن يكون الصالون فخاً أو وكراً للدعارة. لكن رحاب قالت:

- عندنا سنفرة للوجه، كريمات لتغطية البقع والندوب. عندنا مســكرة للرموش، زيوت لتسمير البشرة. حلاقة وجيل ولوسيور وغيره وغيره.

- للأسف كبرت على هذا.

- أســـتاذ ربيع: لو زالت التجاعيد من تحت جفنيك لظن كل من يراك أنك في الأربعين. زيارتك لنا ضرورية.

تــباعدت شفتا ربيع تبحثان عما يردّ به على الشابة التي تُمْعِنُ فـــي جرأتها عليه، وربما تهزأ به. وظلت الشفتان متباعدتين حتى انطـــبق الـــباب خلـــف الشـــابة مغتاظاً. والتفت إلى هديتي جنان والجـــريدة عازمـــاً علـــى أن يزور صالون مرمر، فقط لينال من رحـــاب التـــي لا تشـــبه شهلة البتة، لكنها ــ حتماً ــ تشبه امرأة يمقتها، فمن تكون؟

3

ونسة

في كومة الصحف التي تراكمت في أثناء غيابه أخذ يقلّب جزافاً: أخبار قديمة ومكرورة، لكنها طازجة بالنسبة لمن كان في طرابلس عشرة أيام يلهث خلف عقدٍ لسد.

كانت عيناه تقفزان من صفحة إلى صفحة ومن جريدة إلى جريدة، تعبران بالصور والمانشيتات وتفتقدان انتظام الأعداد: تلك عادة جنان المدمنة على أخبار التيليفيزيون، أما الجريدة فللصرّ أو لمسح الزجاج أو للجارة، والمهم أنها ليست للقراءة.

وفجأة لمح اسم حسين ابن عابد نوري وسط مربع بالغ السواد وكبير. وكان عليه أن يعيد القراءة ليتأكد من أن عابد نوري وعموم العائلة والعشيرة في الجزيرة السورية وفي سنجار العراقية وفي هانوفر الألمانية يشكرون كل من واساهم بوفاة فقيدهم الغالي

حســين ابن عابد نوري، ويخّصون بالشكر الدكتور عيسى نزهان مدير المجمّع 21 و..

وحسين نوري مات إذن يا ربيع، بينما كنت تلهث في طرابلس خلف عقد لسد، كما لهثت منذ إحدى عشرة سنة في هانوفر خلف عقــدٍ لتأهــيل الكــوادر مع شركة زيغرز، وكان الشاب الألماني الســوري الكــردي الإيزيدي حسين نوري ممثلاً للشركة، وكنت ممثلاً للمجمّع 21 في مهمتك الخارجية الأولى، وأنت رئيس لجنة الإشــراف التي كان الدكتور عيسى قد اخترعها للتو. لكن لهاثك خلف هانوفر لم يطل، وبقي لك من الوقت ما يكفي لتقترب من هذا الفقــيد حسين ابن عابد نوري الذي حمل البكالوريا وأدى الخدمة الإلزامــية وهاجــر وتــابع الدراسة, ولم يغرق في برك اللاجئين الســابقين واللاحقين، ولم يستجر باللجوء من الاضطهاد الديني أو الاجتماعي كي يشرعٍ له المهجر الأبواب، بل سبح في البحر الألماني حــتى بات مهندساً مرموقاً في شركة زيغرز. وها هو بعد واحد وعشرين سنة من هجرته يوقّع معك عقد تأهيل الكوادر بالحروف الأولى، ويغزل حلمه بالعودة إلى منبته ليحتفل مع الدكتور عيسى نزهان بالتوقيع النهائي على العقد، ثم يسرع إلى الجزيرة، وأنت؟

أنــت تتسلّ من الاحتفال لتوافي ونسة إلى المطعم الدوار على قمة أوتيل الشام.

أنت تتفرج على مربع الموت يطوي حسين نوري في الجريدة، والجريدة تؤالف الموت مثلما آلفت تسع سنوات من النسيان: ونسة.

***

ونســة المكنونة في سواد الفرو مثل شجرة مكنونة في بياض الــثلج. ونســة تمــيس فوق البحر والشجرة العارية تميس فوقك وحسين يقود السيارة: ونسة أختي متخصصة بالأزياء الشعبية.

وقالت ونسة:

- أزياء البدو والفلاحين في بلادنا.

قال حسين ممازحاً:

- تواضعي وقولي: في الجزيرة.

قال ربيع متعجباً:

- أزياء الفلاحين والبدو هنا في هانوفر؟ خير إن شاء الله!

قال حسين:

- بطر.

والتفت ربيع إلى ونسة ممازحاً:

- من أين لك هذا التخصص وأنت غادرت الجزيرة صغيرة ولم تعودي إليها؟

قالت ونسة:

- الفضل للجالية.

قال حسين:

- سيل المهاجرين لا ينقطع.

ولبد ربيع يتنعّم في دفء السيارة كما سيلبد عما قليل في بيت حسين الدافئ الصغير، وهذه بيرجيت زوجته الألمانية التي لم تتعلم العربية كما تعلمت ونسة الألمانية، وهذه أغنيةٌ كرديةٌ تتفجع، وهذا نبيذٌ قانٍ كي يرفرف ربيع مع الخصلات السود على ظهر ونسة، ويعشى بهذا العنق الغامض العريان.

ثــم تضـــيء ونسة ما تبقى من الليل في شقتها، وتترك ربيع عاريـــاً حـــتى يلوّن الفجر ثلج الشرفة، وهي تتشمم شعر صدره وإبطـــيه وعانته وفخذيه، ثم تقلبه على ظهره وتلعق ملسه وزغبه، ثم تقلبه على هذا الجنب وعلى هذا الجنب وتبلله بريقها الزلال، ثم تقـــوده إلـــى الحمّام مترنّمة بلحن غريب. وكما تغسل الأم وليدها تغســـله وتجففه، ثم تتركه عريان يتضرع: دثريني، فتدثّره بحكايةِ عاشقةٍ في السابعة عشرة، خصرُها مثل عود الخيزران، وجدائلها ترفـــرف فـــوق أليتيها، وثدياها ينقران حبَّ السنابل مثل عصفور الدوري: ونسة بنت عابد نوري.

ثم تتفجر الحكاية بالعاشق الذي تخرّج من جامعة حلب مهندساً مـــنذ ســـنة، ويعمـــل في فرع المجمّع 21 في الجزيرة منذ تسعة أشـــهر: راكـــان ابـــن عثمان درويش الذي نشأ على صداقة أبيه عـــثمان درويش مع عابد نوري، وأَلِفَ ونسة وألفته قبل أن يَنْهَدَ صـــدرُها، ولم تُنْسِهِ حلب الأميرة الإيزيدية كما سمّى ونسة وهو يناديها إلى المعجزة: نتزوج.

: حرام.

: نخطف.

: والذبح؟

ثـــم يقـــبّل وجنـــتها لأول مرة، فتنتظر سنة البكالوريا قبل أن تخطف راكان ويخطفها إلى الأرض السابعة، لكن عابد نوري يردّ صـــديق عمره وجاره عثمان درويش خائباً: إما أن تعود ونسة أو الذبح.

* * *

بعد أربعة أيام ونصف عادت الذبيحة إلى حضن أبيها. وصدّق ربيع حكاية من ذبحت سبع عشرة سنة قبل أن تَخطِف أو تُخطف، وذبحت سنة قبل أن تلحق بحسين إلى هانوفر، ووالت الذبح سنة فسنة قبل أن تنهض كما سوف يراها ربيع ذات فجرٍ في سريرٍ لا دثار له إلا الحكاية.

لكن الحكاية ستنتظر عاصفة الثلج بعد منتصف الليلة التالية، لتدثّر ربيع بونسة بنت الجرة: ما دامت أمنا حواء تقول: النسل مني، وأبونا آدم يقول: النسل مني، وما دام شجارهما لن يهدأ حتى يتفقا على أن يلقي كلٌّ بشهوته في جرة، ويختم جرته بالطين تسعة أشهر قد تنقص، لكنها لا تزيد.

وفي اليوم الموعود يا ربيع يا حبيبي أنجبت جرة أبينا شيئاً وحورية، بينما فارت جرة أمنا بالعفن والحشرات، ونبع ثديان لأبينا فأرضع شيئاً وهورية سنتين، وصار للرجال أثداء، ثم كانت ونسة، بينما انتظرتْ أمنا حتى عاد الوئام، لتنجب قاين وقليومة، ثم كان ربيع لشلاش مثل باقي الخلق: أمامك الموت ــ يقول حسين الآن ــ وأمامك النسيان ــ تقول ونسة منذ تسع سنوات ــ وربيع يلوب على الماء الزلال الذي يتمرأى في عنق حورية العربية أو هورية الكردية، أي في عنق ونسة بنت عابد نوري التي هاجرت منذ ثلاثة عشر عاماً، وها هي تعود لأول مرة بصحبة شقيقها حسين، ولكنْ ليس من أجل الاحتفال بالتوقيع النهائي على عقد تأهيل الكوادر، بل لتوافي ربيع لشلاش إلى المطعم الدوّار على قمة أوتيل الشام.

* * *

ولكـــنْ ربما عادت ونسة من أجل عابد نوري الذي لجأ بعدها إلـــى بيته المهجور في خربة بدرخان. وربما عادت لتتيقن من أن راكـــان درويـــش صار عدواً لدوداً لأبيها بعد وفاة أبيه. بل لعلها عادت فقط كي تظفر بزي بدوي واحد على الأقل، أو بزي فلاحي واحد على الأقل، ليصدّق ربيع أنها متخصصة في الأزياء الشعبية. غـــير أنهـــا ستتســـلل قبل ذلك إلى بيت ربيع: جنان لا زالت في المجمّع ولم تصدق أن الدكتور عيسى ضمّها إلى المكتب الخاص، وغِـــوَى لـــم تعد من المدرسة، وونسة تغمر وجه ربيع بخصلاتها السود وتلقمه حلمتيها، ثم تقوده إلى الحمّام وتأمره أن يغسلها كما تغســـل الأم ولـــيدتها، ثم تكبر وتأمره أن يحملها على ذراعيه إلى الســـرير، ثـــم تكـــبر وتتقلـــب على صدره وعلى حوضه وعلى الســـجادة. ولأنـــه كـــان سميعاً ومطيعاً تكافئه بالحكاية، فيلبد في حضنها طفلاً رمى بسنّه الأولى للتو إلى الفأر، وتمسح على شعره أمـــاً أو جـــدة وهي تروي أن الله خلق الكون وترك فوضاه لمنفذ مشـــيئته، لكن الملاك الأعظم خالف الخالق فحلّ به العقاب، وظل يبكـــي سبعة آلاف سنة حتى ملأت دموعه سبع جرار فألقاها في جهنّم فأطفأ نارها، وعندئذٍ أعادك الله إلى سدّتك يا طاووس مَلَك: قالت ونسة مناجية، فناجى ربيع: يا مَلَك الخدمة، فتضرعت ونسة: يـــا عـــزازيل ، فتضرع ربيع: يا أمين الوحي يا خازن القدس يا الـــناموس الأكبر يا الروح الأمين يا طاووس الملائكة يا جبريل. وحيـــن انتصف النهار كانت الحكاية قد أوفت أسماء من هبط أول مـــرة من السماء على لالش في يوم سعدي يا حبيبي: قالت ونسة وهـــي تنهض. وحين نهض ربيع أضافت: الأربعاء الذي تتشاءم

مــنه يــا حبيبــي، فذكر يوم الجمعة الذي يقدسه مثل أي مسلم، وأضــمر الوعــد علــى أن يقدس الأربعاء كرمى لونسة مثل أي إيزيدي، ولو شاءت لقدّس أيضاً السبت مثل أي يهودي والأحد مثل أي مســيحي، وهفا إليها: زيديني يا ونسة، فأشارت إلى صدرها: كتبــنا هي قلوبنا، وكانت تمضي نحو الباب رافلةً بالضياء. ولما أرخت كفيها على كتفيه مودعة تلجلج:

- ما عاد للباطنية مطرح في هذا العصر يا ونسة.

ففركت أذنه مثلما كان راكان درويش يفرك أذنها كلما أخطأت في القراءة، وسألت:

- ماذا تعدّ إذن التنظيمات السرية؟ ماذا تعدّ القاعدة مثلاً؟ ماذا تعد المافيا؟ حتى جماعة رائيل ماذا تعدها؟ ظننتك أذكى يا ربيع.

وبيــنما فارقــت كفّاها كتفيه فكّر في أن يفحمها بهول الأجهزة الأمنية وثورة الاتصالات، لكنه تلجلج وهو يدفع الباطنية والشفاهية أيضاً بِسمةَ العصر يا ونسة: العلانية والشفافية والكتابة على ورق البردي أو على شاشة الكومبيوتر، سيّان. فقاطعته:

- ستضيف: والديمقراطية يا حبيبتي. طيب يا حبيبي. عندما يتحقق القدر الكافي مما تعدد من هانوفر إلى الشام، سأوافقك.

وخرجت دون وداع. وامتنعت عليه طوال إجازتها، على الرغم مــن أنهمــا سيتلازمان بعد سفر حسين حتى تشتري شقة صغيرة وتؤثثها، وسيسهران فيها حتى يشقشق فجر سفرها، ثم..

ثــم: هــذا هــو المــوت: الداء الذي دواؤه النسيان، وهذا هو النسيان: الداء الذي بلا دواء.

4

بانتظار جنان

من ساعة الحائط زقزق العصفور هذه المرة بنغمة مختلفة، معلناً الساعة الرابعة.

تملّى ربيع الغداء الذي أعدّه وزفر: تأخرت جنان ساعة. ومن المطبخ إلى الصالون ومن المكتبة إلى غرفة النوم راح يحوص ليجلس أخيراً قبالة زجاجة الفودكا التي راودته من خلف حجابها: كيس فكيس. لكنه يمقت الشراب في النهار. والزجاجة لم تعد بديلاً لهدية ربيع للدكتور عيسى، بل هي لاحتفالية خاصة قد تكون على شرف شهلة. بل ينبغي أن تكون على شرف شهلة. ومن أجل ذلك قد يكون على ربيع أن يذهب إلى صالون مرمر. عليه أن يلتقي رحاب، ليس فقط من أجل أن

تقـــوده إلى شهلة، بل ليوصيها ــ إن صادفت جنان ــ أن تكتم عـــنها سر الهديتين. هاتان الهديتان لك يا جنان من تونس. بل واحدة من طرابلس وواحدة من تونس. أما لقاء شهلة فلا حاجة لربيع من أجله برحاب. بوسعه أن يعود غداً أو بعد غد أو وقت يشـــاء إلى المطار، وأن يتسلل إلى السوق الحرة، وأن يشتري هديـــة للدكـــتور عيسى، ويلتقي شهلة، ويقدم لها كاسيت أولاد الجويني.

بضيق مفاجئ وقف أمام المرآة يدقق في جفنيه وفي زاويتي عينـــيه: رحـــاب علـــى حق. هي تجاعيد خفيفة ما كانت لولا السهر، وليست أثراً للخمسين. لكن رحاب على حق، ولذلك بدت من خلف ربيع تمد لسانها، فارتاع من شبهها بجنان حين كانت في مثل سنها.

الآن تبدو رحاب ملء المرآة وقد تجاوزت الأربعين، وربيع يناكدها حتى تغضب.

الآن تـــبدو رحاب أكبر قبحاً من جنان حين تغضب، فيدير ربـــيع ظهـــره لهمـــا، ويطل من الممر الفسيح على الصالون الفســـيح: جـــنان مـــلأت الصـــالون بأشـــياء نافلة، غير عابئة باحـــتجاجه، وزجاجـــة الفودكا المتحجبة بكيس فكيس تلح على مطرح آمن لها.

مكفكفـــاً الضيق تقدم متسائلاً عما إن كانت رحاب ستحدث شـــهلة عنه. ستذكر اسمه الذي ليس لشهلة أن تنساه حتى لو لم يلتقـــيا أبداً. رحاب ماكرة ونبيهة، ولا بد أنها قد لاحظت لهفته،

وســـتحدث شهلة عنها. ولو فعلت فستوفر عليه عناء كبيراً حين يلتقي شهلة. ولكن هل ترك عقد المرجان أي عناء؟

قـــرب الهـــاتف أوقفـــه الســـؤال المباغت: ماذا لو أن عقد المرجان لا يتزين الآن بعنق شهلة؟

ودفعه السؤال فتهالك على الكنبة العريضة: إلى يمينه الهاتف وأمامـــه الكنبة التي ملأتها رحاب. وتسلل إليه الندم لأنه فوّت الفرصة: أن تحدثه هي عن شهلة، وأن يحدثها هو عن نفسه. لو فعـــل لكـــان الآن يعرف من تكون شهلة صادق، ولكان بوسع رحـــاب أن تقـــول لها: ربيع لشلاش مهندس كبير وعتيق في المجمع 21. ربيع لشلاش خمسيني وله بنت تدرس في باريس ــ ليس هذا كله بالمهم، بل على رحاب أن تتجاوزه ــ وشرابه المفضـــل هو العرق ــ لماذا إذن زجاجة الفودكا؟. أما ما ليس لرحاب أن تغفل عنه، فهو زواجه البارد من جنان، بل مقته لها ومقـــتها له: لِـــمَ الإنكار؟ تُراه لولا هذا المقت كان هيأ لها هذا الغداء؟ أو كان يصبر على تأخرها؟ أم كان يتناول الموبايل عن الترابـــيزة ويطلبها مرة فمرة: الجهاز خارج التغطية أو مغلق. أين أنتِ يا جنان؟

* * *

لأن الوقت لم يعد مناسباً كي يسأل عنها في المجمّع، تشاغل بالاستماع إلى الاتصالات التي سجلها الهاتف العادي في غيابه:

غِوَى ــ يا ملعونة.

الدكتور عيسى ــ ضحكة الدكتور عيسى تخفت وتتقطع.

إياس: ما رجع ربيع؟ رح نعتصم قدام مكتب الأمم المتحدة. يا ريت لو كان معنا.

ثم أم محمد ونازك وحماتك يا ربيع وو.. وغِوَى ــ لا بد أن تتصل كل يومين أو ثلاثة، وأخيراً: الدكتور عيسى: متى كانت لصوته هذه الرقة؟

هل تكون جنان معه؟ لا أحد منهما يعلم أنك عدت منذ الثانية عشرة ظهر هذا اليوم الغائم مثلك. لعلهما الآن يتغديان في الزبداني أو في بلودان، وأنت وجوعك تنتظران. لعل الدكتور عيسى وفى بوعده لأسرته أخيراً، ومضوا إلى منتجع الرمال الذهبية في طرطوس: الإجازة البحرية الثانية لهذا الصيف، وأنتِ يا جنان: تعالي معنا. ربيع يتبختر في طرابلس وفي تونس، فلماذا لا تتبخترين على شاطئ البحر؟

جنان والدكتور عيسى يسبحان إذن الآن. لونا وسميح ــ ابنا الدكتور ــ يسبحان أو يعبثان بالرمل. سميحة ــ زوجة الدكتور ــ تغط في قيلولتها المقدسة. أما جنان والدكتور فلعلهما يتعرقان على الرمل، أو في خلوة لن يعجز مدير المجمّع 21 عن تدبيرها على الرغم من حذره المعهود، ومن كل ما يقال في تعففه عن النساء.

لربيع إذن أن يملأ الكنبة، ويغمض عينيه غير آبه، ما دام هو أيضاً قد رافق الدكتور وأسرته ـ وبالطبع جنان ـ في الإجازة البحرية الأولى لهذا الصيف: منتجع الشاطئ الأزرق في اللاذقية فور انتهاء الامتحانات: سميحة وجنان تفترشان الرمل وتتأملان الشمس الغاربة، سميح يدرب لونا على السباحة، والدكتور يتفقد مشروع شبكة الصرف الجديدة منذ الضحى.

تنفر لونا من شقيقها وتلجأ إلى ربيع. ربيع يوسدها الماء كأنه يحضنها. ذراع له تحت كتفيها، وذراع تحت أليتيها. لونا تتقلص وتسترخي وتضحك وتشهق. سميح يزين لها السباحة على الظهر ويبتعد. ربيع يلتاث بالحباحب الصافية التي تلعب على عنق لونا. عيناه تلونان بطنها العاري وساقيها العاريتين بحمرة الشمس الغاربة وبزرقة الماء الساجي. لونا تغطس جزعة وتتعلق بعنق ربيع. تحاول من جديد وعيناه تجرؤان على أن تتمليا سرتها وما يغطي المايوه البيكيني من جسدها. ذراع له تزحف من تحت أليتيها إلى فخذيها. ذراع تتسلل من تحت إبطيها وتلتحم بطرف السوتيان. لونا تغمض عينيها وهاتف يهتف بربيع: لونا تكبر غوًى بسنتين فقط. استح. ذراعاه تفلتان لونا والهاتف يهتف به: لونا مثل بنتك. استح. ويمور صدره: جنان أيضاً مثل أخت الدكتور. سميحة مثل أختي. أنا لم أشته سميحة مرة. وما أدراك أن الدكتور يشتهي جنان؟ جنان إذن تغوي الدكتور، وأنت تغوي لونا، ولونا تغطس جزعة وتتعلق

بعنقك وتقف على الرمل فيزنرها ذراعاك، وفجأة تملص منك فتتعلق أصابعها بأصابعك: استرخي على طولك. حركي رجليك بالتناوب. لا تصلّبي عنقك. لا تحبسي أنفاسك. عظيم. مدي ذراعيك. تقدمي. الآن سأستدير وأمشي. أصابعك على كتفي. رؤوس أصابعك. ذراع واحدة. جدّفي بالذراع الثانية. ولونا تغطس جزعة. تحاول من جديد. ذقنها تحط على كتف ربيع فيقشعر. تبتعد. صدرها يلتصق بظهره فيقشعر. تبتعد. يتوقف وأصابع يمينه تتسلل تحت الماء حتى تلامس صدر لونا، ثم تتلوى بحذر متعللة بخبط لونا وبالماء. تحتضن الأصابع الثدي الصغير وتهدأ. ينفلت الثدي وتعود الأصابع إلى ربيع. تحل محلها أصابع اليسار المشبوبة وتهصر الثدي وتبتعد وتزداد جرأة ولا تبتعد وتهصر وتبتعد، وتغطس لونا جزعة، فيستدير ربيع إليها: تعالي اجلسي في حضني. تلف ذراع له كتفاً لها وتمسك ذراعٌ بفخذ. تتمرغ الذراع على الفخذ كما تتمرغ أليتا لونا في حضن ربيع. تشب لونا جزعة ويغطس ربيع في الماء. وحين يرفع رأسه يجد سميح يرش شقيقته بالماء وهي تضحك وترشه.

والآن يتقلب ربيع على الكنبة العريضة. يستعيد غنج لونا وإيماءاتها المبهمة كلما زار الدكتور عيسى في البيت. أنتَ واحد من أسرة الدكتور، والدكتور واحد من أسرتك. كيف ركبك إذن الوسواس طوال الإجازة؟ كيف يعاودك الوسواس من بعد كلما

زرت الدكـــتور فـــي بيته؟ ولكن لونا نفسها، أليست الوسواس الخناس للجِنة والناس؟

وهـــي تحبو، حملها ربيع وحمل الألعاب إليها ولاعبها، ولم تكن غِوَى قد وُلِدت بعد. لونا في الحادية والعشرين، وغِوَى في التاســعة عشـــرة. سميحة مثل الأخت الكبرى لربيع، لو أن له أخـــتاً تكبره. ولكن جنان نفسها، أليست الوسواس الخناس لِلجِنّة والناس؟

قـــد لا يكون ربيع عرف الغيرة من أحد على جنان إلا من الدكـــتور عيســـى. لكـــن غيرته سرعان ما انطفأت، بينما أخذ يســـتعين علـــى وصال جنان بالفيديو وبالبذاءة. صارت الأفلام التـــي يســـتعيرها من إياس ومن المكتبة التي وصله بها إياس، تســـتثير جنان التي لم تبادر يوماً إلى الوصال، ولم تلحف يوماً عليه. صارت جنان تُستثار بهرف ربيع، وربيع بات يتجرأ على أن يســـمي مـــن يشتهي وهو فوق جنان أو وهي فوقه. ثم بات يـــتجرأ علـــى أن يســـمي من عليها أن تشتهي أو من عليه أن يشـــتهيها: الدكـــتور عيســـى وحده، وأخيلة ربيع المحمومة لا تنضب.

لكن جنان تتكفئ فجأة، فيركب الوسواس الخناس على ربيع الذي تتقلب به الآن الكنبة العريضة، وهو يلعن أربعين سنة كان يكـــاد يطويهـــا حيـــن أخذت جنان تنكفئ. قد تكون العلة في الأربعين وليست في جنان، كما هي ــ لا ريب ــ في الخمسين وليســـت فـــي لونا. لذلك زينت له نفسه أن يلح على جنان كي

يــزورا بيت الدكتور عيسى مرة في الأسبوع بدلاً من مرة في الشـــهر، أو أن يلـــح على الدكتور كي يزوره كل يوم، وربما العكــس، وربمـــا صار يصطنع الخروج من بيته أو من بيت الدكــتور أثـــناء الزيارة، وجنان تصبر على تلميحاته إلى أن تنكفـــئ، ثم تصبر على أسئلته الصريحة إلى أن تنفجر وترمي ربيع بوسواسه الخناس، فيستخذي وينأى كما تنأى، ويوماً فيوماً يحس أنه عليل. وربما كانت علته ستدوم أو ستكبر لولا ونسة. لكـــن مفاجأة الدكتور عيسى أسرعت: جنان تشكو لسميحة من الجحيم ومن الصقيع الذي تعيشان، وسميحة تلح على أن أتدخل بينكما. نحن أصدقاء أيضاً يا ربيع.

غـــير أن ربيع خشي من أن تكون شكوى جنان قد فضحت وساوســـه. وربمـــا كان ذلك، أو ربما كان أيضاً تدخلُ الدكتور عيسى هو ما عجّل بانفجار الصقيع والجحيم: الطلاق.

* * *

الطلاق!

تلســـعه الكلمـــة فـــيقفز عن الكنبة العريضة وتصطدم قدمه بالهـــاتف. يـــترك الهاتف مرمياً على البلاط ويجري إلى الباب المغلق: أين أنت يا جنان؟

يعيد الهاتف إلى الترابيزة ويهزأ بنفسه: هكذا لسعتك الكلمة أول مرة، لكنك ألفتها وألفتك سنة تلو السنة حتى نسيتها، فلماذا الآن؟

على مهل يمضي إلى المطبخ، ويهدأ. يتناول الغداء متأنياً، ويهدأ. أنتما طليقان بلا طلاق. أنتما زوجان بلا زواج. سنة بعد سنة لم تعد تباطنها كما تعوّدتَ وعوّدتها. بعسرٍ وبالكاد صارت فاعوستها تنفعس ــ ألم تكن كذلك دوماً إلا في ليالي الفيديو؟ ــ وصرت تنسى وهي تنسى، والمودة الملغزة تحل محل الحب. شيء من الحنان القديم هو. كثير من الطمأنينة والاستقرار. لا خلاف على أي أمر مهما يكن. طلاق ــ زواج كأنه زواج ــ صداقة كأنها صداقة ــ أخوة، كأنك ميت وكأن جنان ميتة: الموت؟

الموت!

تلسعه الكلمة فيقفز عن الكرسي، وتصطدم قدمه بقائمة الطاولة. يتأوه ويدفع بالكرسي بعيداً ويهزأ بنفسه: هكذا لسعتك الكلمة أول مرة، لكنك ألفتها وألفتك سنة تلو السنة حتى نسيتها، فلماذا الآن؟

على مهل يمضي إلى شرفة المطبخ، ويهدأ. يجلس على الكرسي البلاستيكي الصغير، ويهدأ. يتأمل الياسمينة في جنينة الجيران وتهمهم حناياه: الطلاق! الموت! إن لم يكن الطلاق فليكن الموت. إن لم يكن الموت فليكن الطلاق. لكنك ترمي جنان بالمستحيلين وتنجو بنفسك. تعيش المستحيلين بتلذذ منذ

اتحــدا: سيف يحز عقداً في عنق، لكأن جنان الآن على الكنبة التـــي ملأتها رحاب، تتفرج على التيلفيزيون وأنت مستلق على الكنــبة العريضة، وشاعر يشقّ الشاشة هاتفاَ: وسيفٌ حزُّهُ في العــنق عقــدُ. وتــتطلع إلــى عنق جنان وتنتفض. تتطلع إلى التيليفزيون وتناشد الشاعر أن يكرر وأن يكف في آن، فيستجيب ولا يســتجيب فــي آن، وتــتطلع إلى عنق جنان، وتهفو إليها وتضيق بوجدك، ولكن شرط أن تموت: ستكون بهية مثل موتها شــرط ألا يعذبها الموت. لا ينبغي أن تفتك بها علة مثلاً. ليكن حــادث ســير مثلاً. ليكن انفجار من الانفجارات التي روّعت المدينة إبان عشقك لجنان أو زواجك منها، وأنت لا تخشى أبداً أخيلتك المحمومة أبداً. أخيولة الموت هي التي تخشاك وتهرب منك، وأنت تجرها إلى أحلام يقظتك ومنامك وقت تشاء. تحدق فجــأة فــي عنق جنان. تتشهى أن تقبله وتتلمسه وتقبض عليه وتعضه. تلجم الدهشةُ جنان مرة، وتنفر مرة، وتلين مرة، كأنك تدعوها إلى الفراش، وكأنها تتمنع وتلبي في آن. ومن غفلة إلى غفلـــة من غفلاتك ما عادت عيناك تتعلقان بخصر امرأة ممن تصـــادف أو تعــرف، بل تسرعان إلى العنق. ما عادت عيناك تطوفـــان بكَفَــل امرأة في ردهات المجمّع، ولا تتمسحان على ســاقي امرأة في الصالحية أو الحمراء، ولا تتغلغلان في صدر امرأة ممن يتحلقن أمام سينما الشام، بل تسرعان إلى عنق نحيل أو عــنق معروق أو عنق أبيض وريّان أو عنق أسمر وطويل.

ولكن هل من عنق أصابك بالمسّ سوى عنق شهلة صادق؟

الفصل الثاني: درج الليل

1 ـ كأنما خرج ربيع ليلبي نداء عقد المرجان.

2 ـ محاولة للتعارف.

3 ـ جنان

1

كأنما خرج ربيع ليلبي نداء عقد المرجان

بلا هدف قاد السيارة منتشياً بالدوش وبملابسه الجديدة. سوف يعاقب جنان بأخيلة أقل ترويعاً جزاءً على غيابها. غير أن نسائم المساء الشامي تجعله يستخف ما به ويبحث عن أغنية في راديو السيارة.

* * *

في مرآب الشام أودع السيارة ومشى لاهياً حتى أوقفه الإعلان الكبير عن برنامج مسرح الحمراء: ما المسرحية التي حضرتَ مع ونسة عرضها الأول؟

لعن النسيان وأدار ظهره للمسرح وقطع الشارع إلى الرصيف المقابل، ومشى حتى أوقفته فتحة الزقاق التالي: في هذا الزقاق كانت شقة ونسة.

لعن النسيان ومشى متباطئاً ومدققاً في الأبواب والنوافذ حتى رأى نفسه وسط شارع العابد: أين هي شقتك يا ونسة؟

نحو فتحة الزقاق التالي الذي سيعيده إلى الصالحية، مشى وهو يفكر في أن ونسة قد تعود نهائياً إلى سورية بعد وفاة حسين. وتثاقلت خطواته وقصرت وهو يتقدم في الزقاق حتى تسمّر فجأة: هنا يا ونسة.

هذا هو الأباجور الفضي. هذا هو حديد الشرفة الفضي. هذا هو باب العمارة والأنترفون الوحيد، وأنتِ لستِ هنا ما دام الأنترفون لا يجيب والأباجور مغلقاً ولا أصيص في دوائر حديد الشرفة. لكن ربيع يتقدم درجة درجة إلى الطابق الأخير، ويرابط أمام الشقة اليمينية الأولى سبع دقائق: الآن صارت الساعة 8.30، وهذا هو الموعد تماماً كما كان قبل تسع سنوات، وأنتِ تفتحين الباب، وربيع يعانقكِ ثم يتقدم كأنه ديك ينفض جناحيه ويتشامخ بعرفه، فتضحك الحكاية وتحكي أن آدم شكا إلى الله جهله بأوقات العبادة، فأنزل الله ديكاً من الجنة: أبيض اللون يا ربيع وعلى قدرٍ عظيم من النور العظيم. وكان الديك إذا سمع تسبيح الملائكة في السماء يسبّح في الأرض، فتعلَّم آدم أوقات العبادة. وها هو الديك ملء عيني ربيع وقد غامت أظفاره في الأرض، وانطوى عرفه تحت العرش، وأحاط جناحاه بالخافقين، بينما خصلات ونسة تغمر وجه ربيع وهي تهمس: لم يبق من الليل إلا ثلثه، وإذا بالديك يضرب

بجناحـــيه ويصيح: سبحان ربنا الملَكَ القدوس. وأدركت صيحته مَنْ بين الخافقين، فوقع ربيع في الحيرة بين الطاووس والديك، واعترته رجفـــة حين سألت ونسة: لماذا نسيت الحبارى يا حبيبي؟ لماذا نسيت الحمامة؟

ونســـة الطـــاووس وونســـة الحـــبارى وونسة الديك وونسة الحمامة، وربيع ينتظر الآن تماماً كما كان ينتظر منذ تسع سنوات عـــودة ونسة من عيد رأس السنة: السري صالي يا حبيبي. لذلك ســبقتُ البـــنات من خربة بدرخان إلى الجبل وجمعت لك شقائق الـــنعمان ولبســـت الفستان المورد الذي خبأته بين ضلوعي ثلاث عشـــرة سنة في هانوفر وسنة قبلها في لجّة الخابور يوم كانت له لجّة فما رأى فستاني بعد راكان درويش أحد غيرك ولا عرفت من الـــرجال بعده غيرك كأني لا زلت مخطوفة أخبز الصوك يا ربيع والتـــنور يلســـع أصـــابعي وألوّن البيض حتى تميز الملائكة بيتنا وتـــباركه ثم أنتظر أبي حتى ينثر قشر البيض في خطوط الفلاحة فلا تزعل الأرض إذا لم يزرها ليلة العيد ثم أنتظر أبي حتى يذبح الثور ويسلق اللحم فأوزعه على المساكين وأحمل مع أختي الخبز واللحم إلى المقبرة وننتظر نزول الملائكة في منتصف الليل لأسجد مـــع الكـــون للخـــالق وأنتظر خروج الأرواح من قبورها لندبك ونرقص ونغني ليلة السري صالي يا حبيبي فكيف نسيت أن اليوم يوم سعدي وأن نيسان أبو الورود لا زواج فيه ولا بيع ولا شراء ولا حفر ولا بناء لكنك تنسى وتغويني الآن كما أغويتني في بيتك وتناديني إلى خطيئتك فأناديك إلى خطيئتي: التوبة يا ربيع. براس شيخ بغداد التوبة يا حبيبي.

* * *

مـــع الزقاق يسير خذلان حتى يفضي به إلى الصالحية، تماماً كما سار منذ تسع سنوات، سوى أن الصالحية ستشغله عما به هذه المرة بأسراب السيارات والصبايا والواجهات الزجاجية المتلألئة. وحيـــن يـــبلغ نهايـــة الشارع يتوقف أمام الكتب المعلقة على لوح خشـــبي كبـــير: 55 مشـــكلة جنسية وحلولها ــ 100 سؤال عن الجـــنس، ويتنـــبه إلى أنه الكهل الوحيد بين الفتية المتراصين أمام الرصـــيف، فيتطامـــن ويتابع سيره نحو إشارة المرور. وقبل أن يـــبلغها ينـــبق صـــبي قدامـــه هامساً: كاسيت سكس هشتك بشتك بخمســـين ليرة، فيتنحّى وعيناه تتابعان إشارة الصبي إلى صدره. لكن الصبي يلحق به هامساً: معي فيلم خصوصي كتير كتير بمية لـــيرة. ويتوقف ربيع ويتابع إشارة الصبي إلى بطنه هامساً: فيه بـــنات زغـــار وضرب لحد الموت وفيه الكلب وصاحبته وكله ع المكشوف بس بمية ليرة. ويرى ربيع الناس يتسابقون إلى الرصيف الآخر فيلحق بهم متشهياً وخائفاً. ولا يكاد يبلغ الرصيف حتى يلاقيه نداء إياس: الحمد لله على السلامة.

وقبل أن يتحرر من عناق إياس يعاجله:

– رأيت جنان اليوم؟

– ولا سمعت صوتها. خير؟

– لم تعد إلى البيت حتى الآن، وهاتفها مغلق.

– ربما كانت عند أمها. ربما..

- رأيت الدكتور عيسى اليوم؟

سأل ربيع مقاطعاً.

- الدكتور عيسى لم يظهر في المجمّع منذ أسبوع. يبدو أن السكّري سيقضي عليه. يُقال: هو في غيبوبة، ولا يصحو إلا ليطمئن على المجمّع.

قال إياس وراح ينطّ مثل القرد، وربيع يتبعه صامتاً ومشوشاً ومحاذراً الالتفات إلى أفواه الأزقة المتفرعة من الصالحية، حتى تلقفهما شارع الحمراء. عندئذٍ أدرك أن كثيراً قد فاته أثناء غيابه، وأن إياس يدفعه إلى الاعتصام أمام مبنى الأمم المتحدة. وكانت محالّ بيع الكاسيتات تصدع المساء: جوليا بطرس تنادي: وين الملايين، مرسيل خليفة يصدح: منتصب القامة أمشي، فيروز ترتل: يا قدس يا مدينة الصلاة، شعبان عبد الرحيم يلعلع: بحب عمرو موسى وبكره إسرائيل. وربيع يتوه خلف الأيام الغاربة المجيدة والمؤسية, من قصف بيروت إلى قصف بغداد إلى الانتفاضة الأولى إلى الانتفاضة الثانية. وها هي تلك الأيام تتوحد خطوة فخطوة نحو مبنى الأمم المتحدة، وإياس لم يعد ـ كما كان قبل أن يسافر ربيع ـ شامتاً بسقوط برجي نيويورك وسقوط الطالبان، وإن كان لا يزال يرمي كيد أمريكا بكيد القاعدة، وربيع يندس بين الذين اعتصموا في المقاطعة لصق ياسر عرفات، وينطمر تحت الردم في هذا الزاروب، يستسلم للذباب الذي ينهش جثته في هذا الزاروب، يتلوى في هذا الزاروب فراراً من الرصاصة التي ستقنصه، ينزف في هذا الزاروب حتى الموت، وأخيراً يقف خلف إياس على رصيف مبنى الأمم المتحدة مذهولاً

وخائفـــاً، وتُضاعِف من ذهوله وخوفه سياراتُ الإسعاف وشرطة النجدة والمخابرات، ثم يضيّع إياس في الزحام: شبان وصبايا في اللجة، كهول وعجائز يتناثرون أبعد فأبعد، وجوه غريبة ومحتقنة، ســـافرات ومحجبات، معتصم يصافح إياس بحرارة ورغيدة تلتفت وتبربر، وربيع يتمتم: المكتب الإعلامي في المجمّع كله إذن هنا، وهذه لونا تظهر وتختفي: أنت أيضاً يا شيطانة!

إلى الجهة التي نبقت منها تقدم، لكن الزحام صدّه، فوقف يرنو إلـــى الأعـــلام الفلســـطينية الصغيرة المعلقة على السور. وبدت الأعلام مثل أشلاء الصور تحتها مزودة بالرصاص ومنقّعة بالدم، تســـوّرها صورة كبيرة لفوهة مدفع، بل صورة جرّافة، بل صورة مقطّعة لهذا العلم الذي يرفرف فوق مبنى الأمم المتحدة، بل صورة غائمـــة لهذا الباب الموصود الذي ترتد عنه نظرات ربيع لتتشظى فوق الرؤوس: ربيع: هذا هو عقد المرجان!

* * *

علـــى الدائرة الحجرية الخفيضة التي تسوّر شجرة الزنزلخت وقف وتطاول مكذباً عينيه.

كان علم إسرائيلي يحترق وكانت ذراع شهلة تخبط في الهواء. صـــاح: شهلة، وداخ، وتشبث بجذع الشجرة يغالب دهراً لا بد من أن ينقضـــي قـــبل أن تقف شهلة أمامه: عقد المرجان يزيده عنقها بهـــاءً، وربيع ينفلت من جذع الشجرة ويتشبث بكتف شهلة كأنما

أصابه المسّ وحده. لكن المسّ أصاب أيضاً عقد المرجان، فالتصق بكتف ربيع، وكانت شهلة تلغط وتتراجع وتتقدم و.. تضحك.

وجــرى ربـــيع قابضاً على ذراعها إلى الرصيف المقابل الذي تحجـبه ســيارات الإسعاف وشرطة النجدة والمخابرات. وجرت وهي تعاند مثل طفلة راغبة وتسأل: لوين آخدني.

أمام سيارة الإسعاف وقف لاهثاً، وقال:

– لآخر الدنيا.

– والاعتصام؟

ســألت مشيرة إلى علم الأمم المتحدة وإلى الحشد، وكان إياس تحت شجرة الازدرخت يتقافز مثل القرد، وربيع يناشدها:

– نشرب فنجان قهوة ونعود.

وتابع وأصابعه تحت أصابعها:

– مطعم الضيافة قريب.

غير أن فنجان القهوة صار كأساً من البيرة فكأس، وصوتاهما ـ مثل نظراتهما ـ يندغمان:

: أنتَ أكبر من أن أقول مجنون.

: وأنتِ أصغر من أن أقول: عاقلة.

: كيف تجرأت عليّ؟ ـ سبابة تشير إلى العقد.

: اسألي عنقك. هو الذي تجرأ عليّ.

: هذا اعتداء على موظفة يا أستاذ. ولولا أني قلت للحارس: الأستاذ صديقي، لزجّوك في السجن. زميلتي لم تصدقني فحلفت لها بالقرآن.

: أنت صادقة.

: من أنت؟ ـ ينعقد حاجباها لأول مرة.

: مجنون يبحث عن مجنونة في المطار، فيجدها في الاعتصام. سألت عنك اليوم رحاب.

: رحاب نجا؟ تعرفها؟

: زارتني اليوم في البيت وجنان غائبة.

: من هي جنان؟

: زوجتي.

: زارتك رحاب في غياب زوجتك!

: توهّمت أنها تشبهك.

: مدام مرمر تحلف أننا من ظهر واحد.

: لكنها لا تشبهك.

: أنت أول من يقول هذا .

: بين خلق الله لا شبيه لك.

: لمن حملت هذا العقد؟ ـ سبابة وإبهام يمسدان على العقد.

: اسأليه ـ عينان تغمزان العقد, والعقد يستحي.

: لزوجتك أم لصديقتك؟

: لك.

: هل يمكن أن تكون جاداً؟ ـ ينعقد حاجباها للمرة الثانية.

: لو قلت لك: ليس لي صديقة، والعقد اخترته لجنان، فهل أكون جاداً؟ العقد هو الذي اختارك. أنا لا أمزح. وأنت؟

: ما بي؟

: من أنتِ؟

: مجنونة تبحث عن مجنون في المطار فتجده في الاعتصام.

: لذلك رضيت بالعقد؟

: هو رضي بي.

: هل يمكن أن تكوني جادة؟ ـ يحاول حاجباه أن ينعقدا.

: اســـأله ـ سبابة وإبهام يمسدان على العقد، وعينان تناجيانه فيغمزهما.

: والآن يا شهلة؟

: الآن يا ربيع؟

2

محاولة للتعارف

شهلة:

أمام المركز الثقافي البريطاني افترشنا الشارع ضد قصف العراق. الحراس الشباب: طقم أسود وكلاشينكوف، والأحجار تهشم الزجاج. الهتافات تشق حناجرنا وزعيق سيارات الشرطة يشق أعماقنا. لا تنس سيارات المخابرات.

بعد قليل تعالت أصوات: يلله ع السفارة الأميركية. الأساتذة مثلك ملأوا الرصيف ونحن ملأنا الشارع. كنتم صامتين وعابسين. كنتم متأثرين وخائفين, ونحن نهتف. حملوني على الأكتاف وحملوا حسام درباس: رأيته لأول مرة.

ما كادت السفارة تظهر حتى تهت عنه كما تهت عن أخي هاني وعن كل من أعرف في المظاهرة. كنت طوال الطريق أهتف وأنا

أنظـــر إلى حسام. حسام أيضاً كان يهتف وينظر إليّ. وفجأة رأيته يقفـــز كالفهد فوق سور السفارة. قفزة حسام جننتني يا ربيع. لولا دخـــان القـــنابل ما وقع. خفت عليه عندما قفز وخفت عليه عندما وقـــع. ركضنا مع من ركض وابتعدنا وتهنا ثم التقينا. جلسنا على حافة الرصيف مع من جلس حتى ناحت امرأة: بعد سبع سنين من الحصـــار يقصـــفون بغداد! الله يخرب بيوتهم. وقف حسام ووقفت, وظهر هاني، وسرنا معاً نحو السفارة الروسية.

ربـــيع أفـــندي: مـــا عادت المظاهرة تهمك؟ ما عاد يهمك من حصار العراق وقصف العراق إلا حسام؟

حســـام زوجـــي يا ربيع أفندي. حسام درباس كان زوجي. أنا مطلقـــة ولـــي ولد اللهم صلّي على النبي. لا تبحلق. أنا أم سعيد، وحســـام فـــي مثل عمري ومعه بكالوريا مثلي. بعد البكالوريا لم يشغل نفسه بالجامعة ولا بالوظيفة. أسرع إلى الجيش، وبعد سنتين ونصف أسرع إلى المريجانة. المريجانة عروس الغوطة كما كان يقـــول. وأمـــام الســـفارة الروســـية دعاني ودعا هاني حتى نرى العروس. قال: هاتوا معكم إن شالله عشرين واحد. اعملوا سيران. عملنا السيران: شاكر وقحطان وخطيبته خديجة وعبد الرحيم.. كنا تســـعة، وأمام الجميع قال حسام وهو ينظر لي وحدي: بعد الجيش أخذت حصتي من الميراث. أخذت قرضين من المصرف الزراعي ومـــن خالي. اشتريت تراكتور وصارت الأرض تقول لي: خذ يا حسام. قلبي قال لي: هذا هو يا شهلة.

***

ربيع:

أنا أيضاً كنت في المظاهرة. وكما خمّنتِ، سرت على الرصيف من المركز الثقافي البريطاني إلى السفارة الأمريكية، ورأيت جنية محمولة على الأكتاف وتهتف بصوت مبحوح. لا تتباهي. أكثر من امرأة كانت تهتف.

عندما أطلقوا القنابل المسيلة للدموع خفت وهربت. أنا عجوز وخائف كما يقول صديقي إياس. إياس هو الذي قادني اليوم إلى الاعتصام. أنا فعلاً خائف من قصف العراق ومن المظاهرة ومن قصف فلسطين ومن الاعتصام. خائف من أمور كثيرة ومن بشر كثيرين أرجو أن تكوني آخرهم، وأرجوك ألاّ تظني أني دون جوان زمانه. بعد زواجي من جنان ما عشقت إلا ونسة. من تسع سنوات ما تذكرتها إلا اليوم. بعد ونسة ما عشقت إلا واحدة عليك أنت الآن أن تسميها. واحدنا في المجمّع 21 لا يلتقط أنفاسه، وأنا في المجمّع 21 من عشرين سنة. أنا أعمل في اليوم عشر ساعات، وفي بداية المجمّع كنت أعمل عشرين. ولكن ليس هذا وحده ما يمنعني من أن أكون دون جوان . تكويني هكذا. ولا تنسي أني زوج مثل الطليق، وهذا يربكني منذ سنين. أنا الآن لا أحب جنان ولا أكرهها. أحياناً أمقتها، ولست مغفلاً حتى لا أقدّر ما بها نحوي. قد تكون العلة ــ كما يراها الدكتور عيسى ــ في زمالة العمل وفي الزواج. الدكتور عيسى كان أستاذي في المعهد العالي الصناعي، وهو ليس رئيسي فقط. هو صديقي تقريباً أو أحياناً، ولو أن إياس وغير إياس يقولون: لا صديق له. كنت أنتظر على أحر من الجمر أن أنهي الخدمة الإلزامية عندما ناداني إلى براكات

التوتياء التي صارت المجمّع 21. كنت قد ضيّعت في المعهد سبع سنوات بدلاً من خمس، وعندما تخرجت أسرعت إلى الجيش مثل حسام. لم أكن كسولاً ولم أكن الطالب النجيب الذي لا ينساه أستاذه، لكن الدكتور عيسى تذكرني وناداني. كنت طالباً على هواي، طالب بمزاج، مثله عندما كان يتخصص في بون. كنت مثله أتفوق لو شئت. أرسب لو شئت. هو هاوٍ يتخصص ومتخصص ترمح به هواياته، وأنا طالب ألهث خلف السينما والكتب والسياسة والبنات: هوايات الدكتور نفسها، زيدي فقط: الجري له والسفر لي. الآن أخشى أن كل شيء يتهدم. الدكتور عيسى سيستقيل أو يُقال، المرض على كل حال بدأ يقوى عليه. المجمّع 21 قد يعود كما بدأ: براكات التوتياء. هذا التواطؤ أو السلام الذي أعيشه مع جنان وتعيشه معي، ينذر بالنهاية منذ سافرت بنتنا الوحيدة غِوى إلى باريس. قلت لك أنا عجوز وخائف، ولكن لا زالت لدي بقية من الشجاعة، وإذا كنت لا تصدقين، اسألي من عليك أن تسميها: شهلة صادق.

***

شهلة:

بعد المظاهرة بشهرين تزوجت. ليش العجلة؟ الحب من جهة، والهرب من الموت من جهة. أبي كان يريد أن يزوجني ولو من الشيطان. أختي الكبرى سامية زوّجها في السادسة عشرة، وأخي الأكبر سامي زوّجه في العشرين. هاني تمرد وأنا تمردت. قبل

البكالوريا جاءني أبي بأول عريس. قلت: لا، حرمني من المدرسة سنة. بعد البكالوريا جاءني بالعريس الثاني. قلت: لا، حرّم عليّ الجامعة وحرّم عليّ الشغل. ولما حرّم عليّ الخروج من البيت تصدى له هاني. بفضل هاني اشتغلت في مطبعة السالمي، وبعد المظاهرة بيومين ثلاثة بشّرني أبي بليلة القدر: العريس صديق عمره وحاجّ وأرمل تازة ويملك معرضاً للسيارات الجديدة ومزرعة وعقارات، وأولاده الثلاثة متزوجون ولكل واحد مصلحة مستقلة بالملايين. قلت لا، ولولا هاني كان أبي قصّ لساني. كان شعري يغطي ظهري, قصّه. كلما غاب هاني عن البيت كانت لي حفلة يجمع لها الجيران بكائي وصراخ أسماء أختي الصغيرة وصراخ أمي. ضربني بكل ما يخطر على البال. انخلع فكي وانكسر لي ثلاثة أضلاع وانقطعت عن المطبعة. قلت لهاني: اذهب إلى حسام وقل له: شهلة تطلب الزواج.

* * *

ربيع:

عليكِ أن تجمعيني بهاني. لا أعرف لماذا، ولكنه يذكرني بحسين نوري شقيق ونسة الله يرحمه. ونسة كانت تحب الغناء والرقص، ولكن فقط في السري صالي. جنان تحب غِوَى والمجمّع والتيليفزيون. أنا أحب السهر. أنت ماذا تحبين؟ أنا أؤمن بالقضاء والقدر. أنت بماذا تؤمنين؟ أنا علماني أيضاً إذا كان هذا يهمك. ونسة كانت علمانية وكانت مؤمنة. إياس: أعوذ بالله. لا تسأليني

عــن جنان. ما عدت أعرف عنها شيئاً. أنا الآن معك ولا أعرف أيــن هي. لم أرها بعدما رأيتك في المطار ولم أسمع صوتها ولم أبحــث عــنها. أرجو ألاّ تكون في مكروه. ربما تكون مع أحدهم الآن. لا أعــرف ما إذا كنت سأقول لها: التقيت شهلة صادق في المطــار وعشــقتها. أعرف أن كل هذا الكلام قد يضرني في أول لقــاء بك، لكني أردت أن أكون صادقاً. من النادر أن كذبت على نفسي أو على غيري. أنت: هل تكذبين؟

* * *

شهلة:

لم أخرج من المريجانة خلال سنة ونصف. نسيت أهلي ونسيت الشام ونسيت نفسي. هاني كان يزورني كل فترة. عروس الغوطة جننتني مثل قفزة حسام فوق سور السفارة. الدنيا كلها كانت ملونة مثل المشمشة مثل الدراقة مثل حبة البندورة مثل إصبع الخيار مثل غيوم كانون. وأنا حامل كنت أركش وأسقي وأقطف وأجمع وأطبخ وأغســل كأنــي ما عشت في الشام ساعة: حماتي هي التي كانت تقــول. وحماتي زعلت لأن حليبي نشف قبل أن تنبت لسعيد سنّ. حســام زعل لأني لا أريد أن أحبل مرة ثانية قبل أن يكبر سعيد. علــى الأقل قبل أن يمشي. أمي كانت تقول: شهلة مكتوب لها يا هانــي. أختك مسحورة يا هاني ويا رب تستر معاها بعد ما ينفك الســحر. انفك السحر وما عاد شغلي يرضي حسام. ما عاد حسام يرغب بزيارات هاني, والعجيب أنه صار يريدني كل ليلة حتى لو كنــت في الدورة. صرت أرفضه. صار يشتمني. صرت أعانده.

صار يضربني. قلت: أبوك يا شهلة أرحم، وحملت سعيد ورجعت إلى أهلي.

بعد يومين طردني أبي. أخي الأكبر سامي حرضه على طردي ولا أظن أنه كان بحاجة إلى من يحرضه. عدت إلى حسام واعتذرت له. صرت ألاطفه وأعرض نفسي عليه. لكنه رفضني. قلت: اصبري يا بنت. وصبرت، وهو يعاملني معاملة الأجير. أمه التي كانت تحنّ عليّ مثل أمي صارت تعاملني كأنني خدامة. صار يضرب سعيد، وساعة يحلو له يغتصبني. قلت: احبلي يا شهلة واخزي الشيطان. حبلت وبعد شهرين أجهضت. بحجة عطش الجرجير لَبَطني ورماني في الزريبة ورفسني فأجهضت ومرضت ومرض سعيد. حرّم علينا الطبيب حتى رأينا الموت. أمه نفسها قالت له: حرام عليك يا ابني. قلت: خلص يا حسام. ولكن قل لي يا ربيع: أين كان حسام يخفي كل هذا الشر؟ هل هو من تبدّل أم أنني كنت عمياء منذ البداية؟

ما كدت أتعافى حتى حملت سعيد ورجعت إلى أهلي. ما كاد سعيد يتعافى حتى صاح أبي: ارجعي إلى زوجك وبيتك. هذه المرة تصديت له مثل هاني الذي ذهب إلى حسام: شهلة تطلب الطلاق. ساومني حسام على تربية سعيد، قلت: خذه. حماتي الآن تربيه يا روحي، وكل أسبوع أراه عندها مرة. أبي لا يكلمني من قبل الطلاق، وسامي يحرضه عليّ كلما زارنا. صاحب مطبعة السالمي أعادني إلى العمل حتى دبرت لي مدام مرمر وظيفة في السوق الحرة, واليوم قال القضاء والقدر: هذا المجنون حمل لهذه المجنونة هذا العقد من المرجان. قلبي قال لي: هذا هو يا شهلة.

3

جنـان

انفـــرج الباب عنها شاحبة تنزّ قهراً وحزناً. انقلب حنقه خوفاً عليها ومنها وعليه ومنه. أفرد الخوف ذراعيه ليضمها كما لم يفعل منذ سنين، وانغلق الباب، وانفجر بكاؤها على كتفه، ورددت: من الصبح وأنا بين إيديهم يا ربيع.

كانـــت عيـــناها ذابلتيـــن ومحمرتين. ومسحت أصابع ربيعٍ على صدغيها وذقنها. ورأفةً بها أو درءاً لما به، تبسّم وخاصرها آمراً: يلله ع الحمّام.

وهي تتقدمه مثل طفلة مذنبة، جاء صوته يقطر حناناً:

– تحمّمي، وبعدين بتحكي لي. رح حضّرْ لكْ العشا.

لكنّ أصابعه ــ عندما توسّطا الحمّام ــ راحت تعريها وترمي ثـــيابها خارجاً. وبانتظار أن يمتلأ البانيو بدت جنان ذاهلة، وبدت شـــفتاه قادرتين على أن تتهجياها كما لم تفعلا منذ سنين: عنقها لا

يـــزال ريّـــان وأبيض، ثدياها لا زالا صغيرين وعجرين، بطنها خـــامص وعانـــتها طالـــت وازدادت سواداً. وبترفق بالغ أدارها فانصاعت: شعرها مشقّر وقصير كما لم يره من قبل ـــ ربما تزور صـــالون مرمـــر أو ســـواه ـــ وكتفاها كأنما ازدادا عرضاً وملاسة، ظهرها كأنما انحنى قليلاً، أليتاها ـــ وهي تفرّ من شفتيه وأصابعه إلى البانيو ـــ أقل امتلاءً، والبانيو يضيق حتى يصير سريراً على قدهما، فيوقن وهما يتطوحان في الماء الساخن أنها كانت ونسة وكانت لونا والآن صارت شهلة وهي تعود كما لم يعرفها من قبل: جنان.

وجـــنان إذن اســـتدعيتْ في العاشرة صباحاً إلى التحقيق: سد زيزون يا ربيع!

: فـــي طبقة الغضار حصل انفجار، وهذه هي الإضبارة: هذا توقيعك يا مدام أم لا؟

: لكنه واحد من عشرين توقيع. انظر.

: أنتِ في الموقع الأهم يا مدام.

: سد زيزون؟ يتساءل ربيع وجنان تأكل بشهية لم تعهدها من قبل.

: صرت المسئولة عن دراسات سد زيزون وعن تنفيذ سد زيزون ـــ قالت وهي تكاد تختنق بلقمة، فأسرع ربيع إليها بكأس الماء.

: أنا نسيت سد زيزون يا ربيع.

: وأنا نسيته. المجمّع 21 كله نسي سد زيزون.

: مـــا الذي جعلهم يتذكرونه يا ربيع؟ كم سنة توقّف فيه التنفيذ حـــتى حـــنّ الصـــندوق الكويتي وتكرّم بالقرض؟ من الذي يتذكر انفجار الغضار الآن؟

لكن المحقق يتابع التحقيق:

: مــدام جنان: في قاعدة السد تربة غضارية لا يجوز التأسيس عليها. التربة الغضارية تنزلق يا مدام أم لا تنزلق؟

: أسأل صاحب الاختصاص. اسأل صاحب العلاقة.

: خلّنا الآن بالسيدة جنان برقا.

: وهــذا كلــه هيّــن يا ربيع ــ تحكي الآن جنان وهي تداري ســعادتها بربيع، تقبّل الهديتين اللتين حملهما إليها من تونس ومن طــرابلس، وهــو يغــصّ بكذبة الهديتين، يعزم على العثور على المــروِّجة المحجّبة غداً، يحذر رحاب نجا منذ الآن من أن تفشي ســرّ الهديتيــن، يلــح على جنان أن تتذكر كل كلمة في التحقيق، فيصير المحقق ثلاثة يتدافعون:

: المواطنون يحذرون من الرشح في قمة السد.

: سد زيزون ينزّ من يومه الأول يا مدام.

: هل يجوز أن تتركي المياه تتسرب من أسفل السد؟

: المواطنون يشكون من بقبقة الينابيع في بيوتهم يا مدام. كلما ارتفعت المياه في بحيرة السد شبراً، بقبقت في بيت.

: وأنــا مــا ذنبي يا سيادة العميد؟ أنا لست مهندسة سدود. أنا لست مصممة ولا منفذ ولا..

: أنــا مــرعوبة، أنا جائعة، أنا فرطت يا ربيع. قدم لي سيادة العميد التقرير المدجج بعشرين توقيعاً: لا مشكلة في سد زيزون. لماذا أنــا هــنا إذن؟ هذا تقرير ثلاثة خبراء وعشرين مهندساً يؤكدون: التســرب طبيعــي. التسرب في حدود المسموح به، فلماذا أنا هنا يا سيادة العميد؟ لماذا أنا هنا يا أستاذ؟ لماذا أنا هنا يا رب؟

: لأن الشكاوى كثرت والشكوك كبرت يا مدام.

: هددنــــي؟ طبعاً هددني. شتمني؟ لا. ضربني؟ لا. لكن واحداً كـــان لطــيفاً وواحداً زنخر وزمجر وواحداً طوّح كفه في الهواء وخـــبط المكتـــب أربع خمس خبطات، رفعتني الأولى شبرين عن الأرض وطردتنـــي الأخيرة من الغرفة. انتظرت في الممر حتى يبســـت. أدخلونـــي إلى غرفة ثانية كبيرة ومعتمة. قعدت ووقفت ومشـــيت ويبســـت. قدمـــوا لي فنجان قهوة وكأس ماء. رفضت. شربت. قدموا لي سندويشة. رفضت. أكلت. أين التواليت يا ناس؟ أيـــن أنـــا يـــا ناس؟ أين أنت يا ربيع؟ أين أنت يا دكتور عيسى؟ حاولـــت أن أكلـــم الدكتور بالموبايل. أخذوا الموبايل مني قبل أن يدفعونـــي إلـــى سيارتهم في ساحة المجمّع. شتمت وهددت وكنت أظـــن أن الدكتور عيسى سيخرجني من هذه المصيبة حتى لو كان فـــي غيـــبوبة . طارت بي سيارتهم من الساحة إلى.. إلى أين يا ربيع؟ ستائر السيارة حجبت عني الطريق في الذهاب وفي الإياب. الطريق من المجمّع إليهم طويلة. الطريق منهم إلى هنا أقصر. بعد ســـاعة، بعد ساعتين، بعد خمس ساعات، وبعدين يا جنان؟ بكيت وغفـــوت ورأيتك تدير ظهرك لي وتتركني. رأيت الدكتور عيسى يدير ظهره ويتركني. ناديته وناديتك وناديت الدنيا كلها حتى سمع الله ندائي. أضاءوا الغرفة وقالوا لي: تفضلي يا مدام. أعادوني إلى البيت والحمد لله أني وجدتك. كيف كنت سأقضي هذه الليلة وحدي؟

: أي ليلة يا جنان؟ شقشق الفجر يا حبيبتي.

: تصبح على خير يا حبيبي.

الفصل الثالث: درج الليل.. والنهار

1 ـ حيوان جديد.

2 ـ أعرّيك لأعرّيني.

3 ـ صبيب المطر.

4 ـ ختن القلوب.

5 ـ موسى نزهان.

6 ـ من العاشق ومن العاشقة؟

7 ـ مما كتبت ونسة لإياس ليلة عيد ميلادها.

8 ـ سيران.

9 ـ رصاصة الرحمة.

10 ـ الباب المغلق.

1

حيوان جديد

جنان استدعيتْ للتحقيق، وبعدين؟

يهمـــزه السؤال وهو يتقافز فوق بقع الماء والطين. وحين يبلغ دكان أبـــو غدير في نهاية الطريق المسفلتة، يحيي دون أن يلتفت، ويرد أبو غديـــر بصـــوت عال، ثم يهمهم كالعادة: والله العظيم ما لك شبيه إلا القرد.

بعـــد الإســـفلت تتكاثر البقع في الزقاق وتتسارع قفزات إياس. ومـــن الـــبقع إلى الدرج الحجري والترابي, تتباطأ القفزات وتكبر حتى تبلغ البيت في ذروة التلة: جنان استدعيتْ للتحقيق يا إياس.

يهمـــس ربـــيع بالعبارة كما يهمس المجمّع فيطرق إياس الآن طويلاً، ثم يتلفت حوله بأناة، كعادته كلما عاد إلى البيت، وفي أي وقت: يتأمل البيوت الصغيرة القريبة المتراكمة الكالحة، ينظر إلى

أعالي البنايات البعيدة، يرى الصحون اللاقطة عيوناً خرافية تحدق فيه وتتقدم نحوه، يسرع في الدخول، يقف على المصطبة التي رصفها بالحصى. لازال أمامه الكثير كي تكتمل المصطبة والأحواض، لكن الحاجز العسكري في بداية التلة صار يمنع نقل الأثاث إليها، فكيف بمواد البناء؟

* * *

منذ خرج من السجن لم يرتكب مخالفة إلا بناء هذا البيت. لكنها واحدة من مئات المخالفات ـ البيوت التي ملأت التلة. وعلى كتفه حمل إياس أكياس الإسمنت كيساً كيساً، وحمل الرمل والحصى كيساً كيساً، وحمل البلوك حجراً حجراً، والحديد قضيباً قضيباً و.. وماذا بعد استدعاء جنان للتحقيق؟

قد يكون ربيع هو التالي. قد يكون الدكتور عيسى نفسه. ما شأنك أنت؟ في المجمّع سواك عشرات من خريجي السجون الذين آواهم الدكتور عيسى قبلك وبعدك، ومنهم من لهط ما لهط، وصارت له فيللا ومزرعة وسيارات، وما عادت زوجته تتزين إلا في صالون مرمر، ولا تقضي إجازة الصيف إلا في شرم الشيخ أو لارنكا، فلماذا أنت خائف؟ ليس لك ما يحاسبونك عليه إلا هذا البيت. وليس يُعقل أن يزيلوا حيّاً بكامله. ليس يُعقل أن يحاسبوك وحدك، فلا تخف. ليست هذه أول مرة يُستدعى فيها بعد خروجك من السجن واحد أو واحدة من حولك، صديق مثل ربيع أو صديقة مثل جنان, فلا تخف. حضّر العشاء على مهل. انظر ماذا في

التيلفزيون على قناة المستقبل: خيال الصقور في الإدارة الأمريكية يبدع الضربات الاستباقية وسجن غوانتنامو. ابلعْ هذه اللقمة الهنية. ادفع لعسكري الحاجز مائة ليرة فقط حتى يسمح لك بتهريب صحن لاقط. لا بد من السيتيلايت يا أخي. القنوات الأرضية كثيرة يا أستاذ. هذا إعلان عن الجهاد الإلكتروني. هذا صدام حسين يغني لجورج بوش الأب ثم لجورج بوش الابن: أعاتبك على إيه ولاّ إيه ولاّ إيه؟ وهذا الأب والابن معاً يغنيان لصدام حسين: أخاصمك آ. أسيبك لأ. هذه نانسي عجرم شخصياً توصيك بأن لا تنسى أن تقول لعسكري الحاجز إنك صحفي, أو إنك تعمل منذ خرجت من السجن عند الدكتور عيسى نزهان في المجمع 21 بصحبة معتصم ورغيدة. عندئذٍ تستطيع أن تأتي بأكياس الاسمنت الأسود والأبيض وبالنحاتة لتكمل المصطبة. وستأتي بالصحن اللاقط والدوّار الوطني والريسيفير المهرّب لتصدق أن الرئيس ـ بوش الابن طبعاً ـ يشكو قناة الجزيرة أمام قيادة الإيباك يا حرام! ثم تصدق أن علماء الآثار الأمريكيين يجتمعون الآن في البنتاجون بهؤلاء الضباط جميعاً حتى يدرسوا إمكانية إنشاء قاعدة عسكرية تحمي متحف بغداد حين تبدأ الحرب. وما دمت لا تصدق أن الحرب على العراق قادمة، فلن يصدقك عسكري الحاجز ـ كما لا يصدق أبو غدير ولا غيره ـ أن الدكتور عيسى نزهان بخل على صحفي عنده بشقة محترمة، وهو من يوزع الشقق على الرائح والغادي. لكن إياس مكتفٍ بهذا البيت، وممتن للدكتور عيسى أنْ عيّنه في المكتب الإعلامي للمجمّع فور خروجه من السجن. ولو رضي إياس لتوسّط له ربيع وجنان ـ واحد منهما يكفي ـ عند الدكتور

عيسى من أجل شقة، وربما من أجل أن يكون مدير المكتب الإعلامي بدلاً من معتصم. لكن إياس لا يريد إلا هذه الهدأة كلما عاد إلى البيت، فلماذا لا يدعونها لك ولا يدعونك لها يا..

***

.. يا حيوان.

اكتبْ يا حيوان.

املأ الاستمارة بنداً بنداً.

اكتبْ اسم أبيك وأمك وعمّك زوج أمك وأخوتك وأخواتك وبناتهم وأبنائهم وزوجاتهم وأزواجهم وعماتك وأخوالك وخالاتك وأبنائهم وبناتهم وأزواجهم وزوجاتهم ومن منهم في أي حزب أو جمعية أو نقابة أو وظيفة أو مدرسة أو معهد أو جامعة ومن منهم خارج البلاد ومن منهم مات قبل أن تخلق ومن..

اكتبْ يا حيوان.

نحن نعرف كل شيء يا حيوان، لكنك ستكتب.

اكتبْ أنك الصحفي النكرة الذي يتعيش من فضيحة أو مقابلة ويعض اليد التي أحسنت إليه.

اكتبْ أنك تصلّي الجمعة وتسكر مع العرصات وتتشدق بمحاربة الفساد وتطالب بالإفراج عن المعتقلين.

اكتـــب أنـــك تنشر مقالاتك المسمومة في الخارج وتقبض من الجرائد المسمومة الدولارات وتصرفها في السوق السوداء كأن لم يكفك التخريب السياسي حتى تنخرط في التخريب الاقتصادي.

اكتبْ أنك تنكرت لأخيك ورد وتنكرت لأخيك ضرار.

اكتب أنك تصف ورد: حوت من حيتان البلد يا ناس.

اكتب أنك وصفت ضرار: غول من غيلان البلد يا ناس.

أكتبْ أنك لا تزور أمك في السنة مرة حتى تصدق أنك مثقف ومتحرر ونظيف ومعارض وأنت.. أنت مَنْ يا إياس؟

أنا حيوان يا سيدي.

* * *

لكن ذلك كان منذ دهور يا إياس. وورد صار في رحمة الله مثله مثل عمـــك زوج أمك، وضرار هارب من البلاد، وأنت تزور أمك في كل عيد، وما عدت تصلّي الجمعة ولا تتعيش من فضيحة أو مقابلة.

أنت ما عدت أنت يا إياس، فمن هو هذا الذي يُسْكِتُ التيليفزيون ويُعْتِمُ الغرفة ويلجأ إلى السرير خائفاً من أن يكون هو من خربش حقاً ملء هذه القصاصات وهذه الدفاتر؟

مـــن هو هذا الذي يتنقل من منتدى إلى منتدى ويجمع التواقيع أولاً على هذا البيان وثانياً على هذه الوثيقة؟

مـــن هـــو هذا الذي ادعى ــ فور خروجه من السجن ــ أمام النائب العام على كل من تثبت له علاقة باختطاف إياس قمر الدين من بيته وباحتجازه وتعذيبه خمسة أشهر ونصف؟

من هو هذا الذي يزاحم ليتصدر لجنة لمناصرة العراق ولجنة لدعم الانتفاضة ويرتجف الآن لأن جنان برقا استُدعيتْ للتحقيق؟

: هذا أنا يا سيدي ـــ يجمجم إياس وهو يتكور في السرير كأن قرداً ينط.

– من أنت؟ ـــ يصيح المحقق.

: أنا إياس قمر الدين يا سيدي ـــ يردد إياس وهو يرتعد كأن قرداً ينط.

: أنـــت تأكل وتخرأ وتشرب وتبول وتنكح وتجوع وتعطش وتنام وتموت. إذن من أنت؟

: أنا حيوانٍ يا سيدي. ولكن أنت أيضاً يا سيدي تخرأ وتأكل وتبول وتشرب وتَنكح وتُنكح. هل أنت إذن حيوان يا سيدي؟

: خذوه ـــ يأمر المحقق الرجال الثلاثة الذين يمسكون بإياس. وقبل أن يختفي يصيح: لا تعيدوه إليّ حتى يعترف أنه حيوان لا قبله ولا بعده.

***

تجر الأشباح الثلاثة إياس الآن من السرير. يشتمونه فيشتمهم. يضربونه فيضربهم. يزجّونه في القفص المدهون بالزيرقون فيَنْبَهِمُ صـــوته وتَنْـــبَهِمُ أصواتهم. لكن ذلك كان منذ دهور، فلماذا يتمدد القفـــص الآن رويداً رويداً ويتقلص رويداً رويداً حتى يصير فرناً تســـجره مـــن تحت مدفأة المازوت أو وجاق الحطب أو سخانات الكهرباء؟ لماذا يحمي الآن الصاج غير المدهون بالزيرقون تحت قدمـــيّ إيـــاس رويداً رويداً، وتحمى القضبان حوله رويداً رويداً،

وقبل أن تحمى فوق رأسه رويداً رويداً يكون قد صار ينط مثل القرد؟

لماذا يلسع الصاج الآن قدميه فيرفع واحدة ويقف على أصابع الأخرى، ويرفع الأخرى ويقف على كعب الأولى؟

إياس الآن يصبر ويصبر ويقاوم ويقاوم. إلا أن الصاج يدفعه عنه أسرع فأسرع وأقوى فأقوى، فيرتطم رأسه بالقضبان, وتلسع القضبان رأسه فيتحسر على شعره الذي حلقوه منذ قليل بالشفرة، وليس بالماكينة.

وإياس الآن تدفعه لسعة الرأس إلى القضبان التي تزنره، ويصير كلباً يعوي بعد أن كان قرداً ينط، ثم يصير حيواناً جديداً لا قبله ولا بعده، ثم ينهار الحيوان الجديد ويصير رائحة شِواء حريفة، فيعود الرجال الثلاثة به وبها إلى المحقق: تفضلوا سيدي.

***

إلا أن زمن أوّل حوّل يا إياس. هذه هي جنان برقا لم يشتمها أحد ولم يضربها أحد. لا تصدق حجّة ربيع: عفّوا عنها لأنها حْريمة. أنت بريء حتى تُدان، وكله حسب الأصول الديمقراطية التي تنادي بها قبل السجن وبعد السجن. لم يبق من الدهور الآفلة إلا آثار الشواء على جلدة رأسك وخدك الأيمن وجبهتك وباطن كفيك وباطن قدميك وركبتيك وأليتيك وكتفيك وظاهر ساعديك وصفحة ظهرك وطية بطنك ومعها هذه المشية التي تفاجؤك: مشية القرد تماماً كما يقول أبو غريب. فإذا استدعوك قل لهم قبل السلام

علـــيكم: لا تعذبوني ولا أعذبكم. كل ما تريدونه أقدمه على طبق مـــن الورد. أنتم تعرفون صدق المعتقَل من كذبه. ولكن إياكم أن تنسوا حقوق المعتقَل.

: أنت لستَ معتقلاً يا أستاذ إياس.

: أنا لست الأستاذ إياس.

: من أنت إذن؟

: أنا حيوان جديد يا سيدي.

: ما حقوق الحيوان الجديد يا أستاذ إياس؟

: أنا بلا حقوق يا سيدي.

: لماذا أنت خائف إذن؟

: خـــائف من أن تصير لي حقوق فأصير إنساناً يا سيدي مثل إياس قمر الدين.

: نم إذن ولا تستيقظ أبداً.

2

أعرّيك لأعريني

صباحاً:

يستيقظ ربيع أبكر مما تعود. أنا دائماً أستيقظ قبله وهو دائماً ينام بعدي. أراه متشهياً النوم ونافراً منه وعاجزاً عنه. جفناه أكثر انتفاخاً وما تحت عينيه يزداد تهدلاً كل صباح.

يسبقني إلى الدوش فقط في يوم العطلة. لن أذهب اليوم إلى المجمّع مع أنه ليس يوم عطلة. من الدوش يخرج أقلّ انتعاشاً من عادته قبل أن يسافر إلى ليبيا. يبادلني تحية قصيرة ويتحاشى أن ينظر إليّ على عادته. يهيء الإفطار ريثما أنتهي من الدوش. يزاحمني على الإفطار كأنه يهرب مما به. يأكل هرباً ويثرثر هرباً ويصمت هرباً ويتعجل الخروج هرباً، فمن ماذا تهرب يا ربيع؟

ربيع ذكي، لكن الزيادة أخت النقصان. لا تتذاك عليّ يا ربيع. ليس ذكياً من يحسب غيره أقل ذكاءً. لا تنس أن صباحك تبدل منذ عدتَ أنت من تونس وعدتُ أنا من التحقيق. وحياتك بكيت عندما أفقــت ورأيــتك غافياً في حضني. لم أجرؤ على أن أتحرك حتى تشــبع نوماً. حبست أنفاسي وصدقت أنّ ضارةً ربما تكون نافعة. لولا سفرك ولولا التحقيق لما كنت غافياً في حضني. منذ متى لم يجمعنا الحمّام ولم يجمعنا السرير؟ منذ متى نعيش جارين وغريبين وصــديقين وأخويــن وعدوين تحت سقف واحدة؟ لكنّ غفوتك في حضني زينتْ لي أن جفوة السنين يمكن أن تنطوي، وأننا يمكن أن نعــود كما كنا حبيبين وزوجين وأبوين، ولا ينقصنا إلا أن تكون غِــوَى في غرفتها. لكنك استيقظت ونظرت إليّ مستنكراً وانسللت من حضني وأنت تتمتم كأنك تؤدي واجباً ثقيلاً: صباح الخير.

صباح الخير يا ربيع.

من ماذا تهرب يا ربيع؟

لــيس وحده الخوف من أن يستدعوك إلى التحقيق. استدعائي صــفعة للدكــتور عيسى وليس لي ولا لك. لا تنس أني أعمل في المكتــب الخاص للدكتور. أنت نفسك قلت وأضفت: لو استدعوني فلن تكون إلا صفعة ثانية للدكتور. من ماذا تهرب إذن يا ربيع؟

هكــذا بدأت تتبدل عندما عدتَ من هانوفر. وظللتَ تتبدل وأنا أنكــر وأصدق وأبحث عن سبب وأحاول أن أتبدل من أجلك، ولم أكن أعلم أنك عاشق.

لــيس الزوج وحده آخر من يعلم دائماً، بل أنا أيضاً. لم أصدق ســميحة عــندما قالت: الدكتور عيسى واثق من أن ربيع عاشق

لامـــرأة كردية يزيدية مقيمة في ألمانيا، لكنها من الجزيرة واسمها ونســـة. أمــي قالـــت لي: الرجل يمكن أن يعبد الشيطان من أجل امـــرأة، فلـــم أصدقها. ولم أصدق الدكتور عيسى عندما قال لي: حكاية ونسة انتهت من زمان، لأنك ظللت تتبدل حتى عجزت عن أن أجاريك. جسمك تبدل يا ربيع وليس روحك وحدها. أمي قالت لـــي: أبوكِ أيضاً جهل جهلة الأربعين وجهل جهلة الخمسين، ولو مـــدّ الله بعمـــره لجهل جهلة الستين. أنت الآن في جهلة الخمسين إذن. ونســـة كانـــت لك جهلة الأربعين، فمن هي جهلة الخمسين؟ ومـــن ســـتكون إذا مدّ الله بعمرك جهلة الستين؟ وأنا يا ربيع؟ أنا صـــار عمـــري ستاً وأربعين سنة بلا جهلة، وهذه المرة لن أكون ســـاذجة ولا طيـــبة، ولـــن أكون غيورة. اطمئن. حتى في المرة الماضـــية لم أكن غيورة، لكني هذه المرة لن أجاريك. هذه المرة لن أتـــبدل من أجلك حتى لو لم تكن عاشقاً. ولكن إذا لم تكن عاشقاً ولا خائفاً من التحقيق، فمن ماذا تهرب؟

* * *

نهاراً:

علـــى عجل نظفتْ المطبخ وأسرعتْ إلى بيت الدكتور عيسى دون أن تعـــد الغـــداء: سميحة تزداد انكساراً وذبولاً كأنها تسابق زوجها إلى المرض أو الموت.

لا زال الدكـــتور عيســـى فـــي غيـــبوبة، وإذا صحا فمن أجل الهاتف: مدير مكتبه أولاً، نائبه الدكتور باسل ثانياً، وقد تكون مدام

سالمة رابعاً والأستاذ بيدروس خامساً وجنان نفسها ثالثاً. وقد يكون أو تكون سابعاً وثامناً، ولونا أو سميح تاسعاً وسميح أو لونا عاشراً وواحــداً أو ثلاثــة ممن يطمئنون على سلامة الدكتور، والطبيب أخيراً، أما سميحة فتمسح دمعتها وتشكو لجنان كل يوم، وتضيف هذا اليوم: وصل موسى البارحة ليلاً.

فــي العــودة تنســى جنان موسى نزهان ابن المرحوم شقيق الدكتور عيسى، وتعرج على أمها: تسقي الزريعة وتشطف الفراندة وتعد الغداء وتتأكد من امتلاء البراد ومن الدواء، ولا تسمع شكوى العجوز الوحيدة من جحود بناتها وأبنائها ما عدا جنان: الله يرضى عليك يا بنيتي. كيفكْ إنت وربيع يا حبيبتي؟

كانــت زيــارات ربيع لأهل جنان متباعدة قبل وفاة أبيها الذي تردد في قبوله، وحذّر جنان منه: لا حسب ولا نسب يا بنيتي. لا مــال ولا جاه على شو؟ لكن أم جنان أحبت ربيع، وربما وجدت عــزاءً بحظوتــه وحظوة جنان لدى الدكتور عيسى. ومهما يكن، فربــيع لــم ينس مساندة حماته له. منذ صارت وحيدة دأب على زيارتها، وحده أو مع غِوَى أو مع جنان وغِوَى، لكأنه يعوّض فقده لأمــه قبل أن يحلق ذقنه، كما ستعلل جنان لنفسها في البداية. لكن تعليلها سيتبدل منذ بدأ ينأى وبدأت تنأى: ربيع يصل ما يتقطع بيني وبينه ولو بشعرة. وها هو ما بينهما قد تقطّع تماماً، لكن الشعرة لم تزل قائمة: لماذا يا جنان؟ إلى متى يا جنان؟

* * *

ليلاً:

ما عدت أخشى السؤال يا ربيع ولا أخفيه. أمام سميحة أعلنته أول مرة، وأمام أمي صرت أعلنه. وحين حاول الدكتور عيسى أن يتدخل صحت: اقطع الشعرة يا ربيع، لكن الصيحة غارت في أعماقي لأني تذكرت أفلام البورنو. تذكرت أنك جعلتني أشتهي الدكتور عيسى ورأيت نفسي عارية أمامك وأمامه. هربت منك ومنه وأغلقت باب غرفة النوم، لكني رأيت نفسي بينك وبينه على الكرسي وعلى السرير وعلى الكنبة العريضة في الصالون وعلى الأرجوحة في الشرفة، وأنا أستغيث ولكن ما من مغيث. لو كان لي أن أتعهر لتعهّرت بفضلك. أنت تعرف أني أشتهي، ولكن بالمعقول. أشعلتني، ولكن إلى متى؟ قلت لك يكفي، فقاطعتني. أنت أمامك ونسة، والله أعلم من قبل ونسة ومن بعدها، وأنا يا ربيع؟ أنت رجل عاقل ومتمدن ولا تغار، ولكن ألا تفكر بهذه التي لم تكن قد بلغت الأربعين؟

أنا أحببتك يا ربيع.

أنا لا أحبك يا ربيع.

لأني أحبك حاولت أن أصل ما كان في ذلك الفجر الذي حملني من التحقيق إلى حضنك، فصدني صمتك وانزواؤك و.. يكفي.

لأني لا أحبك غازلت الدكتور عيسى حتى صار يغازلني ولو على الناعم. الدكتور عيسى جبان وأنا جبانة. الدكتور عيسى يحمل المجتمّع على كتفيه وأنا أحمل ربيع على كتفي وصدري وبطني وظهري، و.. يكفي.

تعال نقطع الشعرة معاً. لا أريد أن أقطعها وحدي. لا أستطيع أن أقطعها وحدي.

***

صباحاً أو نهاراً أو ليلاً:

ماذا تريدين يا جنان؟

ماذا تستطيعين؟

3

صبيب المطر

للوهلة الأولى غمره الصبيب المفاجئ بالخجل من الهشاشة التي يرى نفسه فيها صباح مساء: أن تنتظر عقابيل التحقيق مع جنان! أن يكون غياب الدكتور عيسى من حياتك ممكناً! أن تخاف من أي سبيل إلى شهلة! تعال اغتسل إذن بهذا المطر الخريفي كما تغتسل المدينة.

انعطفت السيارة نحو الجبل مخلفةً ساحة الأمويين. وأخذت أضواء السيارات تملأ عيني ربيع بشعشاع المطر. كانت عتمة الجبل تتبدد وهو يلاحقها حتى انبسطت الساحة الفسيحة. أوقف السيارة وأطفأ ضوءها. ودنت الساحة من قمة الجبل القريبة. وحبات المطر تكبر وتعنف وهي تضرب زجاج السيارة وسقفها، ثم تصير رجّاً يرجّ ربيع: شهلة.

فجأة صار صوت شهلة هو الذي يرجّه: صدق إياس يا حبيبي: وصدقت: أنت عجوز وخائف.

تـــنكّس رأســـه حـــتى انفتح الباب، وأخذ الصوت يدفعه معاقباً ومعابـــثاً، وهـــو يســـتغفر ويتوب، ثم يستسلم، فيغرغر الصوت بالضـــحكة، وينطنط حول السيارة كأنه إياس حين يتقردن، فيلحق ربـــيع بشـــهلة وبإياس معاً مظللاً رأسه بكفيه أو فارداً ذراعيه أو مقهقهـــاً أو متلمساً بلل ثيابه أو ملوحاً للسيارات العابرة أو متنسماً العطـــر المطهر في هبات الهواء اللاذعة. ومثل طفل يتمنع يعود أخـــيراً إلى السيارة، يبحث عن أغنية، ينظر إلى ساعته، وينطلق كأن موعداً أوشك أن يفلت منه.

* * *

هنا بالضبط نزلت شهلة من السيارة. هنا ستقف السيارة الآن. هـــنا ســـيتملى البنايات المقابلة واحدة واحدة، شرفة شرفة، نافذة نافذة، ولكن أين هي شهلة؟

هـــبات الهواء هنا أهدأ منها على الجبل. صبيب المطر متقطع وأرقّ. حذاء ربيع يخبط في تموجات الإسفلت حتى يمتلئ بالماء، لكأنه لم يمتلئ منذ قليل في الساحة الفسيحة الدانية من قمة قاسيون.

هـــذه هي البناية الأولى. يتوقف. الطابق الأول، الشقة الأولى، حسناً. وإن لم تفتح شهلة الباب؟ سيعتذر. سينتقل إلى الشقة الثانية. سيعتذر. سينتقل إلى الطابق الثاني. سيعتذر. الطابق الرابع. البناية الخامسة. الملحق. الطابق السادس. القبو. وشهلة ليست في السوق

الحرة في مثل هذا الوقت. شهلة لن تخرج من البيت تحت هذا المطر. ستفتح الباب أخيراً. ستشهق وهي تنظر إلى ثيابك. ستضحك من جنونك. مجنون يبحث عن مجنونة، ولكن ليس في المطار ولا في الاعتصام أمام مبنى الأمم المتحدة. المجنونة تلاقي المجنون الذي يخلع حذاءه ويتعرى من ثيابه لتجففها المجنونة، وليس لأمر آخر. ولكن ألن يسوء المجنونة أن يطرق المجنون عشرين باباً، ثلاثين، خمسين، وهو يسأل: بيت شهلة صادق؟ وماذا لو أن أبو سامي نفسه فتح الباب؟ ماذا لو أن سامي يزور أباه ويحرضه على أخته وهو يفتح الباب؟ ماذا لو أن هاني نفسه فتح الباب ورأى هذا العاشق العجوز الخائف المبلل يسأل عن شهلة صادق؟

لو كان أمرك يشغلها حقاً لاستطاعت أن تجد سبيلك في المجمّع أو في دليل الهاتف. وأنت: ماذا كنت تنتظر؟ عدْ أيها الخائب عدْ. البدْ في السيارة حتى ينفذ بللك إلى عظامك. قد تكون شهلة في صالون مرمر أو في السينما أو في مطعم الضيافة نفسه مع رحاب نجا مثلاً، وليس مع رجل. ستجدك بانتظارها هنا. ستشهق وتضحك ويُجَنّ جنونها. سيُجَنُّ جنونك وأنت تعود خذلان. ستسأل جنان: أين هو صالون مرمر, كأنك لم تسأل رحاب. ستجد رحاب في الصالون. ستسألها عن هاتف شهلة أو عن بيت شهلة. ستسأل مدام مرمر نفسها إن لم تجد رحاب. ولكن ألن يسوء شهلة أن تتقفى أثرها من مكان إلى مكان؟ إلى أين تمضي إذن يا ربيع؟

* * *

اقتربت السيارة من ساحة الميسات وقد صار المطر رذاذاً. تجاوزت السيارة الساحة وتوقفت أمام بائع الورود. تناول ربيع الموبايل وأصابعه يُرجفها البرد: أين أنت يا إياس؟

إياس أمام مبنى الأمم المتحدة. إياس مجنون أيضاً، ومع المجانين مثله يقف تحت هذا المطر الخريفي الذي عاد ينصبّ انصباباً. إياس يتضامن مع الفلسطينيين المضربين عن الطعام أمام مبنى الأمم المتحدة منذ ثلاثة أيام، وربيع يبحث عن شهلة. من دمشق يقدم إياس للانتفاضة في فلسطين أضعف الإيمان، وربيع يخرج من جحره المترامي بين البيت والمجمّع، ويبحث عن شهلة. يطلب من إياس أن يلاقيه على الرصيف المقابل لمبنى الأمم المتحدة. يتأخر إياس وعينا ربيع تبحثان عن شهلة بين المحتشدين والمحتشدات أمام المبنى. يأتي إياس وتجفله هيئة ربيع وينط مثل القرد. يسأل ربيع عن شهلة. يتذكر إياس المرأة التي رأى ربيع ينسحب معها من الاعتصام ذات مساء ويضحك:

- شهلة معنا.

يقول مشيراً إلى الحشد، فيتوسل ربيع:

- أرجوك نادها.

يقهقه إياس ويعود إلى الحشد بمشية طبيعية. ويختفي وعينا ربيع تتفحصان شجرة الازدرخرت والمظلات وسيارات الإسعاف والشرطة والمخابرات والأعلام المعلقة على سور المبنى. ويضبّب الرذاذ والخوف نظراته فلا يرى شهلة إلا حين تملأ نافذة السيارة:

- تعالي.

يتوسل صمته، وتستجيب مشدوهة، فيهمس مرتجفاً:

- كنت أغتسل في ساحة قاسيون. كنت أنتظرك خلف الكازية في نهاية الطلعة، تحت المطر.

- هات عنك.

تأمره، وحين تحل محله تنتفض:

- المقعد مبلل.

وتقود السيارة ضاحكة وتصيح:

- تبلل البنطلون.

فينسى البرد والخذلان، بينما يتوحد صوتها بصوت المطر:

- أين اختفيتَ؟

- أين اختفيتِ؟

يسأل لائباً وعيناه تسترقان نظرة من عنقها: هذا هو عقد المرجان، وعيناه تتمرغان على العقد.

تلتفت إليه حانية. يلاقي لهفان نظرتها ويخاف أن يضيعها من جديد. يلغو بفضل إياس والانتفاضة. تضحك وتهرب بأليتيها من المقعد: لا مفرّ، وتلجم السيارة:

- إلى أين؟

تسأل، فيجفله السؤال، ويلبث مرتبكاً، ثم يقول فجأة بِظَفَر:

- سأتصل بإياس حتى يلاقينا إلى بيته.

تزمّ شفتيها وتحوص، ثم تأمر:

- لا تتصلْ.

وتقود السيارة التي كانت تدخل ساحة الأمويين نحو الجمارك.

- إلى أين؟

يســال مسربلاً بالتقصير أو العجز أو الغباء، ويُخجله السؤال فيتلملم صامتاً، وتبدو شهلة شاردة حتى تبلغ الأوتوستراد وقد عاد المطـر ينصـبّ انصباباً, ليس على سطح السيارة، بل على رأس شهلة، لكأنه يصيح بها: ربيع سحرك كما سحرك حسام. لمحة في مظاهـرة خبلـتك فكـيف بلمحة في المطار ولمحة في الاعتصام وثـلاث سـاعات في مطعم الضيافة؟ أنت الآن عمياء كما كنت عمياء عندما رأيت حسام. وانتفضتْ كأنها اكتشفت فجأة أنها وقعت فـي مكـيدة. وخطفت من وجه ربيع نظرة، وفكرت في أنها لو تزوجته لفرض عليها أن تغطي رأسها على الأقل، كما فعل حسام. وقـد يحـرمها من السينما ومن قراءة الروايات أو المجلات كما حرمها حسام. وقد لا يترك لها سلوى التيلفزيون كما تكرّم حسام. وقـد يأتيها من الخلف عندما يكبر بطنها كما كان حسام يأتيها منذ كبر بطنها بسعيد. وخطفت نظرة أطول من وجه ربيع، وانتفضت كأنهـا اكتشـفت فجأة أنها نسيت الزواج والطلاق. وتنهدت عميقاً موقنة أنها نجت من المكيدة.

***

عندئذٍ انطلقت السيارة كأنها في سباق، وقالت شهلة:

– مـنذ أول الصـيف تركـت بيت أهلي واستأجرت شقة في جرمانا, وعلمني هاني قيادة السيارة. قامت قيامة أبي وأخي سامي. بأذنـي سـمعت سـامي يصـيح: مطلقة وساكنة وحدها! معناها شـرموطة رسمي. هددت بتقديم شكوى للشرطة إذا اعترضني أو

ضـــايقني هو أو أبي، وهاني قال: أنا شاهد معك. أسماء لم ينقطع همسها منذ أعلنت أني سأسكن وحدي: روحي اخلصي من هالموت وعقبالـــي يــا رب. أســماء تبيت عندي أحياناً. هاني مقيم معي. حرمنـــي أبـــي مـــن دخول بيته ثلاثة شهور وحرّم علي أمي أن تزورني. سامي لا يكلمني حتى اليوم. بالمناسبة أنا أسوق سيارتك بلا شهادة، ولكن لا تخف.

وســـكتت فتطلع إليها ربيع يستزيد ويداور حذره مما قد تكون تخبـــئ أيضاً. والتفتت إليه تكتم السؤال عما يجعلها تقول ما قالت ســـواء الآن أم عـــندما جالست ربيع أول مرة في مطعم الضيافة. وفكرت في أنه لم يبق إلا أن تعترف بأنها لم تجهض بسبب سقاية الجرجـــير، بل لأنها رأت حسام يركب ابن عمه خلف التراكتور، فلـــبطها ورماهـــا فـــي الزريبة وظل يرفسها حتى دفق الدم بين فخذيها. وتراءى لها المطر يهدأ كأنه يفرغ من غسلها، ولم يبق إلا أن يأتـــي ربيع لها بالمنشفة، فانفلتت ضحكتها عالياً، لكنها بترتها وتمتمت معتذرة. وحين أوقفتها إشارة المرور قرب مفرق المطار استدارت إلى ربيع مبتسمة وقالت:

- من حسن حظك أن هاني سافر البارحة. كلهم سافروا. خالي توفي منذ أيام ولكن الخبر وصلنا البارحة. خالي هو ابن عم أمي أيضـــاً. مالك عبست؟ صعبة؟ يعني أمي هي بنت عم أبي. خالي آخر من تبقى من أسرتنا. سمعت بزيزون؟ الآن انقطع أثرنا من زيزون.

- زيزون!

صـــاح ربيع والسيارة تخبط في واحدة من برك الأوتوستراد، وغمرت الماء الزجاج، وصاحت شهلة:

- تعرف زيزون؟

- أنا من بنى لك سد زيزون.

صاح ربيع واندفع يخبط بين التحقيق مع جنان وبين سور الجبال الخضر أمام زيزون والبحيرة التي تنداح خلفها والسد الذي لم يبنه لا هو ولا جنان. وناشد شهلة أن تصف له انفجار الغضار في قاع البحيرة ونزيز الماء من السد وبقبقتها في البيوت. وتباطأت السيارة كما تباطأت شهلة:

- لا علم لي. زيزون انقطعت عنا ونحن انقطعنا عنها منذ كنت في الرابعة أو الخامسة. أبي لم يعد إليها منذ تزوج بنت عمه حتى البارحة. أمي لم تعد إليها بعد موت جدي وجدتي. أنا لا اذكر قريباً لي من زيزون. كلهم هجروها أو ماتوا. لا أعرف سر هذه القطيعة بين أهلي وبين زيزون. وحده خالي هاني لم يغادرها. على اسمه أصرت أمي أن تسمي أخي. أنا لا أتذكره. أمي تحلف يمين السيف والمصحف أن أخي هاني مثل خاله هاني: طيب وشجاع وذكي وحلو. أمي تقول إنه كان يحميها من عصيّ أبيها وأخوتها كما يحميني هاني.

- هل يمكن أن يعود اليوم؟

سأل ربيع، فالتفتت إليه مؤنبة أو زاجرة، وسكتت وسكت حتى أطبقت الباب خلفهما.

والآن؟

* * *

شــــهلة تــتلمس البلل على أليتيها وتوحوح وتضحك وتأمره أن يخلــــع حذاءه وتختفي. ربيع يتسمر بانتظار أمر جديد حتى تعود بالبــيجامة ضــــاحكة: اخلع ثيابك في الحمام. املأ البانيو وخذْ لك غفوة. تنقّعْ بالماء الساخن كما تنقعت بالمطر.

الآن يــتجرأ علـــى أن يتلفت حوله. لا أثر لهاني في الصالون سوى هذه الصورة التي يطأطئ ربيع أمامها ويسرع حيث أشارت شــــهلة. يغلــق بـــاب الحمّام بإحكام خوف أن تلحق به الصورة. يـــتخلص من ثيابه. يتأمل بيجامة شهلة. يبتسم بحنان. يقيس طول البنطال. تكبر ابتسامته. يملأ البانيو. يغطس ويتدفأ ويغفو ويصحو. يعود إلى شهلة التي ترى عري ساقيه حيث انتهى بنطال البيجامة، وتضـــحك. تــرى عضوه محشوراً في البنطال الضيق وتضحك. تتـــناول سترة البيجامة التي لم تتسع لصدره وتضحك. تلف عري ظهره بالمنشفة. تأسف لأنها لا تجرؤ على أن تلبسه بيجامة هاني. تأمره أن يهيئ العشاء ريثما تنتهي من تنشيف ثيابه وكيّها. يمضي حافـــياً حيـــث أشــــارت إلى المطبخ. يطالعه في بداية الممر باب مفتوح. يتلصص. ترتد نظرته الأولى عن علاّقة الثياب التي تهدده بقميص لهاني وكرافتة وبيجامة. يسرع إلى المطبخ وصوتها يذكره بزجاجة الفودكا الكبرى التي جمعتهما في السوق الحرة: اشتريت واحدة مثلها لهاني بعدما التقينا في الاعتصام. يتلفت وسط المطبخ باحـــثاً عـــن الزجاجة التي ستباغته شامخة فوق البراد. يلوم نفسه علـــى نســـيان الزجاجة الأخرى في زاوية المكتبة، على الأرض. يلـــوم نفسه على نسيان كاسيت أولاد الجويني. يصيح: لا زال لك معـــي هدية من تونس. يدندن وهو يكتشف البراد. يقرّ بأن جنان

أكـــثر تدبيراً من شهلة. يسري فيه إحساس لطيف بأنه قريب من هانـي. يتذكر حسين نوري: كان لونسة مثل هاني لشهلة، رحمة الله علـــيه. يعلو صوته بالدندنة: بحب عمرو موسى وبكره إسرائيل. تلاقي شهلة الصوت بحبور: أيوه يا شعبولاّ. أيوه يا حبيبي. تتعجل المكواة والثياب، وتتعجل ربيع الذي سيظهر حاملاً زجاجة الفودكا. تؤرجـــح شهلة البنطال الذي عاد أزهى مما كان. يخاف أن تأمره بـــارتداء البنطال وأن يكون ذلك نذيراً بالخروج من البيت، مهما امتد بهما العشاء. يقترب منها ويغمغم حرداً مثل طفل مدلل: أريد أن أبقـــى هكذا. يلامس البنطال الزجاجة ويحضنها. تبتسم شهلة. تســري الطمأنيـــنة في الطفل فيهمّ بأن يقبّل خد أمه ممتناً. تتعلق القـــبلة علـــى شفتي ربيع. تضيئ عينا شهلة. يقترب خد الأم من شـــفتي الطفـــل، لكنهما تخطئان السبيل. يصير الطفل فجأة رجلاً اســـمه ربيع. تصير الأمِ عاشقة اسمها شهلة. تتلامس الشفاه تائقة وخائفة كأنها ترتكب إثماً. يفلت بنطال ربيع من يدي شهلة وتفلت زجاجـــة الفودكا من يدي ربيع. يرتد وترتد وتشهق ويشهق وفجأة تلـــتف ذراعـــاه حولها وتلتف ذراعاها حوله، وتلوب شفتاها على شفتيه، لكن شفتيه راحتا تتمرغان على عقد المرجان.

4

ختن القلوب

ريثما يُعِدُّ إياس الشاي وقف ربيع أمام ملصق كبير لعارية زنجية يتوسط زجاج النافذة: حمرة الشفتين تتقد في بياض الأسنان وسواد الوجنتين والذقن.

كانت عينا المرأة تتقدان أيضاً. وخُيِّل لربيع أنهما تومئان إلى أمر أو إلى جهة ما, وسرت فيه شهوة غامضة, واندفعت عيناه تتأكلان العري الصلب حتى أجفله صوت ارتطامٍ يغالب سباب إياس, فالتفت إلى باب المطبخ, ثم استدار نحو الطاولة دون أن يجرؤ على العودة إلى العارية.

فوق الطاولة تناثرت أوراق شتى أخذ ربيع يتصفحها: بيان من لجان إحياء المجتمع المدني, بلاغ من جمعية حقوق الإنسان,

قصاصـــتان يملؤهما خط إياس. وفكر ربيع وهو يجلس ويجمع الأوراق: لا يستطيع إياس أن يحيا إلا في مثل هذه المعمعة.

تحــت الأوراق ظهر دفتر مفتوح على صفحة روّستها كلمة: شيطانيات. وقرأ ربيع في أسفل الصفحة قال أبو حامد الغزالي: مــن لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق. أمره ربه أن يسجد لغيره فأبى.

عادت عينا ربيع إلى أعلى الصفحة, وقرأ: قال الحلاج: هو الـــذي كان أعلمهم بالسجود وأقربهم من الوجود وأذلهم للموجود وأوفـــاهم للعهـــود وأدناهم للمعبود. سجدوا لآدم على المساعدة وإبليس جحد السجود لمدته الطويلة على المشاهدة. وما كان في أهـــل الســـماء موحّدٌ مثل إبليس حيث ألبس عليه العين وهجر اللحـــوظ والألحاظ فيِ السرّ, وعبد المعبود على التجريد، ولُعِنَ حين وصل التفريد, وطُرِدَ حين طلب المزيد.

همهـــم ربيع: ما هذا يا إياس! وقلب الصفحة بينما كان إياس يقترب بالشاي مقرّعاً:

- ما كنت أعرف أنك تتجسّس.

فطوى ربيع الدفتر ووضعه فوق الأوراق قائلاً:

- ما كان ينقصك إلا أن تقع في غواية الشيطان.

قال إياس:

- عجـــزت عـــن معـــرفة الرحمن فأردت أن أتعرف على الشيطان.

تعوّذ ربيع، فتساءل إياس:

- كم مرة في اليوم تتعوذ من الشيطان؟

- يمكن عشرين مرة. أربعين. مئة.

- ومتى تتعوذ؟

- فـــي أي وقت. واحدنا يتعوذ إذا رأى ما يفزعه, إذا رأى امــرأة جمــيلة، إذا رأيت صبياً ذكياً قد تصلي على النبي وقد تتعوذ من الشيطان. ولكن لماذا تسأل؟

- لأن ذكر الشيطان يكاد يلازمنا مثل ذكر الرحمن.

قال إياس وهو يدفع بكأس الشاي إلى ربيع الذي تعوذ وحدق في إياس مستنكراً. لكن إياس باغته:

- هل سألت نفسك مرة ما إذا كان الشيطان يموت؟

تعوذ ربيع ودفع الكأس نحو إياس الذي أشار إلى دفتره قائلاً:

- مــن بعــض الكتب نقلت هنا أن الشيطان لا يظهر عليه الموت, كأنه ربّ خالد مخلّد في الشر.

- وماذا أيضاً؟

- هل سألت نفسك مرة ما إذا كان في الشيطان خير؟

- إياس: ماذا جرى لعقلك؟

- لا شـــيء. سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قال: فُضّلت علـــى آدم بخصـــلتين: كانـــت زوجـــته عوناً له على المعصية وأزواجي أعواناً لي على الطاعة, وكان شيطانه كافراً وشيطاني مسلم لا يأمر إلا بالخير.

- يُقال هناك أحاديث نبوية كثيرة ضعيفة أو موضوعة.

قـــال ربـــيع وقد تناول الدفتر وأخذ يقلب فيه, وإياس يرمقه يرشق الشاي. وفجأة صاح ربيع بدهشة:

- ما هذا؟

وأخذ يقرأ: كان ابن عمر يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكــل. وربما جامع قبل أن يصلي المغرب ثم يغتسل ويصلي وذلــك لــتفريغ القلــب لعبادة الله وإخراج الشيطان منه. وفي الحديث: لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقنا, فإن يقدر بينهما ولدٌ في ذلك لم يضرّه الشيطان أبداً.

وطوى الدفتر قائلاً بسخرية:

– هكذا إذن تتعرف على الشيطان!

قال إياس وهو ينظر إلى الزنجية العارية:

– طالما حيّرني هذا الربط بين الشيطان والمرأة.

وعاد إلى ربيع مندفعاً:

– النســاء حــبائل الشيطان. النساء مصائد إبليس. ما يئس الشــيطان مــن وليّ إلا أتاه من قبل النساء. إن النساء شياطين خلقن لنا. وإبليس قال لما خُلقت المرأة: أنت نصف جندي وأنت موضــع سري وأنت سهمي الذي به أرمي ولا أخطئ. لماذا يا ربــيع؟ هذا نحن وهذا هو الشيطان وهذه هي المرأة من آلاف السنين. لماذا؟

– إن كيدهنَّ عظيم.

– والمؤمنات الشريفات؟

– من يسمعك يظن أنك من عبدة الشيطان الذين طاش ذكرهم هذه الأيام في مصر وفي لبنان.

– اطمئن. لست منهم.

قال إياس، وفكر في أن ربيع لم يذكر سورية كيلا يذكر اليزيدية، بل كيلا يذكر ونسة. فأشارت أصابعه إلى الدفتر وهو يقول:

- هنا نقلت مصحف اليزيدية, مصحف رش وكتاب الجلوة.

وخيل له أن ربيع بوغت, وأنه تشاغل بالشاي قبل أن يأتي صوته واجفاً:

- قرأتهما منذ سنين. جاءتني بهما ونسة ومازلت أحتفظ بهما. كانت تصحح لي دائماً: قل الإيزيدية يا ربيع. لا تقل اليزيدية.

قال إياس وأصابعه تربّت على الدفتر:

- ما أكثر التخرصات!

فتساءل ربيع مبتسماً:

- على الشيطان أم على من يعبده؟

قال إياس:

- عليهما معاً.

وبدت له ونسة تقرب كرسياً وتجلس وتتناول الدفتر وتنظر إليه بامتنان, فأطرق مخاطباً ربيع:

- أظنك علمت أن الدكتور عيسى أرسلني لأعزي بحسين نوري.

قال ربيع:

- رحمة الله عليه. لو كنت هنا لرافقتك.

قال إياس:

- كنت رأيت ونسة.

ولما لم يعقب ربيع، أردف:

- حسين أوصى أن يُدفن في سورية وأن يتربى ابنه هنا حتى يحمل البكالوريا.

ظل ربيع صامتاً، وودّ إياس أن يقول إن حسين ظلّ سورياً، أو إن ألمانيا لم تستطع أن تجعله ألمانياً، لكنه قال:

- حسين متزوج من ألمانيّة وله منها طفل عمره خمس سنوات.

قال ربيع:

- رأيت زوجته بيرجيت عندما تعرفت عليه وعلى ونسة. لم يكن له طفل.

- حسين أخفى زواجه من مسيحية سنوات عن أهله. أنت تعرف أنهم لا يقبلون الزواج من غير دينهم.

- لكن حسين لم يكن متعصباً، ولا ونسة. بالعكس تماماً.

- ربما كان الفضل لألمانيا. والمهم أن عابد نوري عرف أخيراً بزواج ابنه فقاطعه حتى جاء الحفيد. بيرجيت لم تستطع أن ترافق نعش زوجها لأن أهله لا يمكن أن يستقبلوها بينهم، ولو أنهم قبلوا بها بعيدة عنهم.

- والطفل؟

- تركته ونسة عند جده ليربيه كما أوصى المرحوم. مسكينة بيرجيت. فقدت الزوج والابن.

وبدا التأثر على ربيع، وهو يتمتم:

- كيف رأيت ونسة؟

- أحلى من كلامك عنها.

- إياك أن تكون ذكرت الشيطان أمامها بسوء.

- ذكرتك أنت، ولكن بالخير. ألا يكفي؟

ابتسم ربيع، وتململ، وراح يحث نفسه على النهوض: جئت لتحدث إياس عن شهلة فإذا به يحدثك عن ونسة. وربما نقل تلك الكلمات عن إبليس من أجلها. ونهض هارباً من هواجسه. وسُرّ إيـــاس برحيله ليرفل بهذه الخلوة، وونسة كأنها الآن على هذه الكرســـي ترمقه، وهو واقف وسط الغرفة وقد امتطى طاووساً وأمسك حيةً بيمناه، وفي لوحٍ بيسراه يقرأ: أنا عطارد يا ونِسة، فـــتردعه أمومة صوتها: لا تجدفْ يا حبيبي. ويروم أن تُجلسه على هذه الكرسي قبالتها ليقرأ في كتاب بدلاً من اللوح، أو يروم أن تضـــع الـــتاج علـــى رأســـه، وأن تغمره بالطيالس الخضر والصـــفر ليصـــير عطارد حقاً. لكن أمومة صوتها تردعه: لا تجدفْ يا حبيبي.

وفجـــأة تصـــير هذه الغرفة صالوناً فسيحاً تُطِلُّ نافذته على الخـــابور، وتهمس ونسة أسيانة: ما عاد الخابور نهراً، بل ولا ســـاقية. فينســـى إيـــاس الكلمات التي أعدها ليقدم العزاء باسمٍ الدكـــتور عيســـى نـــزهان وباسم المجمّع 21 وباسمه شخصياً. ويتلعثم أمام ونسة كما تلعثم أمام عابد نوري وأمام حفيده وأمام الأســـتاذ صبري رمّو أكثر الناس حزناً على حسين: قالت ونسة أمـــام البيت الذي يتصدّر خربة بدرخان، ولجأ إليه عابد نوري بعدمـــا خطفت منه هانوفر ابنته كما خطفت ابنه من قبل. وأمام مدرســـة الخربة قالت ونسة: صبري رمّو مثلك في المجمّع21، مهندس في فرع الجزيرة وعلى خلاف دائم مع راكان درويش.

وصـــبري هو الأخ بالآخرة لحسين، لذلك هو أقرب الناس إليه. أمـــا ونســـة فقد هاجرت قبل أن تصير أختاً لأحد في الآخرة، فتخيط له طوق إيزيد. وأمام جامع الخربة تلعثم إياس وهو يودع ونسة. وسيظل يتلعثم حتى تتجده هنا في هذه الغرفة، وعلى هذه الكرسي: شعرها أطول من شعره بقليل، نحولها أكبر من نحوله، لا تصدق أن صحفياً مثله يعيش في مثل هذا البيت ولا في مثل هذا الحي، ولا تصدق أن السجن حوّله إلى قرد، ولا تصدق أنه لازال يـــرفض أن يـــرمم آثار الشواء على كل ما تستر الكنزة والبنطلون والجراب من جلده.

لكن ونسة ستصدق أن إياس ختن قلفة قلبه على باب السجن. ولذلك تعده باللقاء في الشام قبيل العودة إلى هانوفر، فيسعى ـــ بانـــتظارها ـــ خلف تلك الكتب وخلف سواها في مكتبة الأسد, إلـــى أن تســـري حرارة كفها في كفه أمام اللاتيرنا، أو إلى أن يـــتلامس ذراعاهمـــا تحت المظلة من أمام اللاتيرنا إلى مدخل العمارة، ثم تضيء ونسة عتم الليل.

: هـــنا اشـــتريت هـــذا البيت في أول مرة أعود فيها إلى سورية. أردت أن يكون لي فيها مطرح على قدّ مخدتي. أردته أن يـَـــون بعيداً عن أهلي. اسأل ربيع. للأسف بردى أيضاً مثل الخابور: لا نهر ولا ساقية. حسين كان يأمل أن يشتري بيتاً في حلـــب أو فـــي الشام حتى يقضي فيه شيخوخته. أنا لن أقضي شيخوختي هنا ولا في ألمانيا. سأعود إلى خربة بدرخان مع أني ما عشت فيها إلا بعض شهور الصيف في بعض السنين عندما كنت صغيرة.

: أنت لا تشيخين.

: مـــا من أحد لا يشيخ ولكن هذا لا يهم ما دمت سأعود إلى الحياة. حياة واحدة لا تكفي. هل تؤمن بالتقمص؟

: حياة واحدة تكفيني شرط أن...

: نفّذ أنت ما تشترط.

: وحدي لا أستطيع.

: أنا معك يا إياس. خذ مفتاح البيت. خلّه معك. اسكن هنا لو شئت. تعال معي. الحقني. في هانوفر سترب الدعوى على من اعتقلوك وعذبوك. سيبرأ جلدك من آثار الشواء.. ستـــ..

: لو خرجت من سورية أموت.

: تحـــررْ إذن من سجنك. ما هذه المشية التي تمشيها؟ لماذا تحتفظ بآثارهم على جلدك؟ هذه المرة لن يطول غيابي. لو عدت ورأيتك كما أنت سأستعيد منك مفتاح البيت.

: أنا لا أريد المفتاح ولا البيت. أنا أريد..

لكـــن ونســـة ختنت قلفة قلبها مثلك، وربما قبلك، فهل يمكن للقلـــب المختون أن يبرأ، فلا تدمع عين ونسة في المطار وهي تعـــانقك مودعة، ولا تيبس دمعتك الآن في خلوتك وأنت تشرع ذراعيك فلا تعانقان غير هذا الخواء؟

5

موسى نزهان

لـــم يكن ربيع أول من لاحظ أن قفزات إياس القردية قد ندرت وصـــارت أقرب إلى المبالغة في التعبير عن فرحة أو عن سخط. وربما لم تكن مدام سالمة ــ رئيسة دائرة العقود الخارجية ــ أيضاً أول من لاحظ ذلك. لكن المفاجأة كانت أن يخاطبهما رئيس الدائرة القانونية سامر عطوف:

- إيـــاس قـــدم طلباً للحصول على إعانة مالية حتى يتمكن من إجــراء عملـــيات ترميم وتجميل لآثار الحروق على جلده. ومع الطلـــب تقديـــر أولـــي للتكاليف من الدكتور طرفة خير الله: مائة وخمسين ألف ليرة.

قال ربيع:

- يجب أن يوافق الدكتور باسل على الطلب فوراً.

قال سامر:

- يـــا عزيـــزي: الســـيد نائب مدير المجمّع متردد. أظن أنه استشار بعض الجهات فطُلب منه أن يطلب من إياس إسقاط ادعائه على من اختطفوه وعذبوه، وإياس لم يوافق.

قالت مدام سالمة:

- يجـــب أن يوافـــق. أنا سأكلمه. تكلم معه أنت يا ربيع. هذه الدعوى لا تساوي قشة.

قال سامر:

- قـــد لا تســـاوي قشـــة الآن، ولكـــن قد تساوي مليون ليرة تعويضـــات بعد عشر سنوات، قد تساوي سجن من اختطفوا إياس وعذبوه عشرين سنة.

قالت مدام سالمة:

- لو كان الدكتور عيسى حاضراً لوافق على طلب إياس فوراً.

وكانوا قد اقتربوا من باب قاعة الاجتماعات. وتساءل سامر:

- لماذا دعا الدكتور باسل إلى هذا الاجتماع المفاجئ؟

قال ربيع بلا مبالاة:

- بعد قليل نعرف.

قالت مدام سالمة:

- هـــذا أول اجـــتماع يعقـــده المجمّع خارج مقرّه. وأين؟ في الميرديان!

وانعطفـــت وســـامر عائديـــن، بينما وقف ربيع يتلصص على القاعـــة. ولما رأى جنان ومدير مكتب الدكتور عيسى يدخلان من الـــباب الصـــغير خلف المنصّة، فكّر في أن جنان تعرف سرّ هذا

الاجـــتماع. وربما تعرفه منذ الصباح أو منذ البارحة، لكنها تتكتم حـــتى على ربيع. وانعطف عائداً إلى الردهة، فرأى إياس مقبلاً، وعلا صوت قرب باب القاعة يدعو إلى الدخول.

* * *

تعلقـــت العيون والأنفاس والهمهمات بالباب الصغير خلف المنصّة. وفجأة انفتح الباب ودخل الدكتور عيسى فهبّ الجميع وقوفـــاً، وظهر شاب طويل تلاه الدكتور باسل. وانغلق الباب ودوّى التصـــفيق، ولم ينتبه أحد إلى ذراع الدكتور عيسى التي ظلت تتوكأ على ذراع الشاب إلى أن بلغا المنصة وأشار الشاب للأكف بالهدوء.

بدا الدكتور عيسى يعتصر الألم وهو يجلس. وبدت وجنتاه بالغتا الغور، وشارباه قد ابيضّا تماماً، وحاجباه منتوفين، وعيناه تعانيان عسراً وهما تطوفان فوق الوجوه. وهمست مدام سالمة للدكتورة ربى مشيرة إليه:

– كانـــت نظـــارات الدكتور رقيقة. انظري. صارت بغلظ الإصبع!

– الدكتور يا حسرة مهدد بالعمى.

همســـت الدكـــتورة ربـــى وهي تخفي فمها بكفّها. وعلى وقع النحنحات فكرت بأن الدكتور عيسى قد شاخ في أسابيع، وأنه آيل إلى السقوط عن الكرسي في أية لحظة ليموت أمام الجميع. وكتمت شهقتها خوفاً، وكان إياس يهمس مشيراً إلى الشاب:

- لمحته هذا الأسبوع أكثر من مرة داخلاً إلى مكتب الدكتور باسل. هل يكفي أن يكون الدكتور عيسى عمه حتى يجلس هناك؟

همس ربيع:

- تعرفت عليه البارحة في بيت الدكتور عيسى. الرجل لطيف جداً ومهذب جداً، وهو الذي تذكّر أنه رآني في براكات التوتياء عندما كان طالباً في البكالوريا. للأسف لم أستطع أن أتذكره.

ومن موقعه في أقصى الصف الثاني يمين المنصة، لمح ربيع الشابَّ يومئ برأسه إلى جنان التي توسطت الصف الأول قبالة المنصة. ولمح جنان تومئ برأسها للشاب وتبتسم. ورأى نفسه عاجزاً عن أن يتابع ما ابتدأ به الدكتور باسل بينما يتعالى التصفيق. ولما أطبق الهدوء قال الدكتور عيسى:

- أشكركم على هذه المحبة الفياضة. بفضل دعائكم عدت إليكم والحمد لله. والمثل يقول: من طوّلْ الغيبات جاب الغنايم. ومع أن غيبتي كانت قصيرة، مع أني كنت أقاوم المرض، إلا أنني كنت أتابع كل شاردة وواردة في المجمع. أشكركم على تفانيكم في العمل كما لو أنني كنت بينكم ولم أغب ساعة. والآن أبشركم بفوز المجمّع 21 بعقد المحطة الحرارية.

ودوّى التصفيق طويلاً حتى قال الدكتور باسل بصوتٍ زاجر:

- الرجاء الهدوء.

وتابع الدكتور عيسى:

- كما أبشركم بأننا مقبلون على بناء محطات كهربائية في الخارج. وكل هذا على الرغم من العقبات التي تكبر وتزداد أمامنا.

أمـــا البشـــارة الأكـــبر التي أحملها إليكم، فهي هذا الشاب الأستاذ موسى نزهان.

ودوّى التصـــفيق عالياً وطويلاً. ووقف الأستاذ موسى ملوحاً، وبـــدا بـــالغ الوســـامة. ولما جلس تابع الدكتور عيسى خلل ذيول التصفيق والهمهمة:

– ســـتعرفون مـــن هو الأستاذ موسى نزهان ابتداءً من اليوم. موســـى ليس فقط ابن أخي الذي ربيّته مثل ابني. موسى ليس فقط خـــريج أفضل جامعات بريطانيا، وليس فقط من شهدت له كبرى الشـــركات فـــي أمريكا. الأستاذ موسى نزهان ابتداءً من اليوم هو مدير المجمّع 21 بالوكالة. إنه أملي وأملكم والله الموفّق.

وهـــبّ الجميع وقوفاً يصفقون ويهللون. وخُيّل لربيع أن عنق الشاب قد طالت كثيراً ونحفتْ كثيراً، وأنها لم تكن كذلك البارحة. بـــل إن رأس الشـــاب كلها قد استطالت، وشعره هجم على جبينه وبـــدّل لونـــه، وفتحتي أنفه ضاقتا، وجذعه قصر وعرض. وفرك ربيع جفنيه وهو يهمس لإياس:

– هل ترى ما أرى؟

* * *

فـــي نهاية حفل الكوكتيل الذي أعقب الاجتماع كان إياس بين آخـــر مـــن صـــافحوا الأســـتاذ موسى، وبين أول من انسلّوا من الميرديان.

بعـــيد المدخل، وفي زحام السيارات، لمح سيارة ربيع فأسرع إليها. وما إن جلس حتى أغلق الراديو وقال:

- يبدو أن جنان مقربة جداً من الأستاذ موسى.

لعن ربيع الزحام والاجتماع والكوكتيل، فلكزه إياس قائلاً:

- بربك ماذا قالت عندما قدمتك له؟

- مثلما قالت عندما قدمت الجميع. هو يعرف أنني زوجها. قلت لك رأيته البارحة في بيت عمه.

- أبشرْ يا عم.

- بماذا؟

- بالعهد الجديد. ولكن منذ متى تخبئ عني مثل هذا السر؟

- أي سرّ؟

- سرّ العهد الجديد. لا تتغاب.

- صدقني لا أعرف أكثر مما تعرف.

- صدقتك ولكن ما رأيك بالمسرحية؟

- أي مسرحية؟

- مسرحية العهد الجديد.

- إخراج متقن.

- بل إخراج رديء.

- احفظ لسانك يا إياس. على الأقل حتى يوافق الأستاذ موسى على طلبك إعانة المعالجة.

- وما أدراك أنت بالطلب؟

- مدام سالمة. هل ستسأل كيف عرفت هي أيضاً؟ على كل حال الموافقة مضمونة حتى إذا لم تسقط دعواك الفاشلة سلفاً، شرط أن تتوسط لك جنان.

- خلّنا بالمسرحية.

- أين المخالفة يا فهيم؟

- أن ينصّب الدكتور عيسى علينا ابن أخيه.

- مـــن هـــذه الناحية لا تشغل بالك. إذا كان في الأمر مخالفة، نعدّل القانون كرمى لمن يطالب بسيادة القانون: الأستاذ إياس قمر الدين. ما المشكلة؟

- المشكلة أن المجمّع ليس مزرعة الدكتور عيسى التي ورثها مـــن أبـــيه حـــتى يورثها لابنه أو لابن أخيه. في المجمّع كفاءات وخبرات أفضل. في البلد كثيرون أجدر.

- ربما. ولكني أفكر بالدكتور عيسى نفسه.

- ما به؟

- كـــنا نظـــن أنـــه يزداد ضعفاً وخصومه صاروا أقوى. أنا شخصـــياً كنت على يقين من أنه سيستقيل أو يُقال، وإذا به يستمد من الضعف قوة كما يُقال، ويورّث الأستاذ موسى.

- زمـــن الدكتور عيسى ولّى يا ربيع. ولن يكون زمن الأستاذ موسى أفضل.

- هل تراهن؟

ســـأل ربـــيع متمنياً أن يخسر الرهان وأن يكسبه معاً. وكانت الســـيارة تـــنطلق في طريق الربوة، وجنان تتماثل له وهي تتقدم الأستاذ موسى نزهان إلى مكان غامض.

6

من العاشق ومن العاشقة؟

شهلة هي الأَولى بأن تعلن أمامها ما بك. ستؤكد لها أن الأستاذ موسى نزهان مشوّه: رأيته هذا الصباح كما رأيته خلف المنصة, وكما رأيته في حفل الكوكتيل. لكن جنان نصحتك بأن تراجع طبيب العيون, وتغننت بشباب الأستاذ موسى: لو تراه فوق حصانه! لو تراه في بذلة التنس! لو تراها شهلة وهي تسخر منك وتتغنى بنظرة الشاب المستقبلية وبراعته في الأتيكيت وخجله كالعروس حيناً وجرأته حيناً كجرأتك في شبابك يا أستاذ ربيع!

لكن أسماء حضرت على غير عادتها يوم العطلة قبل أن يذكر ربيع موسى وجنان, وقبل أن ينتهي من الغداء. وعلى الرغم من مؤانسة أسماء له, أسرع في الخروج وشهلة تتمهله، وهو يتعجل اللجوء إلى إياس: البيت مغلق والموبايل مغلق.

جـــنان أيضـــاً ليست في البيت, وليست عند أُمها كعادتها يوم العطلـــة. وعلى الرغم من أن هاتفها قد لا يكون مغلقاً، فلن يتصل ربيع.

لا بـــد أنهـــا مع الأستاذ موسى. ما عادت تفارقه منذ صارت مديـــرة المكتـــب الخاص. قد يكونان في المجمّع، فالأستاذ موسى يســـابق الزمـــن واعـــتلال عمه. ولكن قد يكونان أيضاً في دعوة متأخرة للغداء، وقد يعودان الدكتور عيسى بعد الغداء, وأنت لك أن تتلهى بمشاهدة فيلم مصري قديم على القناة المصرية, كأنك جنان. لك أن تقرأ الجرائد التي صارت جنان تقرؤها. لك أن تتمدد على الكنـــبة العريضـــة وتصدق وساوسك: كانت جنان عاشقة للدكتور عيسى، والآن هي عاشقة للأستاذ موسى!

هاهي الآن مثلها عندما دخلت المجمّع أول مرة: شعرها طويل وأشقر أو مشقّر, عيناها خضروان وواسعتان، عنقها أبيض وريّان، نظراتها حائرة بين النعس والتوفز, صوتها يناديك ويصدك، وأنت تـــتابع هـــذه الموظفـــة الجديدة التي انتزعت لنفسها هذه الوظيفة الغامضة: لها كل الكومبيوترات ولا كومبيوتر لها، لها كل الغرف ولا غـــرفة لها, مقربة من الدكتور عيسى وبلا شأن. وعلى الرغم مـــن تذمـــرها بهـــذه النقائض، ستؤكد لك أنها كانت سعيدة بها. وســـتؤكد أن سعادتها كانت تكبر كلما فكرت بأنك تتعلق بها يوماً فيوماً: لماذا كنت إذن تبدو متوتراً دائماً وعلى عجل؟

هاهـــي جـــنان الآن بجانب الدكتور عيسى في قاعة اجتماعات المجمّع, وهو يتدفق: أنا أعرف المتعهد الألماني عن قرب. بعدما تخرجـــت من الجامعة عملت سنة في واحدة من شركاته وسنة في

غيرها قبل أن أعود إلى الوطن لأدرّس ربيع لشلاش. والدكتور عيسى يضحك، والموظفة الشقراء الجديدة تضحك، والدكتور عيسى يؤكد أن المتعهد الألماني ممتاز، لكن المصاعب الخارجة عن إرادته وإرادتنا طوت مشروع المشفى الجامعي. ثم يلتفت إلى جنان التي تتدفق: 640 سريراً. عيادات خاصة. قاعات تدريس. المساحة 6500 مترمربع. كلفة المتر المربع الواحد مفتاح اليد مئة دولار زائد 2500 ليرة سورية. انسوا هذا المشفى: تأمر جنان ضاحكة, ويتمنى ربيع أن تظل تتحدث وتضحك, لكن الدكتور عيسى يتابع باعتزاز: أمامنا مشفى جامعي أكبر وأهم وسنبنيه وحدنا بمستوى المتعهد الألماني. ويلتفت إلى جنان التي تتدفق: 770 سريراً. معهد أبحاث وعلاج السرطان. مخبر الأبحاث وبنك الدم ووحدة زرع الأعضاء. وحدة إعادة التأهيل. وحدة الأطراف الصناعية ووحدة الإسعاف والحروق والدارة التيلفزيونية. الترجمة الفورية. العناية المشددة. الأقسام المحصنة ضد القصف الجوي والبحري المباشر لقنبلة زنة 500 طن. مساحة المشفى 1290 متر مربع وسنبني بكلفة 6000 ليرة سورية للمتر المربع مفتاح اليد, أي بنصف كلفة المتعهد الألماني: يؤكد الدكتور عيسى ويهلل ربيع ويتمنى لو أن الموظفة الشقراء الجديدة تظل تقرأ فيما بين يديها، وترفع بين كلمة وكلمة عينيها الخضراوين الواسعتين عن الأوراق لتلاقيا عيني ربيعٍ الذي أطلق تهليلُهُ حماسةَ الآخرين, فراحوا يعانقون بعضهم بعضاً, ووقفوا يصافحون الدكتور عيسى, ومنهم من عانقه مثل ربيع الذي سيعض أصابعه ندماً على أنه لم يغتنم الفرصة ويعانق جنان.

لكن ربيع يؤكد الآن أنه لم يأبه بهذه المتباهية بليسانس الاقتصاد والـــتجارة وببراعتها في الكومبيوتر وبإجادتها الإنكليزية وإلمامها بالفرنســـية. لم يأبه بجمالها الذي تحسدها عليه مدام سالمة ويتغنى به الأستاذ بيدروس، ولم يشغله منها غير غموض وظيفتها, فلماذا تـــترقرق نظـــراته إذن الآن وتحنو على ذلك الشاب الذي سيغمر جنان بالمصادفات في أي غرفة أو ممر من إدارة المجمع, حتى إذا قـــدّر أن ذلك بات كافياً، تجرأ على أن يطلب منها موعداً, فدعته هـــي إلـــى فـــنجان قهوة في كافيتريا يا مرحبا؟ هاهي كافيتريا يا مرحبا تشهد اللقاء الأول بين هذا العاشق وهذه العاشقة: هو يسمي المجمـــع 21 مجمّـــع جـــنان, وهي تقترح أن يسمياه مجمّع ربيع وجـــنان, وتغـــصّ بالضـــحكة التي ستنسي ربيع ما غزل للموعد الأول، فـــراح يتباهى بما أنجز المجمع منذ كان براكات التوتياء, ويغرق في ذكرياته عن الدراسة على يدي الدكتور عيسى, وعمّن لـــم يعشق وعمّن عشقنه, حتى فاجأته جنان بوقفتها: تأخرت عن البيت. صار لازم إمشي. فسألها: بتتزوجيني يا جنان؟

والآن يحّس ربيع بالوجع الذي يومض في صدره كلما تراءى لـــه أنه يبدأ حياته من جديد. ربما كان ذلك عندما التحق بالدكتور عيسى في براكات التوتياء, أو عندما لاقى ونسة في مطار دمشق أول مرة، أو عندما سافرت غوَى إلى باريس، أوعندما تركته جنان أيامـــاً مشـــلعاً قـــبل أن توافـــق على الزواج, فرأى نفسه مسيّراً، وتفاصيل الزواج ــ مثل التوتر الذي أخذ يدهم المجمع ــ تستلّ ما كان يعد به نفسه من الفرح بجنان, فيجري خلفها للتوقيع على عقد البيـــت الـــذي أهداه المجمّع للعروسين, ويجري خلفها في جريها

خلـــف الأثاث، ويظل يجري ولا يلحق بها, بينما الزغاريد تدفعها أبعـــد وأقوى إلى أن يبلغا ميريديان اللاذقية: العروس دافئة قليلاً, باردة قليلاً, ولا تبالي أن يظل غشاء البكارة سليماً من ليلة الخميس حتى ليلة الاثنين, ثم تصيح متوجعة: يلعن أبوك بيكفّي.

أطلقـــت الشتيمة ابتسامة ربيع فحبسها وأسرع إلى الشرفة التي تملؤهـــا ورود جنان. وعلى الرغم من نسائم المساء الباردة جلس علـــى الأرجوحة الصغيرة التي كانت غِوى تحتكرها, ثم صارت جـــنان تحـــتكرها. وإذْ أسلم رأسه لمسند الأرجوحة، تراءت شهلة تتسلل من مكان ما, وتجلس على كرسي هزاز لم يكن في الشرفة من قبل, ثم تخاطبه معاتبةً: أنت تتمنى أن تكون جنان عاشقة كي تبرر أنك عاشق. وأنا يا ربيع؟

7

مما كتبت ونسة لإياس ليلة عيد ميلادها الأربعين.

أنهى إياس المكالمة ولبث يتفرج على البطاقة السحرية التي أسمعت ونسة صوته: كل عام وأنت بخير, وأسمعته صوتها: وأنت بخير يا إياس. ثم قبّل البطاقة التي أخطأ في استعمالها مرتين قبل أن يأتيه صوت ونسة كأنها في المطبخ وهو ينادي: البطاطا احترقت يا ونسة. لا تنسي المملحة.

ثم ـ وكأنه يؤدي طقساً مقدساً ـ أشعل الشمعة, وفتح زجاجة النبيذ، وأحضر صحن الخيار المقطع وصحن الجزر المقطع وصحن الفستق وكأسين.

ثـــم ألقـــم المســـجلة كاســـيت كريم كابان، وأصغى هنيهة إلى الصوت الكردي الغامض قبل أن يملأ الكأسين بالنبيذ, ويرشف من كل كأس رشفة, ويتمتم كل مرة: كل عام وأنت بخير.

ثم أحضر رسالة ونسة من تحت الهاتف ووضعها بين الكأسين, وأكبّ على صفحتها الأولى يعدد لونسة التي ملأت الكرسي المقابل وهي تعدد له, كأنهما طفلان يتباريان:

: تيه النبي موسى دام أربعين يوماً.

: وصومه عليه السلام مع إيليا دام أربعين يوماً.

: كتبَ التوراة في أربعين سنة.

: وسيحكم العالم قبل فنائه أربعين سنة.

: الطوفان دام أربعين عاماً.

: ورأس الحسين رجع من الشام بعد أربعين يوماً.

: صلاة الجمعة لا تصح إذا قلّ عدد المصلين عن أربعين.

: وأمي تزور مقام الأربعين كل سنة بعد ما مات أبي رحمه الله عليه.

: الكوجـــك يصـــوم أربعين مرة وكل مرة أربعين يوم ويوقد أربعين سراج حتى..

: من الكوجك يا ونسة؟

ســـأل الطفـــل مقاطعاً فصاحت الطفلة ظافرة: غلبتك يا إياس.

وبعـــد رشـــفة ثانـــية من الكأسين, تناول الرسالة التي وصلته في الصـــباح, وندم على أنه لم يقل لونسة: حفظت رسالتك بصم من أول مـــرة. وتنسّم على الورق أثر أناملها، وقرأ في وسط الصفحة الأولى: 18 سنة يا إياس قبل أن أهاجر و13 قبل عودتي أول مرة

إلى سورية. يعني قبل تسع سنين. اجمع. أربعين سنة. واليوم عيد ميلادي الأربعين وأنا وحدي. بيرجيت كلمتني بالتيلفون وهنأتني ووعدتني بالهدية بكرة. بالمناسبة انتسبنا سوا إلى حزب الخضر من فترة قريبة. حسين كان عضواً في هذا الحزب.

حسين احتفل بعيد ميلادي أول مرة سنة تخرجي من المعهد. قبل ذلك كنت أسمع بعيد الميلاد ولكن لم أحتفل به ولا مرة ولم يحتفل به لي أحد. ثلاثة من أصدقائي وواحدة من صديقاتي تذكروا وكلموني بالتيلفون وهنأوني. واحد منهم سألني: ما فيه حفلة؟ وواحد قال: إذا ما فيه حفلة ما فيه هدية. أردت أن أبقى وحدي. لا أظن لأنني افتقدت أخي حسين. لا أعرف السبب. فكرت فيك وقلت: اسهري مع إياس واكتبي له رسالة. قولي له صار عمري أربعين سنة. قولي له هذا رقم مبارك واسأليه ما إذا كان لا يزال يقرأ عن ملّتك. لا تنسَ يا إياس: كتبنا هي قلوبنا. وهلق تعال نلعب لعبة الأربعين.

همهم إياس كأنها حقاً تملأ الكرسي المقابل: قولي لي قبلْ شو يعني الكوجك؟

قالت ونسة: الكوجك يكشف المستور ويعرف ماذا سيصير الميت بعد ما يدفنه: امرأة أو رجل أو حجر أو شجرة أو ماذا. لو رأيت العباية تغطيه كما رأيته ولو سمعته يدمدم كما سمعته ولو قال لك كما قال لي لصدقته. شو عرّفه أني سأصل إلى سن الأربعين بلا زواج ونصيبي يحوم كل مرة حول واحد غريب من غير ديني. وبعدها ينقطع؟ وهلق: بدّك تلعب ولاّ بلعبْ وحدي.

قال إياس وقد عاد طفلاً يناكد: العبي وحدك لشوفْ.

قالـــت ونســـة وقد أصرت هذه المرة على ألاّ تعود طفلة: والد الشيخادي عاش في الغابة أربعين سنة قبل أن يناديه المنادي لينام مع زوجته حتى يخرج من صلبه من يملأ اسمه الشرق والغرب.

قال إياس: قصدك الشيخ عَدَي. الشيخ عَدَاي.

قالت ونسة: قل الشيخادي.

سأل إياس: خلصت اللعبة؟

قالت ونسة: كان للشيخادي من المريدين أربعين.

سأل إياس بلجاجة الطفل: ما خلصت اللعبة؟

قالت ونسة: أنا سبقتك إلى الأربعين. خلصت اللعبة.

لكـــن صـــوتها ظل يتناهى وإياس يحمل الكأسين: أنا لم أسألك لمـــاذا لـــم تتزوج حتى الآن. أنا لازلت أجهلك يا إياس. اكتب لي رســـالة أطول من رسالتي. احكي لي عنك بس انتبه: براس شيخ بغـــداد احكي لي عن غير السجن. احكي لي مثلاً عن أهلك. عن أول بنت عشقتها. عن آخر بنت. أي شيء أي شيء إلا السجن.

وتجـــدد عزم إياس أكبر منه في الصباح على أن يكتب لونسة. ورشف من الكأسين وتبسم للسطور الأولى في الصفحة الأولى: لا تعلّق على أخطائي. كويّس مني أني لازلت أقرأ وأكتب بالعربي.

وبعدما أعاد الكأسين وضع الصفحة الأولى بينهما, وأقبلت عيناه تلتهمان الصفحة الثانية منذ بدايتها: في هذه البلاد تستطيع أن تقرأ كل شيء وأن تقول كل ما يخطر على بالك. لكني لا أنسى وصية حسين: حتى في ألمانيا الباطنية ضرورية يا أختي.

عندما قلت لصديقي الأول وكان نمساوي يعيش هنا: الشيخادي عاش عازباً وعند موته لصق ظهره بظهر خادمه لينقل إليه السر،

سخر مني وصار كل همه أن يعرف ما إذا كنت مؤمنة بهذا الكلام أم لا. أنا لم أسأله بماذا يؤمن وبماذا لا يؤمن. لماذا سألني؟

بعد أقل من شهر على علاقتنا احتفلت معه بعيد الميلاد وعيد رأس السنة وكنت طايرة من الفرح لأني بدأت العمل وقتها. أردت أن أعمل له مفاجأة. يمكن صرت تعرف أن عيد العجوة عندنا يأتي بعد عيد الميلاد. أحضرت الطحين وعجنت للمرة الثانية في حياتي وطبعاً كانت المرة الأولى في بيت خالي في الخربة. خبزت رغيفاً كبيراً لـيلة الأربعاء وكنت خائفة أن يحترق ولكن طلع رغيف يشهّي. وضعت في الرغيف حبة زبيب كما كانت زوجة خالي تفعل ونحن صغار. ويوم الخميس دعوت صديقي ودعوت بعض الأطفال من جيران بيت أخي حسين. كسرت الرغيف على ظهر ابن أخي حسب الأصول ووزعت القطع على الأطفال فكانت حبة الزبيب في القطعة التي أخذها واحد من الأطفال, وكافأته بلعبة صغيرة كما هي عادات العيد عندنا. لكن حبيب القلب والروح سخر مني ومن العيد. أنا لم أسخر منه لماذا سخر مني؟ لذلك تركته يا إياس مع إني بكيت المرّ عليه وما عدت أتجرأ بعده على أن أكون صريحة مع أحد حتى صادفت ربيع.

ربيع يحترم الغير ولكنه لا يؤمن أن للباطنية مطرح في هذه الأيام. ما رأيك؟ ربيع مطلّع ومرة قال لي فيه غيرك يا ونسة من عبد الطاووس وذكر لي أن الآراميين سموا الطاووس الملاك الطائر وذكر لي أن الطاووس هو رمز إله الحكمة نابو عند البابليين. وأنا تظاهرت بأني لا أعرف حتى أتأكد ما إذا كان يسخر أم لا لكنه لم يسخر أبداً. أنت تعرف أنه كان صديقي وكنت صديقته, ولكن لاهو يعرف ولا أنت تعرف لماذا انفصلنا.

وكمـــا في الصباح، أسرع إياس إلى الصفحة التالية متوجساً, وتابع بـــتأنٍ: والحقيقة أن الانفصال كان من جهتي ولا أعرف لماذا أنا اليوم قادرةٌ على أن أقول لك الحقيقة. إذا أحببت أن تقولها لربيع فلا مانع.

أنا حملت من ربيع يا إياس. رجعت من سورية واكتشفت أني حـــامل وخفـــت. خفت من نفسي ومن حسين نفسه ومن أهلي في ســـورية ومن ملّتي هنا. خفت من ربيع وخفت عليه. هو متزوج وعـــنده بنـــت وأنا وهو لم نتطرق للزواج بحرف. لكن بيرجيت وقفت إلى جانبي وهي وحدها إلى اليوم من يعرف أني أجهضت. مـــات حسين وهو لا يعرف. يمكن لو عرف ربيع حتى بعد تسع سنين فهذا أفضل. يمكن ظنّ أني لعبت بعواطفه ونمت معه وبعدين أدرت له ظهري. ما كنت أبداً أريد أن أحمل إلا إذا تزوجت.

بعـــد الإجهـــاض رجع إيماني أكبر منه وقت كنت أعيش مع أهلي. وبعد الإجهاض فكرت بكل جد أن أكون واحدة من الفقرايا. أظـــنك صـــرت تعـــرف الفقرايا. فعلاً فكرت أن أذهب إلى مرقد الشـــيخادي لأعيش مثل أي أرملة هناك ومثل أي بنت باكر هناك تعتني بالمرقد وتساعد في الطبخ والغسل. وصارحت حسين بنّيتي فخاف من أني سأبقى أتقلّب وأتعذب. هو يقصد إيماني. ونصحني بالانتظار فانتظرت. وها أنا في ليلة عيد ميلادي الأربعين لم أصر من الفقرايا بل أكتب لك.

لمـــاذا أكتـــب لك يا إياس؟ يمكن معرفتنا لبعضنا لا تسمح بأن أكتب لك مثل هذا الكلام. ولكن شعوري في ليلة عيد ميلادي أنك أحسن من عرفت من الرجال. وهذا ما سبق أن قلته لأحد غيرك. على كل حال أنا سأحضر خلال فترة قريبة. يمكن في أول الصيف

وســأرتب أموري حتى أقضي أكثر الصيف في سورية فهل أنت مستعد؟ هل نفذت وصيتي وبدأت العلاج؟

هــذه المرة أريد أن أعرف كل شيء عن إياس قمر الدين ومن هو إياس قمر الدين على حقيقته. لماذا؟ لا أعرف.

وضعِ ربيع الصفحة الثانية فوق الأولى بين الكأسين, وهو أقل ارتــباكاً منه في الصباح. ورشف من كأس ونسة, وأخرج كاسيت كــريم كابان من المسجلة, وقلّب الكاسيتات الكردية التي أحضرها هــذا المساء من إحدى السيارات العراقية التي تكاثرت منذ شهور وتحولت إلى بسطات. واختار جزافاً كاسيت المطرب الشاب أزدر وهبــي. ونظر في الورقة الأخيرة من الرسالة, وقرأ بصوت عالٍ ما نقلت ونسة من قول تاج العارفين الحسن بن عدي الثاني شمس الدين:

لا تمزج الراحَ بالماء الزلالِ فما
يجوزُ أن تمزج الصهباء بالماءِ
منها خُلقتُ ومني كان منشؤها
وقــد تمازج آباهــا بآبائــي

وثم قرأ بصمت:

وصرتُ فرداً بلا ثانٍ أقوم به
وأصبح الكل والأكوان تفخر بي

وصدّق إياس أن تاج العارفين هو دردائيل، وأنه من غاب عن الدنــيا حقاً ست سنوات، ليكتب كتاب الجلوة، وأنه صاحبَ الشيخ

الأكبر، وأنه قضيب البان والملك الرحيم الذي لم يقتل, وسيعود، على الرغم من أن مملوكاً أرمنياً خنقه بوتر. وفي نهاية الصفحة قرأ ما نقلت ونسة عن أبي البركات: المحبة لذة في نغصة، ومواضع التحقق منها الدهش والحيرة، ويلزمها الشوق وهو توق النفس إلى رؤية المحبوب, وذلك يتولد من امتلاء القلب بذكر الحبيب وامتزاج الكرب باللهب إلى مشاهدة القريب... مَنْ سكر بكأس المحبة لا يصحو إلا بمشاهدة محبوبه، فإن السكر ليلةٌ صباحها المشاهدة, كما أن الصدق شجرة ثمرتها المشاهدة.

وأعاد ترتيب الصفحات الثلاث وهو يفكر في أن هذا حقاً ما هو فيه. وتذكر أن أبا البركات خليفة الشيخادي العربي قد تزوج من كردية. وتساءل عما جعل ونسة تنقل هذه السطور لولا أن هذا ما هي فيه أيضاً. وأخرج البطاقة السحرية من جيبه، وجاء بالهاتف إلى الطاولة.

8

سيران

فـــي بداية الطريق إلى قصر المؤتمرات, أوقف ربيع السيارة، وأشهر إياس الورقة ضاحكاً، وقرأها ربيع واجفاً، ثم سأل:

- ماذا ستفعل؟
- لن أذهب.
- هذا استدعاء رسمي يا إياس.
- الاستدعاء الرسمي يأتي من القضاء.

وقرأ ربيع الورقة ثانية ثم أعادها لإياس متمتماً:

- لماذا انتظروا كل هذه المدة بعد استدعاء جنان؟
- ما أدراني؟
- استشرت الأستاذ موسى؟
- لن أستشير أحداً.

- تريد أن يشرشحوك؟
- لن يشرشحوني.
- من أين لك هذه الثقة؟
- الدنيا تتغير يا ربيع.
- صحيح. صاروا يحاكمون علناً ويحكمون بأرحم.
- هم يتغيرون ونحن نتغير. هذه الورقة تؤكد كلامي.
- لماذا جرّوا جنان إذن جراً؟
- استوطوا حيطك.
- لا تستفزهم يا إياس.
- دعك من هذا وخلنا في المهم.
- وما هو هذا المهم؟
- وصلتني رسالة من ونسة وفيها ما يخصك.
- أنا؟

سأل ربيع بدهشة, وحاصت نظراته فوق التابلوه, وقال إياس بسرعة كأنه يرمي عن ظهره حملاً:

- ونسة قطعت العلاقة معك لأنها حملت منك وأجهضت.

وانتظر مترقباً وقع النبأ على ربيع الذي حدق في إياس، ثم أطرق متسائلاً:

- ما الذي ذكّرها بي؟ لماذا تخبرني الآن؟
- خمّنْ.

قال إياس وانتظر حتى رفع ربيع رأسه متمتماً:

- يوم رأيت تلك الكتب عن اليزيدية على طاولتك, خطر لي أنك قد تكون على علاقة خاصة معها.

- نحن في البداية.

قال إياس بينما وازت سيارةُ هاني سيارةَ ربيع, ولوّح لهما, ولوحت شهلة, وابتسمت رحاب.

***

ما كادت السيارتان تقفان حتى اندفعت رحاب إلى الوضحة القريبة وراحت تتقافز. وما إن قدّمتْ شهلة هاني لربيع وإياس حتى لحقت برحاب, وأخذت تتقافز مثلها وتنادي الرجال, فأسرع هاني وإياس, وتباطأ ربيع وهو يخاتل قلقه: هل تكون أسماء قد أخبرت أخاها باغتنام العاشقين لغيابه؟ وماذا لو أن هاني ليس طيباً كما تقول أمه؟ ماذا لو كانت دعوته إلى هذا السيران فخاً: ربيع زوج مناسب يا شهلة؟ تراه أسرع إلى الوضحة لأن هذا العاشق العجوز ربيع لشلاش ينسى أنه متزوج وأنه أب يغرر بالعاشقة الصغيرة وينكأ جراحها؟

لكن هاني بدّد أسئلة ربيعٍ إذ شرع يدندن وهو يحوم حول رحاب: يللي عليك كِتر الدلال يا حلوة انزلي. وشرعت رحاب تنظر إليه بغنج وتتثنى وتدندن: ما بنزلْ ما بنزلْ يا دادا ما بنزلْ. وانضمّ إياس إلى هاني في مقاطع العاشق من الأغنية، وانضمت شهلة إلى رحاب في مقاطع العاشقة وهي تنظر إلى ربيع بغنج وتتثنى. ولما صفقوا وهللوا صحا ربيع على نهاية الأغنية ورامق عقد المرجان، وخيل إليه أن أوراق الحور تنهمر بظلالها على العقد وتتراقص فوق وجه شهلة وعنقها وصدرها, لكأنها تسرقها

منه أو تسرق العقد منها, فاقترب بحذر، وإذا برحاب تبادره: فرع الشباب في صالون مرمر بانتظارك يا أستاذ ربيع.

وأخفت نظرته شعرها تحت حجاب كما رآها أول مرة. وابتسم يسأل:

– تسمعين راديو سوا؟

– أسمع منه الراب وعمرو دياب وأليسا والكثير من الأغاني الحلوة الجديدة. وأنتَ؟

– أحياناً في السيارة أسمع منه الأخبار.

– مثل هاني. ولكن لماذا تسأل؟

– لأن مروّجة أميركية أشطر منك تروّج لراديو سوا وهو يروّج لنا سحر أميركا.

– هاتها إلى هنا أو خذني إلى أميركا وسترى أني أشطر. ولكن لا هي ولا غيرها يخدعني بسحر أميركا. وأنت؟

– أميركا سحرها كبير.

– هاني يقول: حبّها قتّال مثل بغضها. متى تظن أنها تضرب العراق؟

سألت وهي تلتفت إلى الصوت الذي انبعث من سيارة هاني. ونسي ربيع السؤال عندما علا صوت أولاد الجويني: هزي على البلاد.. وكان خصر شهلة يتلوى وهي تعود من السيارة وتتحاشى النظر إلى ربيع.

ولما صفقوا وهللوا أفاق على نهاية الأغنية. ورأى رحاب تجري خلل قامات الحور وهاني يلحق بها وإياس يدور مع ذؤابات الأشجار السامقة فاقترب من شهلة وهمس:

– أظن أن هاني ورحاب..

فقاطعته مترنّمة:

– كايدة العزّال أنا من يومي..

وحضـــنت كفاهــا كفيه فغنى إياس: كل الناس اتنين اتنين وأنا وحدي غريبة، وأسرع إلى سيارته يحضر زجاجات البيرة، وقالت شهلة:

– إياس أفضل منه يوم عرفته. كأنه عاشق.

فترنَّم ربيع:

– عين الحسود فيها عود يا حلاوة.

ورفع كفيها إلى شفتيه.

***

وفجــأة تكاثفت الظلال, وكان إياس يحضر المنقل ويأمر ربيع وشــهلة بإعداد السلاطة. وحين عاد هاني ورحاب أخذت ذؤابات الحــور تلاعــب نــار المنقل بقطرة فقطرة. وحذّر إياس من أنها ستمطر. وفجأة راح ينط حول المنقل كالقرد ويأمر بجمع الحطب اليابس, فاختفى هاني ورحاب ثانية, ولحقت بهما شهلة, ثم لحق بها إيــاس. ولمــا عادوا محملين كانت القطرات قد تكاثرت والنار قد انطفأت, فاندفعوا كالممسوسين يقودهم إياس حتى أوقدوا النار رغم الرذاذ، وربيع لا زال مستغرقاً في إعداد السلاطة.

بعــد قليل رمى إياس بالمنقل وسط النار التي تطاولت ألسنتها تغالب الرذاذ, وأقسم أنها ستمطر. ولم يكادوا يكذبونه حتى أخذت ذؤابات الحور ترشهم رشاً. ولم يكادوا يصدقونه حتى بدت ذؤابات

الحور كأنما تتدرأ بألسنة النار ريثما تعبرالسحابة الغشاشة. وحين عبرتْ تدافعوا: شهلة تتلمس بلل قميصها وتتفحص السلاطة, ربيع يحضـــر زجاجات البيرة والكؤوس, هاني يعدّ أسياخ اللحم, رحاب تبحـــث عن علبة الحمّص وعن كيس الموالح, وإياس ينازع النار المشـــبوبة علـــى المنقل فتغلبه حتى تنجده رحاب وشهلة. وعندما اقترب منهم ربيع بدت رحاب كأنما تشاجر إياس وهي تخاطبه:

- أظـــن أن مـــدام مرمـــر شـــريكة الدكتور طرفة في مركز التجميل، وليست صديقته فقط. أنا وشهلة يمكن أن نطلب من مدام مرمـــر الـــتدخل لدى الدكتور طرفة خيرالله. بالتأكيد سيخفّض لك تكاليف العلاج. يمكن أن يخفضها إلى النصف.

فقال إياس:

- حتى لو خفّضها تسعين بالمائة، من أين سأدفع إذا لم يوافق الأستاذ موسى نزهان على الإعانة؟

قالت شهلة:

- اطلب قرضاً من مصرف التسليف.

وقال ربيع ممازحاً:

- قلت لك توسّطْ جنان، لم ترض. قلت لك: اكتب مبشّراَ بالعهد الجديد في المجمّع، لم ترض.

قال إياس وهو يركز نظرته في ربيع:

- في هانوفر أصدقاء تعهدوا بتأمين العلاج مجاناً وبتحريك الدعوى التي أقمتها على من اعتقلوني وعذبوني.

- ماذا تنتظر؟

سألت رحاب. وأشاح ربيع كأنه يخشى أن تظهر ونسة الآن وتراه بجانب شهلة أو تعانق إياس أمامه. وقالت شهلة:

- لماذا يُقال إذن: المجمّع 21 مأوى المعارضين والمغضوب عليهم؟

قال إياس ساخراً:

- ولا الضالّين آمين.

واقترب هاني مُشْهِراً في كل يد قبضة من أسياخ اللحم، وقال:

- المجمّع 21 مأوى العاطلين والمفسدين والفاسدين.

فقال ربيع:

- أنت تبالغ مثل إياس.

وقال إياس:

- لا يمكن أن يعم الفساد وينجو المجمّع.

وقال هاني وهو يغطي المنقل بالأسياخ:

- حاولت الدخول إلى المجمّع ولكن أين الواسطة؟ وجدت الواسطة ولكن أين البخشيش؟ من أجل وظيفة محاسب تكاليف طلبوا خمسين ألف ليرة عداً ونقداً.

قال ربيع:

- المجمّع لم يعد كما كان. في البداية كان منا من يراه كومونة باريس. أنا لست محامياً عنه, والفساد وصل إليه. ولكن أراه بدأ ينطلق من جديد على يد الأستاذ موسى.

فخاطب إياس الآخرين:

- أخشى أن يجعلنا الأستاذ موسى نترحّم على زمن عمّه.

وعاد إلى ربيع متابعاً:

- أنت كنت جزءاً من زمن الدكتور عيسى من البداية. والآن أنت وجنان جزء من زمن الوريث، لذلك لا تستطيع أن تقول إلا ما تقول.

قال ربيع باستياء:

- لا أحـــد يمكـــن أن ينكر ما أنجز المجمّع على عهد الدكتور عيسى. ولا أحد يمكن أن ينكر ما بدأ الأستاذ موسى به من إصلاح المجمّع ومن تطويره أيضاً.

فدنا إياس من هاني وهمس:

- المثل يقول يا صاحبي: كل هالفعل ما يحبّلْ.

وفرقعت ضحكتهما، وبدا ربيع ينقبض، فقالت شهلة:

- اقفلوا سيرة المجمّع وإلا بدأت بسيرة السوق الحرة.

والتفتت إلى رحاب:

- يلله يا حبيبتي.

ووقفت تترنم وتتثنى: لو قلت إنني أنا عاشقاك فيها حاجة دي؟ لـــو قلـــت أنا قلبي معاك فيها حاجة دي؟ وتبعتها رحاب, وصفّق هاني، وصاح إياس:

- الغناء بعد الغداء.

وبدا ربيع يغالب انقباضه فلا يغلبه.

9

رصاصة الرحمة

على الطريق إلى سد آفاميا A:

يرخـــي ربيع رأسه على زجاج السيارة. تهيم نظراته في الأفق الغائم. يزفر ويستعيد شجار إياس وجنان.

إيـــاس: الدكـــتور عيسى لا يملك المجمّع والأستاذ موسى لا يستحق المجمّع. من لا يملك أعطى لمن لا يستحق.

جـــنان: احفـــظ لســـانك يا إياس. ابلعه. كل كلمة تقولها بحق الأستاذ موسى تصل إليه.

إياس: إذن لم يرث الأستاذ من عمه إلا فضيلة التجسّس على الناس.

جنان: أنا أحذرك يا إياس لآخر مرة.

إيـــاس: عهدكِ الجديد يدّعي أنه يسمح بالنقد ولا يحاسب الناس على آرائها.

جـــنان: الـــنقد البناء يا أستاذ، لا النقد الهدام. الآراء السديدة يا أستاذ وليس المغرضة والقاصرة والمعوجة مثل آرائك.

وها هو إياس يقف ويخاطب ربيع: موسى نزهان غسل دماغ مديرة مكتبه الخاص عقبالك. ويخرج غاضباً. وها هو ربيع يزفر ويستعيد شجاره مع جنان: ماذا يمكن لإياس أن يقول مادام الأستاذ موسى رفض له طلب الإعانة على نفقات العلاج؟

جنان: لماذا لم تتدخّل؟

ربـــيع: لأن زوجتـــي أَوْلـــى. إياس صديقك وأنت لا تفارقين الأستاذ موسى.

جنان: ماذا تقصد؟

ربـــيع: أقصد أن الألسن بدأت تلوك سمعتك وسمعتي وسمعة الأستاذ موسى نفسه.

جـــنان: احفـــظ لســـانك أنت أيضاً يا ربيع. ابلعه. إياس غسل دماغك وإذا غضب عليك الأستاذ موسى فلن ينفعك أحد.

وهـــا هي تندفع إلى غرفة النوم وتصفق الباب خلفها. وربيع يقف أمام الأستاذ موسى الذي يخاطبه بمودة: أنت من رجال عمي المخلصـــين. وبيـــن رجال عمي من لا تعجبه إدارتي للمجمّع. إذا أردت أن تـــتابع معي فلا تقطع صلتك بهم. لا عمي يريد أن يفقد المجمّع أحداً من رجاله, ولا أنا. ولكن..

ولكـــن ربـــيع يرى شوهات الشاب الذي يخاطبه تكبر: رأسه تتضاءل، جذعه يطول، ابتسامته مغتصبة، صيوان أذنه اليمنى أو

صـــيوان أذنه اليسرى أكبر أو أصغر من صيوان أذنه اليمنى أو صـــيوان أذنـــه اليســـرى. وربيع يفرك عينيه وينظر في زجاج الســـيارة. هـــو أيضاً تكبر شوهاته: ليست أجفانه وحدها تتهدل. وجنـــتاه أيضاً, جلدة رقبته، وحنجرته تزداد بروزاً. فتحتا أنفه هو تضيقان, لا فتحتا أنف الأستاذ موسى. شعره هو يهجم على جبينه ويـــبدل لونه, لا شعر الأستاذ موسى. وهاهي شهلة تجفل وتهرب, وجنان تقهقه شامته, والسائق يصيح متفاخراً: سبقناهم يا أستاذ.

***

على الطريق إلى سد آفاميا B:

بحـــيرة سد آفاميا A لا تضبط الماء. فجوات كارسية ولا حل هندسياً لها, فما الحل؟

لمـــاذا اختارك الأستاذ موسى لأن تمثل المجمّع في هذا الفريق الذي ينتقل من سد آفاميا A إلى سد آفاميا B، وسينتقل من سدٍ إلى ســـد في طول البلاد وعرضها, فلا تعود قبل عشرين يوماً, وربما قـــبل شهر, كي تقدم تقريرك إلى الأستاذ موسى بينما يقدم الفريق تقريره للوزير؟

إذا كان الأستاذ موسى يريد أن يعرف واقع الحال في السدود, ففي المجمّع من هو أجدر منك بهذه المهمة. إذا كان يريد أن يخلو بجنان وأنت بعيد, فليبارك الله له بها وأنت قريب. وشهلة يا ربيع؟

شهلة تقترب غاضبة والأفق يزداد عكراً: لماذا تعاند يا حبيبي؟ هـــل تنـــتظر أن أقول لك كل مرة: مشتاقة وما عدت قادرة على

الانتظار؟ حبيبي أنا مشتاقة وأنت مشتاق. حبيبي سترى أني أقدر منك على الانتظار. لن أرافقك إلى بيت إياس. لا أريد أن أنتقل معك من بيت إلى بيت. أنت متعود على هذه الشرشحة ــ لا تكذب ــ أما أنا فلم أعرفها إلا على أيامك. لو لم يكن لي بيتي لعذرتك. في بيتي لا أشعر أني عابرة. في بيت إياس أنا وأنت عابران. أنا أقرأ في عينيك: البيت بيت هاني أيضاً. هاني ليس معقداً مثلك. يا حبيبي لي من الذكاء ما يكفي لأن أقدر شعورك بعد ليلتنا الأولى. أنت تقول لنفسك: لا يجوز أن أظهر أمام شهلة عاجزاً عن تدبير مكان أنام فيه معها. يا سلام عليك! هات البيت الذي يخصك وحدك وبعدها لن أقول لك: هذا بيتي أو بيت هاني. هات البيت لأشاركك فيه وأترك هاني وحده. هاني سيستقل ببيت عندما يتزوج وأظنه بدأ يمشي مع رحاب على هذه الطريق. غنيت لي يوم السيران: عين الحسود فيها عود، وغنيت لك كايدة العزّال أنا من يومي. ولكني أحلم بأن يجمعني بيت معك ومع سعيد. مالك جفلت؟ المستقبل حلم كما تفضلت يا حبيبي وقلت. الماضي والمستقبل يلتقيان في الحاضر والباقي مجهول, كما تفضلت وقلت يا حبيبي. أنا لا أنسى كلماتك ولا أنفاسك ولا حركاتك ولكن ما هو هذا الباقي المجهول يا ربيع؟

* * *

على الطريق إلى سد الباردة:

بحـــيرة سد آفاميا B مثل بحيرة سد آفاميا A لا تضبط الماء. فجوات كارسية لا حل هندسياً لها فما الحل؟

غـــيرك بـــنى هذا السد قبل ألف وثلاثماية سنة وأنت تتوه في الـــبادية بين سد الزكاكية وسد سليم وسد الولج وهذه السدّة و هذه الســـدّة, والطمـــي بلغ نصف هذا السد وربع هذه السدة، والحمار يعـــرف أن بناء سد جديد أوفر من تعزيله وحفر سدة جديدة أوفر مـــن تعـــزيلها، فاملأ صفحة جديدة من تقريرك ولا تبال إن ملأ الفـــريق الوزاري خمس صفحات من تقريره, وانتح بالموبايل في بســـاتين السخنة أو بساتين القريتين أو بساتين عين القصير حتى يأتـــي صوت شهلة صباحاً أو ظهراً أو في منتصف الليل: قضيت عصر اليوم في المريجانة. رأيت سعيد ما شاء الله صار بلبل. أم حســـام تـــزيد أوجاعها. إذا ماتت من سيربي سعيد؟ الحمد لله لم يحضر حسام هذه المرة. حماتي تدعو له أن يحظى ببنت الحلال. إذا تزوج وماتت أمه فلن أترك سعيد ليتربى على يد امرأة أخرى. اشتقت لك يا ربيع ولازلت أفكر بكلامك ليلة سفرك وأسأل نفسي وأسألك: ما هو هذا الباقي المجهول يا حبيبي؟

بين السدات والسدود والبساتين وحرّ النهار وبرد الليل عليكَ أن تجترح الجواب وتبدده، فالباقي المجهول قد يكون زواجاً جديداً أو أبـــوة جديـــدة، وأنت تحلم أيضاً أن تبدأ حياتك من جديد، وليست شـــهلة وحدهـــا. ولكـــن أين هي العلاقة الحرة يا شهلة؟ أين هي العلاقـــة الحرة يا إياس؟ أين هي العلاقة الحرة يا ونسة؟ وأنت يا رحاب: لماذا لا تسألين ولا تجيبين؟ وأنت يا هاني: لماذا لا تسأل ولا تجيب؟

كرمى لكَ سيعدّل واحد منهم أو واحدة ذات يوم قانون الأحوال المدنــية كــيلا يرعبك الزواج أو الطلاق, وكي تصدق أن العلاقة الحرة قائمة أو على الأقل يمكن أن تقوم بين الرجل والمرأة. ولكن إيــاس يســتطيع أن ينتظر ذلك اليوم, هاني أيضاً, ونسة, رحاب, وشــهلة, كلهم يستطيعون أن ينتظروا. أما أنت فالخمسين وراءك والســتين أمامك, وليس لك إلا أن تملأ صفحة جديدة من تقريرك, غــير مبال بأن يملأ الفريق الوزاري عشر صفحات, ثم تنتظر أن تلفظك البادية إلى الجزيرة, وأن يصيح السائق متفاخراً: سبقناهم يا أستاذ.

* * *

على الطريق إلى السد الجنوبي أو السد...

فــي صــدرك وحــدك تتوحد الأصوات منذ كانت الطائرات الأمريكــية والبريطانــية تشق السماء فوق رأسك ورؤوسهم لتدك بغداد دكاً, حتى ظهيرةِ هذا اليوم الذي هاج عجاجه, والشكوى هي الشــكوى: نهــر جرجب يفيض كل سنة مرتين أو ثلاثاً مثل نهر جغجــغ. نهــر زركان أيضاً. لكنك وحدك حوّلتَ نهر جغجغ إلى الســد الجنوبي فاحترقت بذور القطن المسمدة يا ما شاء الله! مياه وديــان جبل عبد العزيز ونهر زركان نفسه ونهر جرجب نفسه تتســابق إلــى السد وأنت تعاهد السد والسد يعاهدك على احتياط عشرين سنة قادمة عندما يمتلئ إن شاء الله.

ولكــن لا الســد وفى بالعهد ولا أنت وفيت والشكوى لازالت تــدك الفضـــاء دكاً, لكأنك حقاً من بنى السد الجنوبي أولاً أو السد الغربــي أولاً أو الســد الشرقي أولاً، أو لكأنك حقاً من حوّل إلى السدود واحداً واحداً كل هذه الأنهار والوديان واحداً واحداً, وأولاً, فمــن حفر إذن قناة الجر الرئيسية أولاً؟ ومن مدد شبكة تل هرمز ثانياً وشبكة المناجير ثالثاً وشبكة تل معاض رابعاً؟

حتى لا يحترق القطن حفرنا 120000 بئراً يا أستاذ. انخفض نبع الخابور ثلاثة أمتار وأنت: اردموا احفروا احفروا اردموا ومن حــدود تركــيا والعراق إلى البادية انتظروا حتى أعرف من أين تســتنزفون المـــاء الــزلال: من الطبقات الجوفية أم من الطبقات المتجددة يا ما شاء الله!

بوســع تقريــرك الذي ينتظره الأستاذ موسى أن يطوي إحدى عشــرة سنة من دكّ الطائرات لبغداد أو من دكّ الشكوى للفضاء, لتطوي أنت هذا القفر بين الشام والجزيرة، وترافق ــ بدلاً من هذا الفــريق الذي ينتظر الوزير تقريره ــ ذلك الفريق البلغاري الذي شارك المجمّع 21 في بناء السد: أي سد يا أستاذ ربيع؟

سيســألك الأســتاذ موســى وستقول له: اسأل عمك الذي قبل باشــتراط الــبلغار أن يكــون تمويــل ثلث العقد بالسعر الرسمي للــدولار, أي بثلــث ســعره الحقيقي في السوق, ثم عهدوا بالردم للمتعهديــن: المتر بعشرين ليرة, كما ستكتشف بنفسك. لكن العقد يحــدد ثلاثيــن ليرة عن كل متر من الردم, وأنت لازلت مشغولاً حــتى الــيوم بحساب ما ربح البلغار من الردم وحده, بينما يشكو الدكــتور عيسى: الوزير يخاطب البنك المركزي: استحق البلغار

14 مليون دولار، والبنك يقوم بالتحويل في اليوم نفسه, أما المجمّع فيطلب فقط عشرة آلاف دولار لتأمين قطع غيار التراكسات والشاحنات المعطلة, والبنك يجيب: ما عنّا عملة صعبة.

سعر رسمي للدولار وسعرغيررسمي شو يا ربيع؟ وعملة صعبة وعملة سهلة شو يا ربيع؟ سيسألك الاستاذ موسى ساخراً ممّا تخرف, فأنت مثل الدكتورعيسى من الماضي, والأستاذ موسى من المستقبل، وإن كان لا يسمح لك أو لأحد أن ينال من ذلك الماضي. ولأن اللغز يستعصي عليك, تتركه لإياس: يا أخي يا ربيع: بهذا اللغز يُرضي الأستاذ رجال عمه ويقطع الطريق على من يشككون بحقه في الإرث العظيم. بهذا اللغز يكون الأستاذ موسى محافظاً ومجدداً وتصير الحداثة مثل ما بعدها أو ما قبلها، ويصير إصلاح المجمع مثل تطويره، وتصير أنت ولست أنت تماماً مثل جنان الآن: هي هي وليست هي، والأستاذ موسى نفسه هو هو وليس هو, فلماذا يصيح السائق متفاخراً: سبقناهم يا أستاذ؟ سبقنا من يا ابن الحرام؟

* * *

أمام سد زيزون:

صباح من الصفاء يرف على وجه البحيرة, وعقد من المرجان يبرق فوق الجبال المقابلة، وربيع ينده شهلة.

شهلة ـ البحيرة وحدها مستلقية وعارية والعقد غاف على صدرها.

يركع ربيع بين حبب فخذيها مناشداً العقد أن يفسح له. يتمرغ العقــد على بطنها. يغار ربيع ويحمل على كتفيه ساقي شهلة ويلثم مناكداً العقد. تحمل شهلة العقد وتقبله وتوسده على وسادة ربيع في طـــرف السرير. يغفو العقد طفلاً قرب أمه مثل سعيد. تنزلق ساقا شـــهلة ويصحو الطفل ويصير ما شاء الله بلبل أو يصير عجوزاً مثل ربيع لا حول ولا قوة إلا بالله. تحنو كفا شهلة على ظهر من تحمل فوق بطنها وصدرها وتقبله وتوسده أنفاسها حتى يغفو مثل العقد, وقد انتهت المهمة وختم ربيع تقريره متسائلاً عن رصاصة الرحمة التي أطلقتها يوما ما أو ستطلقها يدٌ ما لإنسي أو جني على ســدٍّ مـــا, وربما يدُ القضاء والقدر. لكن الرصاصة ستكون قاتلة, وستقتل عاجلاً أم عاجلاً, على النقيض مما ختم به الفريق الوزاري تقريره: كل السدود تحت السيطرة على الرغم من علة صغيرة هنا أو علـــة كبيرة هناك. وربيع لشلاش ليس خبيراً في السدود حتى يُعـــتدّ بـــتقريره, بـــل عاشق فرّتْ منه شهلة خوفاً من رصاصة الـــرحمة, فأصابه الخبل ورمى وجه البحيرة بتقريره وأسرع إلى الشام.

10

الباب المغلق

منذ اختفى عنه سد زيزون حتى تراءت له دمشق، والصوت الرخيم يكرر: إنّ الاتصال بالرقم المطلوب غير ممكن حالياً. قد يكون الجهاز مقفلاً أو خارج التغطية. يرجى الاتصال لاحقاً.

مقابل مستشفى حرستا أفلح الاتصال اللاحق, وأكد ربيع لشهلة أنه قادم حتى لو كان هاني في البيت, فزغردت فرحتها بخروج هاني مبكراً إلى موعده مع رحاب. لكن صوت الأستاذ موسى كان مرابطاً عند الكراجات تماماً, كأنه مسافر فاته البولمان: تعال إلى مكتبي فوراً.

كان الصوت مثله عندما أمر ربيع بالمهمة: يجب أن نقوم بالتحري على السدود. غيرنا يفكر بالأمر أيضاً. أكثر من مئة وخمسين سداً كبيراً وصغيراً شيدتْ خلال أربعين سنة مضت. كم

واحـــداً بنى منها المجمّع؟ ليس هذا بالمهم. سد زيزون في خطر, وقد يكون غيره. نسيت أن جنان استدعيت للتحقيق؟ لم يكن سهلاً علـــيّ أن أضمّ ممثلاً للمجمّع في الفريق الوزاري الذي سيتحرى السـدود. وحدك من بين أعضاء الفريق لستَ من أساتذة الجامعة. عدد منهم من زملاء عمي وواحد منهم درس معي في أوكسفورد. أريـــد منك تقريراً مفصلاً ودقيقاً, ليس فقط من أجل أن نعرف ما هي عليه السدود, بل من أجل ما سنبنيه منها أيضاً.

***

كانت السماء تتلبد مثل صدر ربيع وهو يتجه إلى مكتب الأستاذ موســـى ويأمـــر السائق بالانتظار. وفي المكتب لبد خائفاً من أن تظهر جنان في أية لحظة. وتفاقم رهقه قبل أن يلتفت إليه الأستاذ موسى: هات ما عندك.

بضـــيق أخذ صوت ربيع يخفت ويعلو ويتقطع: مفيض غير جاهـــز ــ في أي سد؟ ــ وأشجار مغروسة في الحرم ــ حرم أي ســـد؟ ــ وتعديات البشر والحيوانات على الحرم ومجروفات هائلة إلى البحيرة ــ أية بحيرة؟ ــ وتشققات طولية في الجسم وتشققات عرضية وهبوطات و آثار الأمواج على الوجه الأمامي وتسربات على الوجه الخلفي ولا نقاط علاّم طوبوغرافية ولا مقاييس ضغط مائي وواحد وعشرون سداً معتلاً و..

وســـكت وقد حيّرته نظرات الأستاذ موسى: هل أقلقه ما سمع؟ هـــل ســـرّه؟ هل أزعجته طريقة ربيع في الكلام؟ لماذا ينظر إلى

ســاعته ويقف؟ وماذا يعني بقوله: استعد للسفر إلى طرابلس؟ ماذا يعني بقوله: كما أبرمت عقد السد هناك عليك أن تفسخه؟ ما شأن الحصــار على ليبيا بهذا المشروع يا أستاذ موسى؟ هاهو العراق محاصــر منذ عشر سنوات فهل توقف عن البناء؟ لماذا تريد أن تبعدني من جديد؟ أين جنان يا أستاذ موسى؟

وظل ربيع يتجرع تساؤلاته حتى قال الأستاذ موسى:

- الدكــتور عيســى يريد أن يراك. سنتعشى عنده. مدام جنان سبقتنا.

فصاح ربيع في أعماقه: شهلة تنتظر يا أستاذ, وتهدل مستسلماً.

* * *

وظــل يــتهدل مستسلماً من السيارة التي قادها الأستاذ موسى بنفســه إلــى عــناق جنان ــ كأن لم يفترقا متشاجرين ــ وبهجة سميحة وحرارة لونا ولا مبالاة سميح. وظهر الدكتور عيسى وقد غــدا كومة صغيرة من العظام والنتوءات تتكئ على ذراع الأستاذ موســى حــتى تعانق ربيع, ثم تتكئ عليه حتى تضيع في الكنبة, وبالكــاد تســمع أو تُبصر. لكن صوت الدكتور عيسى الآن أنقى وأقوى منه يوم أعلن توريث المجمّع للأستاذ موسى, وبخاصة حين ابتدأ يتباهى بالمجمّع الذي بناه مدماكاً فمدماكاً ومشروعاً فمشروعاً ويومــاً فــيوماً. أو حيــن أخذ يشكو عجز المؤسسات والشركات والجهــات العامة والخاصة عن وفاء ديون المجمّع, والمجمّع على المركــب نفســه يا ربيع. لذلك تفكر الكومة الصغيرة من العظام

والنتوءات جدياً بتجديد المجمع، وخوفها يكبر من أنْ ينهار كل ما بنته دفعة واحدة أو بالتقسيط, على الرغم من الأمل بالأستاذ موسى الذي اختفى هو وجنان وسميحة, بينما راح ربيع يتفرج بلا مبالاة مثل لونا على الأغنية التي تبثها قناة روتانا.

كانت عينا لونا تتلصصان على ربيع كلما التمع فخذان في الأغنية، فيتعامى ويعود إلى مرثية الدكتور عيسى للمجمّع أو لنفسه. وحين حضرت سميحة تجرأ فسألها عن جنان. وحين حضرت جنان لم يتجرأ على أن يسألها عن الأستاذ موسى, على الأقل كيلا يقاطع الدكتور عيسى الذي أصرّ على أن تجلس إلى يمينه وأقبل عليها: عندما فزنا بعقد المشفى الجامعي انتبهت إلى ميلك لربيع. كانت فرحتك أكبر من فرحته وأنت تهمسين له: العرض الذي تقدمنا به أقل من أقرب عرض بأربعماية مليون ليرة. سمعت همستك فنظرت إلى ربيع. كانت فرحته أكبر من فرحتك وهو يهمس لك: المهم أننا فزنا بالعقْد في مناقصة دولية. سمعت همسته ونظرت إليه وتأكدت مليون بالمليون: ربيع وجنان عاشقان.

ثم التفت إلى ربيع وتنهّد وقال متحسراً:

- أين هي تلك الأيام!

فنظر ربيع إليه مشفقاً, وأنكر سوء ظنه به وبجنان. ثم أغضى حين عبر به ظل من الشماتة, كأنه ينتقم لانتظار شهلة الآن.

ومع ظهور الأستاذ موسى بدأ العشاء وبدأت سميحة تناول الدكتور عيسى حبة فحبة من دوائه. ثم بدأت تناوله لقمة صغيرة فلقمة أصغر. ولما قررت شبعه, أخذ صوته يتهدج, كأنه يصل

حديثاً انقطع للتو: من أين كان لي أن أجمع ما جمعت من الخبرات والكوادر لو تقيدت بسقف الرواتب والأجور؟ من كان سيعطيني فوق طاقته لولا المكافآت التي أوزعها فتضاعف الرواتب والأجورمرة ومرتين, وعند الحاجة عشر مرات؟ إذا كان عليّ أن أستورد معدّات متطورة فلماذا لا أستورد؟ هل تذكر يا ربيع أول عقد لتأهيل الكوادر أبرمته أنت مع شركة زيغرز وحسين نوري رحمه الله؟ إذا كانت القرارت والمراسيم والقوانين تحول دون ما أريد أو تؤخره فلماذا لا أتركها لمن ينقعها ويشرب؟ في براكات التوتياء كنت أقول لربيع ولسالمة: من هذه البراكات سأشق طريقي إلى القرن الحادي والعشرين. كنت أحلم باسم لهذه الطريق فسمّيت المجمّع 21. ربيع: كنت تقول: هذه مغامرة يا دكتور. سالمة كانت تقول: هذه مغامرة يا دكتور. أما أنا فكنت أصنع قدوة لمن يريد أن يقتدي. كم كان عددنا في البداية؟ صرنا بالآلاف منذ سنوات. بدأنا بمطار صغير, بالشقق الرخيصة والأثاث الرخيص، وها هو المشفى الجامعي والأوتوستردات والجسور والسدود والملاعب, ولولا العراقيل لكانت لنا محطة معالجة المياه المالحة. ها نحن في ليبيا وغداً في... ربيع: أنت لست معنا.

تلجلج ربيع بالاعتذار عن شروده, وفكر في أن مرثية الدكتور لنفسه وللمجمّع قد انقلبت إلى دفاع أمام محقق أو محكمة. وأصغى لصوت في أعماقه يتعالى: الدولة التي راهنتَ على تحديثها بعلمك وعمرك ضاقت بك منذ سنوات يا دكتور. صار المجمّع دولة في بطن الدولة. والدولة فوق الجميع يا دكتور. أنت كنت تزداد قوة والدولة تزداد قوة. أنت بدأت تتطوح والدولة بدأت تتطوح. أنت

تضعف والدولة تضعف. أنت تقوى والدولة تضعف. وأخيراً أنت تضعف والدولة تقوى. أنت تتطوح والدولة تدفعك اليوم كما دفعتك قبل عشرين سنة. الدولة تدفعك إلى الأعلى والدولة تدفعك إلى الأسفل. وحدق ربيع في الأستاذ موسى فرآه يتهامس مع جنان. وفجأة حدقا فيه فبُهِتَ كأنما ضبطا ما كان يهجس به كلمة كلمة. لكنهما كانا يبتسمان ويعودان إلى الهمس وينظران إلى الدكتور عيسى ويبتسمان, كأنهما يكذّبان كل ما تفوّه به بعد ما كذّبا كل ما فكر به ربيع الذي صحا على نظرات لونا تتقافز بينه وبين راقص وراقصة شبه عاريين، وتهصرهما القبلة في أغنية, وكان الدكتور عيسى يقول: ربيع: أنت لست معنا.

* * *

ثم يتوكأ على ذراع سميحة. وما كاد يختفي حتى اختفى الأستاذ موسى دون وداع, فأسرع ربيع إلى الحمّام أكبر عزماً على أن يكون ما تبقى من الليل لشهلة. غير أن لونا نبقت في الممر تبتسم متواطئة: على ماذا يا ربيع؟

أغلق باب الحمّام خلفه وغوًى تتماثل له قرب لونا, فخالس المرآة نظرة مستنكرة وخائفة. وبعدما بال وغسل وجهه، خالس الموبايل نظرة لهفى وخجلى: لماذا يأتي صوتها إذن محايداً وحاسماً: أكمل سهرتك. تصبح على خير.

لم يكن الصوت غاضباً ولا معاتباً. لم يكن مشوقاً مثله قبالة مستشفى حرستا. كان فقط يخبر ربيع أن عودة هاني صارت

وشيكة, وأن شهلة أعدت العشاء, وانتظرت, وملّتْ, وهمّتْ مراراً بالاتصال به, وقلقت عليه, وتناولت العشاء وحدها, ويئست, ثم أمر الصوت محايداً وحاسماً:

- أكمل سهرتك. تصبح على خير.

وعاد ربيع إلى الصالون ممتقعاً. وتحاشى النظر إلى لونا التي وقفت خلف كرسي أمها. وفرح بنهوض جنان. ولكي لا يظلا متخاصمين, رأى نفسه يقول قبل أن تمرق سيارتها من البوابة الكبيرة لبيت الدكتور:

- مسكين الدكتور عيسى على هذه النهاية.

- خرّف.

قالت باستهانة وبتر. وفكّر ربيع بأنها لم تكن لها هذه القسوة أبداً, ولا هذا النكران. ولعلها قد أنجزت في غيابه تبدلاتها منذ ظهر الأستاذ موسى, فتظاهر بالنوم طوال الطريق, ثم رمى الكذبة التي فاجأته ولم تبال بها جنان:

- إياس يريدني حالاً. كلمني وأنا في الحمّام. إذا تأخرت سأنام عنده.

وأسرع إلى سيارته. لكن شهلة لم تفتح الباب, والكذبة انطلت على ربيع, لذلك قضى ليلته عند إياس.

القسم الثاني

الفصل الرابع: درج الليل

1 ـ مما روى إياس لونسة ليلة عودتها من هانوفر.

2 ـ القمر يلوح بعقد, ولكن ليس من المرجان.

1

مما روى إياس لونسة
ليلة عودتها من هانوفر

في مثل هذا اليوم تحل ذكرى وفاة أخي ورد. كرمى لأمي كان عليّ أن أذهب. ربيع يظن أن تجدد الاستدعاءات في المجمّع للتحقيق هو ما منعني من الذهاب. يوم السبت استدعوا مدام سالمة. أنا حرضتها على أن تمزق ورقة الاستدعاء مثلي. قلت لها: مرّ الأمر بسلام، لكنها سخرت من شجاعتي وقالت: توكلت على الله. وبعد ثلاث ساعات عادت معززة مكرمة, فقلت لجنان: وحدك استوطوا حيطك, وكان ربيع قد دعاها ودعاني إلى العشاء في الشيراتون لينهي خصامنا. يوم وصولكِ استدعوا الأستاذ بيدروس

والدكـــتور ســـامر عطوف. ولا أنكر أن ذلك أقلقني قليلاً مع أني كنت مشغولاً باستقبالك. بعد ثلاث ساعات عاد الرجلان ورأيتهما مهمومـيــن, ليس لأن أحداً أساء معاملتهما, بل لأن التحقيق معهما تعلـــق بمشروعات قام بها المجمّع ومشروعات لم يقم بها قبل أن يلـــتحقا بــــه, مثل المشفى الجامعي والجسر المعلق. مدام سالمة لم يســـألها أحـــد عن ذلك مع أنها التحقت بالمجمّع منذ كان براكات التوتياء.

وراء الأكمة ما وراءها كما يقال. من المحتمل أن يكون الأستاذ موسى قد تدخل حتى لا يسيء أحد معاملة موظفيه الكبار أو حتى يعـــادوا بسرعة. من المحتمل أن تكون هذه الاستدعاءات الجديدة لطمة له, كما كان استدعاء جنان لطمة للدكتور عيسى. وقد يكون ذلك كله من تدبير الأستاذ موسى, تمهيداً للتخلص من أركان عمّه. ولكـــن لو صح هذا الاحتمال لكان ربيع في رأس القائمة. لا تنسي أن جـــنان رئيسة المكتب الخاص ومقربة جداً من الأستاذ موسى، أي جـــنان تحمـــي ربيع على الرغم من أنهما تخاصما بعد عشاء الشيراتون بأيام قليلة. وقد يكون الأمر كله صراع مصالح ومراكز قـــوى داخـــل المجمّـــع وخارجـــه. ولازال إذن مـــن الممكن أن يستدعوني. ولكن ليس هذا ما منعني من الذهاب إلى إحياء ذكرى أخي ورد, وليس حضورك أيضاً. لن أذهب وحسب.

بصحبتك يا ونسة.

***

في رسائلك طلبت أن تعرفي كل شيء عني. ومن بداية السهرة وأنت تطلبين. خذي هذه الصورة. النقاط البيضاء التي ترينها على الشجرة هي حبات الثلج. أمي تتصدرنا حول القبر. هذا قبر ورد بعد ثلاثة أيام من دفنه. قبر عمي أنور لا يظهر في الصورة. أمي لا تزال تشكو صغر أسرتها وأنا يفزعني كم كبرت. هذا أنا وهذه أرملة ورد وهذان ولداه. هذا أخي ضرار الهارب وهذه خطيبته. هذه أختي المعنّسة رضاب. هذه أختي زينة وزوجها وهؤلاء الثلاثة أولادها. هذه الصورة المدججة زودتني بها أمي فلم أضع لها إطاراً ولا زجاجاً كما أوصتني.

تمّعني يا ونسة: وجه أمي وحده ليس حزيناً في الصورة كما كانت وهي تتصدرنا حول القبر صباح كل يوم بعد الدفن. الوجوه الأخرى جميعاً كنت أراها كل صباح لا مبالية أو ساهية، بل تكاد تبتسم. من أين جاءها كل هذا الحزن في الصورة؟ في الذكرى الأولى كان القبر قد صار ضريحاً مهيباً. لو رأيته لقلتِ هذا ضريح ولي من الأولياء أو واحد من الزعماء.

حتى الآن لا أستطيع أن أصدق ما صار عليه قبر الصورة. فوقه قامت قبة شاهقة تتدلع بزخارف آياتها ولونها المذهّب. قبر عمي أنور ظل بعيداً إلى اليسار, وخارج القبة, لكنه مرخّم وحوله حوش من الرخام. خلف القبة قامت قاعة كبيرة تصلح للعزاء وللصلاة وللحفلات ومسوّرة بالورود مثل القبة. عمي هو من اختار الموقع ليكون مقبرة خاصة بأسرتنا. قبر أبي في مقبرة المدينة، لم ولن يفكر أحد بنقله.

في الذكرى الأولى لغياب فقيدنا غصّت القاعة يا عزيزتي بمن جــاءوا ليشاركونا إحياء الذكرى. مواقف السيارات على رحابتها ضــاقت داخــل السور وخارج السور. أما ما لن تصدقيه فهو أن أحــداً لم يعد يذكر الموت, بل: الرحيل أو الغياب, حتى ظننت أن ورد في واحدة من سفراته وسيعود قريباً إن شاء الله. هل أكفر لو ظننــت أنه عصي على الموت، حتى لو أن الرصاص ثقّب رأسه وصدره وبطنه؟ اشربي يا ونسة اشربي.

* * *

بعــد هرب ضرار صار إحياء ذكرى ورد حفلاً عائلياً صغيراً تصــرّ علــيه أمــي. وضرار هو الذي بنى القبة والقاعة والسور الخارجــي والمســتودع وأحواض الورد والمناهل وبيت الحارس الذي ترك حراسة المقبرة بعد هرب ضرار بقليل.

ورد وضــرار أنجبتهما أمي من عمي. وأنا لم تكن لي علاقة بهما. التحقت بالجامعة وهما صغيران. ورد هو الأكبر وفي لندن كانــت دراســته لإدارة الأعمال. ضرار دخل الكلية البحرية بعد البكالوريا. كان يحلم أن يكون مثل ضباط المارينز لكنه خرج من الكلــية بعــد سنة. كان يقول: قرفت من هذه الصنعة. وأنا أقول: طــردوه، علــى الرغم من أن أحداً لا يصدق أن ضرار ابن أنور قمر الدين يمكن أن يُطرد, لا من الكلية البحرية ولا من غيرها.

أخذ ورد أخاه إلى لندن ليدرس في أي فرع يشاء. ولكن ضرار عاد بعد سنة لأنه قرف من لندن كما كان يقول. أعطاه عمي أنور

المال ليؤسس شركة لتأجير السيارات. يا عزيزتي أسطول من السيارات الحديثة. ثم أعطاه المال ليشارك بعض أصدقائه في تأسيس معمل للأدوية الزراعية. أصدقاء ضرار وأصدقاء ورد أيضاً من أبناء كبار التجار وأصحاب المناصب الرفيعة. كلهم من هذا الجيل الصاعد الذي أسميه المافيا الجديدة. ما رأيك بهذه التسمية؟

خلال سنوات قليلة صار ضرار نجماً في عالم المال والأعمال. صار له من يرافقه من المسلحين, يخدمونه ويحمونه والويل منهم لمن يقف في طريقه. ورد أيضاً كان له من يحرسه ويخدمه, ولكن رجاله لم يكونوا شرسين مثل رجال ضرار. وللحق: ورد نفسه لم يكن شرساً مثل ضرار.

ونسة: عندما كان أحدهم يسألني عن صلتي بورد قمر الدين أو بضرار قمر الدين كنت أنكر أية صلة. حتى في السجن أنكرت، وبين السجناء من قال: أنت حمار, ومن قال: أنت مزاود. وبينهم من قال: أنت معقد نفسياً وما تبرؤك من ورد وضرار إلا لأن عمك تزوج أمك وحرمك منها. طبعاً كلهم كانوا يشفقون عليّ, فكلمة واحدة من ورد أو من ضرار كانت تكفي للإفراج عني.

لم تكن أخوّتي لورد تخجلني مثل أخوّتي لضرار. وأظن أن صراعات ضرار الغامضة هي التي انتهت بورد نفسه إلى القتل. ورد أيضاً كانت له صراعاته ولكن على الناعم وعلى المكشوف كما سمعت من كثيرين. كان ورد يلجأ إلى القضاء أحياناً لحسم صراعاته مع شركاء أو مع زبائن. وغالباً ما كان يلجأ إلى علاقاته المتشعبة الوطيدة مع مسئولين ينصرونه على خصومه أو

يفرضـــون المصــــالحة إذا كـــان الخصم منهم أو ممن يدعمونهم. ضــــرار كـــان يفضل أن يحسم صراعاته بنفسه, أي برجاله وبمن يسخرهم لضرب خصومه. عمي أنور نفسه كان على يقين من أن ضــــرار قتل ابن الرياش وحرق بيت البدينة وغيره وغيره. مات عمـــي وهو خائف على ورد وغاضب على ضرار. بالنسبة لي لم أكلـــم ضــــرار بعدما سمعت أنه دفع أمي مرة وهو طالب ضابط فوقعت وانكسرت ساقها. حتى في موت عمي أنور وفي موت ورد لـــم أتـــبادل كلمة مع ضرار, أما ورد فكنا نتبادل كلمات قليلة إذا جمعتنا مناسبة. وهذا كله كان يعذب أمي. سنزورها يا ونسة معاً, وســـتفرح بـــك حتى لو عرفت أنك يزيدية وكردية، ولكن لابد أن تسأل نفسها حتى لا تسألني: شو ها لنصيب؟

بصحة نصيبي يا ونسة.

* * *

ورد كان يسكن هنا في الفيللاّت الغربية, ولكن لا أنا دخلت بيته ولا هـــو دخل بيتي. ضرار لم يكن له مقام محدد. أحياناً يبقى في بيروت شهوراً وأحياناً يبقى شهوراً في الفيللا التي بناها مقابل بيت أبيه. ورد أيضاً بنى فيللا، ولكن بعيداً عن الجميع, وسط المزرعة التي ظلت تكبر وتمتد حتى وصلت الجبل بالبحر.

عـــندما عاد ورد من لندن كان ضرار قد صار نجماً من نجوم البلد وغولاً من غيلان البلد. كان عمي يأمل أن يعود ورد بشهادة الدكـــتوراه لـــيدرّس فـــي الجامعة, وبعد سنوات يمكن أن يصير

وزيـــراً. لكـــن ورد سئم من لندن وعاد فقط بالماجستير. أظن أن زواجه هناك من عجوز أيرلندية وطلاقها بعد شهور هو السبب في عودتـــه المفاجئة. يُقال إن المرأة كانت أستاذة في الجامعة, ويُقال: كانــت صـــحفية على علاقة بالمخابرات. وورد لم يعد إلى لندن بعدما غادرها على الرغم من أنه كان دائم السفر إلى أوروبا وإلى أمريكا. ضرار أيضاً كان كثير السفر, وبعد مصرع ورد صار ضرار يتـــنقل بين شقته في بودابست وبين جناحه الخاص في أرقى أوتيلات باريس ونيويورك. ولكن إذا كان ورد قُتِلَ فلماذا هرب ضرار؟

لا تتركـــي خـــيالك يســـرح كما سرح خيالي حتى فكرت بأن ضرار يمكن أن يكون هو القاتل. ورد صار أيضاً نجماً من نجوم الـــبلد وحوتـــاً من حيتانه, ولكن على طريقته. أنا أظن أن السوق قتلته، لا فرق بين المافيا الجديدة أو المافيا القديمة, أو قولي: المافيا الشابة والمافيا العجوز.

كانـــت علاقـــات ورد فيما يُقال أقوى مع المافيا العجوز, على العكس من ضرار. وأنا أظن أنهما كانا متفاهمين على هذا التوزيع للأدوار أو كانا يستغلانه. كانت أعمال ورد في البداية تتركز على صناعة وتجارة الألبسة. كان بعيداً عن أعمال التهريب التي انخرط فيها ضرار بعدما أطلق أسطول السيارات الحديثة. فيما بعد التفت ورد إلى التجارة مع العراق عبر الأردن. ضرار أيضاً التفت إلى ذلـــك. وهناك من يقول إنهما كانا يتنافسان على هذه السوق, ولكن ربما كانا يتعاونان ويوزعان الأدوار.

قـــد يكـــون ســـر مصرع ورد وهرب ضرار في هذه السوق, فساحة اللعب كبرت واللاعبون كثروا واللعب صار خطيراً. صار

اللعب دولياً وصارت الساحة دولية واللاعبون صار منهم العراقي والأردني واللبناني والتركي والإيطالي.. اسألي ربيع فهو من كان يأتيني بالأخبار. اسألي الدكتور عيسى نزهان فهو من كانت الأخبار تأتي إليه, فيزود ربيع بها, وأحياناً يناولني منها جرعة. من ربيع علمت أن التحقيق في مصرع ورد قد أُقفل برضا جميع الأطراف. لا تسأليني من هي هذه الأطراف ولا تسألي ربيع. ومن الدكتور عيسى علمت أن طريق ورد وضرار إلى بغداد لم تكن فقط عبر الأردن, بل عبر تركيا أيضاً. ولم تكن محصورة بما يسمح به حصار العراق وقانون النفط مقابل الغذاء، بل ربما شملت مواداً ممنوعة. والمهم أن هذه التجارة ضاعفت ثروة وأهمية ورد كما ضاعفت علاقاته الخارجية وزادت صراعاته غموضاً وتعقيداً فانتهت به إلى القتل.

للأسف يختلط عليّ الأمر في ذكراه الآن كما اختلط عليّ في ذكراه الأولى. أنا لست حزيناً عليه ولا فرحاً. يمكن أن تقولي إني محايد منذ نقل إليّ الخبر زوج أختي زينة. لكني أخاف أن يفسّر أحدٌ حيادي بالشماتة. قد أكون شامتاً بضرار لأنه اضطر أن يهرب كالفأر. والعجيب أن مصالحه هنا لم تتضرر بعد هربه, كما يؤكد الدكتور عيسى. أنا لا أشمت بالموت يا ونسة. وفي ذكرى ورد الأولى لا أنكر أني شعرت ببعض الزهو. الأصح أني شعرت بالعجب العجاب, لكني خفت أن يفسر أحدٌ ذلك بالاستنكار.

لم يكن ورد يا عزيزتي زعيماً سياسياً ولا شيخ قبيلة ولا مطرباً مشهوراً ولا بطلاً رياضياً, فكيف اجتمع في ذكراه الأولى كل ذلك الحشد من البشر والسيارات؟

مـــن أين جاءت كل تلك الأكاليل والكاميرات التليفزيونية سواء في يوم دفنه أم في يوم ذكراه؟

هل كان هذا كله إكراماً لضرار أم للمرحوم؟

لماذا أنت واجمة؟

هل يذكركِ كلامي عن أخوتي بأخيك حسين؟

هل تفضلين أن أسكت؟

بصحة حسين.

***

كأنـــي أرى الآن المقـــرئ يفتـــتح الذكرى الأولى لورد بتلاوة طويلـــة حـــتى ظننت أنه يبارينا. كأني أرى الآن من توالوا على المنبر بالخطب والقصائد حتى ظننت أنهم يتبارون ويباروننا.

طول المباراة يا ونسة جعلني ألتصق بأمي فتدفأ جنبي وهوّمتُ مـــع أمي وعمي. وعندما احتضنتْ كف أمي كفّي ازددت تهويماً. وســـهوت عن الحفل عندما تغلغلت أصابعي بين أصابعها وعندما تنديت بعرق أصابعنا وكفينا, رغم أن القاعة مكيّفة.

كنـــت فـــي حلم يا ونسة وكانت أمي ترشقني بابتسامة محيرة. عمي كان يرشقني أيضاً بابتسامة غريبة. خفت من أن الابتسامتين تحوكان لي أمراً وهوّمتُ أبعد فرأيت عمي يلاقيني كعادته بشوشاً ورضـــياً. رأيـــته كما كان حتى مات يفتح لي تيليفون في الأعياد ويسألني عن صحتي وعما أقرأ أو أكتب. كنت أخاف دائماً من أن يعاتبني على ابتعادي عنه وعن أمي وأخوتي وأخواتي. كنت أخاف

دائماً من أن يطلب مني أن أعامل ورد أو ضرار معاملة الأخ لأخيه أو أن يطلب مني أن أتولى أي شأن من شئوون الأسرة. وكان خوفي الأكبر دائماً من أن يعرفني على حقيقتي أو أعرفه على حقيقته.

كنت أحلم إذن, ولذلك جفلت عندما سحبت أمي كفها من كفي ووقفتْ فوقفت، وإذا بالجميع قد وقفوا والابتسامات الصغيرة تزين بعضِ الوجوه مثل بقايا التأثر. ولما عادت كف أمي إلى كفي انقدتُ إليها وغلغلت أصابعي بين أصابعها ورأيت جنان ملتصقة بالدكتور عيسى. أحسست بالامتنان له وهو الذي حرص على أن يحضر هذا الحفل كما حضر التشييع. وأعترف أني استأت قليلاً من التصاقه بجنان، وتحاشيت النظر إلى ربيع.

كان عمي يا ونسة كتلة من التناقضات. وقد خطر لي وأنا أودع الدكتور عيسى في نهاية الحفل أنه هو أيضاً كتلة من التناقضات مثل عمي. كل واحد منهما محنك وصارم وجبار ومتكبر وسلس وودود وماكر وغامض ومحبوب وحقود وسخي ومنتقم وممثل وممقوت.

وأخيراً يا عزيزتي التصقت أمي بي بعدما كادت القاعة تخلو, وهمست تسألني عن عودتي إلى الشام فاقتربت من أذنها وتشممت رائحتها وقلت: عندما تسمحين لي بالعودة. ورغبت في أن أقبل شعرها, لكنها مشت بجلال من تقترب من الستين وبغواية من تقترب من العشرين.

* * *

أنت أيضاً تظنين أن علتي في عمي وفي أمي؟

طيـــب يا ونسة: أنت شفيتني من علة السجن فهل تشفينني من هـــذه العلة؟ عمي أنور هو شقيق أبي الأكبر والوحيد يا عزيزتي. وقد عزّز عمومته لي بزواجه من أمي بعد وفاة أبي بخمسة أو ستة أشهر, ولم أكن قد بلغت مبلغ الرجال.

في الشام وبعدما نأت بي الجامعة عن أسرتي, صارت تعذبني الشكوك في أن عمي هو من دبّر موت أبي, لا لتصير أمي وحدها له, بل لنصير له كلنا ومعنا ميراث كبير كان أبي قد راكمه خلال عمـــره القصير: 61 سنة. وبالمناسبة, حاول عمي أن يورثني ما قـــدّر أنه نصيبي من إرث أبي, وزاد فوقه كما قال من إرثه هو, ولكني عفت كل شيء لرضاب وزينة وأمي.

أنـــا مـــتأكد بعـــد هذا العمر أن عمي قد أعاد تشكيلي بقدر ما ســـمحت له السنوات القليلة التي عشتها تحت جناحه. وأول خطوة كانت القراءة وتلخيص ما أقرأ سواء كان جريدة أو مجلة أو رواية أو كتاب في الفلك. أرأيت لماذا لخّصت ما لخّصت في هذا الدفتر عـــن اليزيدية؟ لا لا. ليس فقط بحكم العادة. بل من أجل ونسة يا ونسة.

الخطـــوة الثانية كانت الحفظ. كان عمي يعتقد أن الحفظ يقوي الذاكرة. وهذا أيضاً ما كان أبي يلزمني به في حدود القرآن الكريم والشعر القديم دون أن يحتج بتقوية الذاكرة. أرأيت لماذا حفظت ما حفظت من كتاب الجلوة ومن مصحف رش حتى لو كنت تقولين: كتبنا في قلوبنا؟ ولكن لا لا. لم أحفظ فقط بحكم العادة, بل من أجل ونسة يا ونسة.

آه كـــم أرهقنـــي الحفظ يا عزيزتي. ولكن آه أيضاً كم أفادني عـــندما بـــدأت أخـــالط المثقفيـــن. أنا متأكد من أن هذه المخالطة والجامعة قبلها والعيش في الشام بعدها والسجن بشكل خاص, كل ذلـــك قـــد خلخل فيّ ما ورثته من عمي. وبالمقابل سمح له الزمن الطويل أن يعيد تشكيل أمي وزينة ورضاب على هواه.

لا أدري إذا كان لذلك دور في شكي بأنه دبّر ميتة أبي تسميماً مـــثلاً أو تفقـــيعاً. فأبـــي كان يشكو من أكثر من علة في سنواته الأخيرة. كان يصيبه دوار مفاجئ أو نهم مفاجئ للطعام والشراب وربما لملذات أخرى, ثم يرتمي في الفراش يومين أو ثلاثة وأحياناً شهراً بطوله. وأظن أن قلقه عليّ وعلى زينة ورضاب كان يتزايد مثل خوفه من عمي. أما أمي فلا زلت أشك في أنه كان قلقاً عليها. والغريب هو أنه عندما نام نومته الأخيرة كان معافى ومبتهجاً كما لم أره طول عمري. ولا أدري إذا كان لذلك دور في شكي بجريمة.

ونسة: هل ترينني حقاً عاقاً أو معقداً لأنني شككت بدور لأمي نفسها في الجريمة؟ أنت لا تعرفين ما كان يتردد عن عشقها لعمي قـــبل أن يـــنخرط في الجيش ويترك عاشقته ومعشوقته لواحد من عشاقها الكثر, أي لأبي.

كـــان أبـــي يحمل البكالوريا التي سبقه إليها عمي. وعمي كان يجـــيد الفرنســـية قراءة وكتابة عكس أبي. وبعدما خاب أمل عمي بمن صار من أقرانه من المسئولين الكبار, ترك الجيش, ولكنه أفاد من علاقاته بأقرانه كثيراً.

ســـنة بعد سنة يا عزيزتي نسيت أختي زينة التي تزوجت من مقـــاول كبير وتعيش معه في حلب. نسيت رضاب التي تصغرني

بسنة ولم تتزوج, لكنها تتنقل من عاصمة إلى عاصمة بعد أن منّ عليها نفوذ ورد أو ضرار أو عمي نفسه بنعمة العمل الديبلوماسي. وبالطبع نسيت ورد وضرار وعمي نفسه ولكن هو لم ينسني. أمي وحدها يا ونسة لم أستطع أن أنساها.

أحـــياناً كانت تأتيني في المنام. كأني أراها الآن يا ونسة: قامة باسقة وصدر ممتلئ. بطن يكذّب من يقول إنه أنجب خمس مرات. حوض واسع وفخذان صلبان وقدمان كبيرتان وواثقتان وناعمتان. أصـــابع قدمـــيها مثل أصابع يديها طويلة ومتناسقة وشعرها دائماً يـــزهو بالحـــناء ويسرح دلالاً على كتفيها. لم أجرؤ على أن أملأ عيني من وجه أمي بعد ما تزوجت عمي. لذلك أظن لم يكن لي إلا المـــنام حـــتى أتلمـــس الخدين الصافيين وأحدق جائعاً وعيناي لا تشبعان من أنفها وجبينها وعينيها العسليتين وشفتها السفلى الرابية وذقنها المدورة التي تحمل أثر جرح لا يبلى.

كنا نتعانق في المنام. لا تشهقي ولا تكتمي دهشتك. كان عناقنا يطـــول, فأنـــا لـــم أعانقها بعدما تزوجت من عمي. كانت أنفاسنا تمـــتزج. ومـــن منام إلى منام صرت أتجرأ على أن أقبل شعرها وخدهـــا وصار عمي يداهمنا كلما اقتربت شفتاها من خدي فتبتعد وأبـــتعد. أحـــياناً كـــان يظهر أبي نفسه في المنام فألتصق بأمي وتلتصق بي, ولكن كان عمي يدفع أبي ويدفعني ويأخذ أمي بعيداً بعيداً وأنا لا أتركهما يغيبان عن عيني. أنت تعرفين ما يمكن بعد ذلك أن يرى مثلي في مثل هذا المنام الذي كان لا يكاد يغيب عني ليلة في السجن.

ونســـة: لا تقلقي. ما عاد مثل هذا المنام يأتيني بعد موت عمي إلا نــــادراً. ومنذ عزيتك بحسين ما عدت أرى في اليقظة ولا في المنام غيرك.

2

القمــر يلـوّح بعقـد، ولكن ليس من المرجان

تحــت المظلـــة التي شكلتها الدالية على السطح, جلست شهلة تـــتأمل حقول القطن والشوندر المنداحة بين الجبال والسد, تتخللها بقع كبيرة من السنابل الشقراء.

خلف البيت كانت تقطّع السكون كل حين سيارة أو تراكتور أو دراجـــة ناريـــة, فتلتفـــت شهلة وتدع نظراتها تكرج بين الساقية الموازية للطريق والخيام المتناثرة والبيوت الخفيضة.

ورويـــداً أخـــذ يغـــادر شهلة ما شُبِّه لها بين هذا الفضاء وبين عروس الغوطة، أو بينه وبين ما ترى من الغوطة كلما تسنى لها مـــثل هذه الجلسة على شرفة البيت في جرمانا. وحين سطع القمر بحمرته النارية خلف الجبال, تلوّى حنين غامض في أعماقها: إلى من يا شهلة؟ إلى سعيد الذي يلبد الآن في حضن أمك أو في حضن

أسـماء؟ أم إلى ربيع الذي لازال وجهه يباغتك في أي وقت وفي أي مكان, حزيناً مرة وقاسياً مرة وكتلة من البله مرة: لماذا يا ربيع؟ لماذا يا شهلة؟

أخـذ القمر يجري نحوها قلقاً, والجبال خلفه تتورس، فتبسمت: لا علـيك، أنـا بخير. وتمنت لو أن الأضواء الوانية بين البيوت والخيام وعلى الطريق تختفي, ليكون لها القمر وتكون له, وحيدين, بلا الوحشة التي تداهمها في أي وقت, وفي أي مكان, منذ نأت عن ربيع ونأى.

بعـد ردح أطول من غمضة عين جاءت رحاب وجلست قبالة شـهلة، كأنهـا سؤالها الذي ينتظر منذ شهور. وتطلعت شهلة إلى القمـر مستنجدة, فبدا أنه يتباطأ ويلوي بطريقه عنها, فعادت إلى رحاب هامسة:

- أين هاني؟

قالت رحاب:

- يلعب المنقلة مع أبي. وأنتِ؟

أومأت شهلة إلى القمر:

- هناك.

- مع من؟

سألت رحاب, فتمنت شهلة لو أنها تبدل سؤالها، وهمست:

- مع ربيع.

- ماذا جرى يا شهلة؟

انفلت من رحاب السؤال الذي سئم الانتظار, فابتسمت له شهلة لأول مرة, كأنها تعتذر عن صدّه كل مرة, وقالت:

- جاءنـــي ربيع إلى السوق الحرة منشرحاً. ظننت أنه مسافر وعاتبـــته لأنه لم يخبرني من قبل. لم يكن وجهه مكدّراً كعادته في لقاءاتـــنا الأخـــيرة. حـــدق في عنقي وقال إنه غير مسافر. قلقت ودعوته إلى فنجان قهوة في كافتيريا الترانزيت. قال إنه يفضل أن نكون واقفين في المكان نفسه في النهاية, كما كنا في البداية. أظن أني ضحكت وقلت له: رومانسية سخيفة. رجاني أن نبقى أصدقاء فقلت: طبعاً سنبقى أصدقاء, واختفى. نزعت العقد ورميته به ولكنه كان قد اختفى. التقط زبون العقد وأعاده إلي وتحلق حولي زملاء وزمـــيلات وبكيـــت. وضعت العقد في حقيبتي وأحسست أن قلبي ينخلع من صدري وبكيت.

قالت رحاب كأنها لم تسمع كلمة:

- ماذا جرى يا شهلة؟

مسحت شهلة دمعتها, وتطلعت إلى القمر مستنجدة, فأشفق عليها وروى لـــرحاب أن شهلة أخذت تتوتر منذ زادت أوجاع أم حسام. لـــم تعد العجوز التي طال احتضارها قادرة على تربية سعيد, ولم تعـــد شهلة نضرة ولا وثابة كما عرفها ربيع. هي تشكو همّ سعيد لـــه, وهو يواسي مرة ويبدو محايداً مرة ويقترح مرة أن تفاوض حسام على المجيء بسعيد إلى .. إلى أين؟

وروى القمـــر أن حسام كان يتعجل موت أمه, ووضع ابنه في بيـــت عمه. وصار سعيد يذبل بينما حسام يتعجل الزواج لأن ابن عمـــه يـــؤدي الخدمـــة الإلزامية, ولم يعد لحسام من يركبه خلف التراكتور أو في أي مكمن في المزرعة, مادامت شهلة لن تضبطه, ومادامت حماتها فقدت السمع والبصر. وقالت رحاب:

- هذا كله أعرفه. أنا أسالك عما جرى يا شهلة.

نظرت شهلة إلى القمر تحضّه على أن يجيب، فبدا يستنجد بها, فقالت:

- كنت في عملي عندما جاء حسام حاملاً سعيد وموت أمه. قالت أمي: إنهم ترحّموا جميعاً عليها وإن حسام تساءل: من سيربي سعيد؟ قالت أسماء: أنا, فصاح أبي: اخرسي. قالت أمي: أنا, فصاح أبي: أبوه وأمه أَوْلى به. صاحت أمي: أنت أب؟ كأنك بلا قلب. وعاد حسام بسعيد وأسرعت أمي إلى الهاتف: الحقي ابنك يا شهلة. استأذنت من المدير الذي نبهني إلى أن إجازاتي تكثر وأخطائي تكثر, وسمح لي بالخروج. ذهبت إلى المزرعة ورأيت حسام كسيراً. صدقت أن الموت يبدل بواحدنا ولو مؤقتاً أو قليلاً. قال حسام: أنت يا بنت الناس في وظيفتك وتسكنين وحدك. لن تستطيعي أن تربي سعيد. قلت: الروضة قريبة من بيتي. اطمئن. قال: أريد أن أراه بين وقت وآخر كما كنت ترينه هنا. قلت طبعاً ستراه.

وأخذ صوت شهلة ينوس مشوشاً وتَعِباً مثلها وهي تلهث بين مديرها الذي لم يعد يرحم وسعيد الذي لا يرحم وربيع الذي لا يرحم وحسام الذي صار يطرق باب شهلة فجأة أو يذهب إلى الروضة فجأة, كأن الموت بدّلهْ إلى أسوأ: أريد أن أرى ابني. يا حسام تعال بعد عودتي من العمل. تعال بعد عودة سعيد من الروضة. تعال يوم الجمعة وامض النهار كله مع ابنك. لكن حسام سيشاجر مديرة الروضة, وسيشاجر شهلة حين يصادف ربيع يلاعب سعيد, وسعيد صار يبكي عندما يصادف أباه, وأسماء لم

تعـــد قـــادرة على أن تساعد شهلة منذ اقتربت الامتحانات, وهانـي منشغل برحاب, وربيع ينادي: مهرجان الأفلام العالمية يا شهلة. لا أســـتطيع يا ربيع. فيلم شارع الملذات يا شهلة. فيلم كلودغوريتا: حائكة الدانتيلا. لا أستطيع يا ربيع. إياس في مهمة وبيته لنا وحدنا اليوم وبكرة. أمرك يا ربيع. لكن شهلة لا تستطيع أن تسرق غير ســـاعة فـــي الـــيوم الأول, يتناهش فيها الجسدان كأنهما في سباق وحشـــي. وفي اليوم الثاني تصير الساعة ساعتين, لكن شهلة تئنّ، وربـــيع يتـــبرم حـــتى ينفد صبره, فيغلظ صوته لأول مرة: كأنك تتهربيـــن منـــي, فيغلظ صوت شهلة لأول مرة وهي تفتح ساقيها: تفضّل.

إثـــر ذلك سينطوي ربيع على الرغم من أنه سيعتذر لشهلة عن ذنب ما، وستعتذر له عن ذنب أكبر, ولن يلح عليها نداؤه من بعد, ولـــن تكون الشكاءة البكاءة كما نعتها وهو يدير وجهه عن ساقيها المفتوحتين على سرير إياس.

وإثر ذلك جاء صوت هاني من أسفل الدرج:

- شو يا رحاب؟ أبوك نام وأنا وحدي.

فوقفـــت رحـــاب, وحين استطاعت شهلة أن تقف نظرت إلى القمر, فإذا به يلوّح بعقد، ولكن ليس من المرجان.

الفصل الخامس: درج النهار

1 ــ يتهيأ لكون.

2 ــ وجوه البحيرة.

3 ــ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور.

1

يتهالكون

على ربيع أن يصدق أنّ الأستاذ موسى قد أمر بتصفية فرعٍ المجمّع في الجزيرة، وأن لا فرق بين أن يكون ذلك تقليصاً للمجمّع ورضوخاً للواقع ـ يقول الأستاذ بيدروس ـ أو الخطوة الأولى الصغيرة نحو تصفيته ـ تقول مدام سالمة ـ أو استعداداً لانطلاقةٍ مدوّية ـ من يقول؟ ـ أو بشرى بالخصخصة: يؤكد إياس وتؤكد رغيدة التي حلّت محل معتصم مديرة للمكتب الإعلامي.

وقد يكون في ذلك سرّ الخواء الأصم الذي أحس ربيع أنه يكبر فيه. وقد يكون السر في أن شهلة نفدت من مسامه، وبات قادراً على أن يملأ صدره بالهواء المشبع برطوبة النهر، ويتفرج بحياد على الخواء الذي ابتدأ ـ ربما ـ في الجوف أو في الصدر، ثم تسلل إلى الرأس، وإذا بربيع بالغ الخفة، مثل ريشة وحيدة يلاعبها

هـــواء الصــــباح وهـــو يقود السيارة إلى المجمّع، ويرى المدينة تضـــاعفُ صخبها ووسخها كأنها تتبرأ من نفسها وتدعوه إلى أن يتبرأ مـــن نفسه ومنها، فيفعل وينظر إلى وجهه في المرآة: سيعجز صالون مرمـــر عن كل هذا الهلاك، وسيحمل كل هذا الهلاك إلى لقاء الوزير في تمام الساعة العاشرة بصحبة الدكتور عيسى والدكتور باسل.

وعلــــى ربـــيع إذن أن يصـــدق أن الدكتور عيسى قد أفاق من غيبوبـــته، ووقف على ساقيه، واعترض على ما يأمر به الأستاذ موسى ــ جنان وحدها تعرف حقيقة ما يشاع ــ وصار يحضر كل صـــباح ســـاعة أو ســـاعتين إلى مكتب الأستاذ موسى ــ لم يعد للدكتور عيسى مكتب في المجمع ــ وسوف يقابل الوزير في تمام الساعة العاشرة مصحوباً بنائبه وليس بالأستاذ موسى ــ هذا مفهوم أو طبيعي ــ وبربيع: لماذا؟ ألأنك وحدك من تبقى له من رجاله؟ ولكـــن من يروّج هذه السبّة؟ أم لأن عليك أن تكون ذراع الدكتور عيسى ما دامت جنان ذراع الأستاذ موسى؟ ماذا ينتظرك إذن بعد أن ينفرد تماماً بالمجمّع وبجنان؟

* * *

بعدما انسربوا من مكتب الوزير إلى قاعة هائلة تتوسطها طاولة هائلـــة، تنـــبه ربـــيع إلى أن آخرين قد سبقوا وسوّروا ضلعاً من الطاولـــة. وطال انتظار ربيع قبل أن يفرغ الوزير من أولاء، ثم يخاطب الدكتور باسل وهم ينصرفون:

– كم أنجزتم من تصفية فرع المجمّع في الجزيرة؟

قال الدكتور باسل بلهجة متواطئة:

- ليس أكثر من عشرين بالمائة.

- إذن سنحتاج إلى أربعة أشهر أو خمسة.

قال الوزير باستياء، ثم التفت إلى الدكتور عيسى وقال متهكماً:

- بهذه الحسبة سيحتاج تجديد المجمع إلى عشرين سنة.

قال الدكتور عيسى:

- العجلة من الشيطان. وفي العجلة الندامة.

عاد الوزير إلى الدكتور باسل وقال بلهجة متواطئة:

- الأستاذ موسى يعرف جيداً أن هذه الخطوات البطيئة والمترددة لن تصلح شيئاً.

أخرج الدكتور باسل من جيبه ثلاث علب وقدم أكبرها للوزير قائلاً:

- قبل أن تبدأوا بالجد اسمح لي سيادتك أن أقدم لك هذه الهدية المتواضعة.

قلّب الوزير العلبة ثم قهقه عالياً، والدكتور باسل يبتسم ويقول:

- الفياغرا السورية يا سيدي غزت السوق المصرية.

قهقه الوزير من جديد، وبدا يتصابى وهو يباهي بالفايرز: غير شي يا دكتور باسل، غير الفياغرا التركية وغير هالبضاعة. وقدم الدكتور باسل العلبة الصغرى:

- سيدي جرّبت الغارانا؟ طلبتها من لندن. قرص واحد يكفي من المساء للصباح.

ثم قدم العلبة الثالثة قائلاً:

- خلّ الطباخ يبحبح يده بالزعفران.

- بضاعتك كلها قديمة يا دكتور باسل.

قال الوزيرٍ وهو يروز العلب الثلاث، ثم يدفع بها إلى الدكتور عيسى متسائلاً:

- يا ترى الدكتور عيسى شو بيفضّل؟

- أفضّل أن نؤجل هذا المزاح وننتقل إلى الجد.

قال الدكتور عيسى كاتماً حنقه، فقال الوزير مقطباً:

- الجـدّ يا دكتور أننا اكتشفنا مخالفات فنية عندكم في مشروع المحطة الحرارية.

- مثل ماذا؟

سبق ربيع إلى السؤال غير مصدق، فقال الوزير بازدراء:

- مـثل المخالفـات التي اكتشفناها في عقد السد الذي أبرمته حضرتك مع الليبيين.

وأسرع الدكتور باسل متزلفاً:

- سيادتك ذكرت مخالفات في مشروع المحطة. مثل ماذا؟

- مثل المرجل.

- بسيطة. نصحح المخالفة.

وقال الدكتور عيسى بسخرية:

- إذا كانت المخالفة موجودة.

وقال الدكتور باسل:

- موجودة أو غير موجودة. يا سيدي نبدل المرجل كله.

أقبل الوزير على الدكتور عيسى وهمس:

- المجمعٍ سينفذ المشروع بالقرض اليوغسلافي، ولكن اليابان قدمت عرضاً مغرياً. الأستاذ موسى يعرف وأنت أظنك سمعت.

انتفض الدكتور عيسى قائلاً:

- لا لم أسمع.

قال الوزير ممازحاً:

- أيـــن هو الدكتور عيسى نزهان الذي كان يسمع دبيب النملة من مكتبي هذا إلى أصغر مكتب في الدولة!

- تقصـــد إلى أكبر مكتب في الدولة. ولكن هل يعقل أن يكون في مكتبك وكر للنمل؟

- في كل مكتب وكر للنمل أو أكثر، وأنت سيد العرافين.

- المهــم: عرضنا فاز بالمحطة الحرارية ولا يمكن أن يعطى لغيرنا. هذه عقود وتوقيعات ومسئوليات وليست لعبة بين أيدي الأولاد.

- لا أحد يلعب يا دكتور. قرار فسخ العقد مع المجمع 21 في الطريق إلى مكتب الأستاذ موسى.

قـــال الوزيـــر بحزم، وتعلقت العيون بالدكتور عيسى الذي بدا محاصراً. وطال الصمت حتى همس كأنه يندب:

- تركـــت المجمّـــع والمفاوضـــات تتقدم للتعاقد على محطات كهربائـــية في أكثر من بلد. إذا خسرنا عقد المحطة الحرارية هنا سيضعف موقفنا هناك. على موسى أن يتصرف فوراً.

قال الوزير بحزم:

- هذا الموضوع انتهى. غيره.

- لكن المفاوضات مع اليابانيين لم تنته.

قـــال الدكـــتور عيســـى كأنه يضرب ضربته الأخيرة. فابتسم الوزير قائلاً:

- إذن أنت كنت تعلم بها رغم تكتّم الوزارة ورغم مرضك.

- وأنـــت تعلم أني كنت أعلم. لماذا لا تؤجلوا فسخ عقدنا حتى نهايـــة المفاوضات مع اليابانين؟ يا أخي استخدموه كورقة ضغط لتحسين موقفكم.

- قلبه علينا.

قال الوزير غامزاً الدكتور باسل:

- قلبي على المجمّع. قلبي على الوطن. أين أنت يا موسى؟

قال الدكتور عيسى مستسلماً، فتساءل ربيع:

- واليوغسلاف؟

- نرضيهم فيما بعد.

قال الوزير وهو يرمي الدكتور عيسى بنظرة ملتبسة.

- لماذا لا نرضيهم الآن ونستفيد من قرضهم في مجال آخر؟

سأل ربيع، فهز الوزير رأسه معجباً، وخاطب الدكتور باسل وهو يداعب علبة الفياغرا:

- يظهر أن ربيع بحاجة لهذه العلبة، ولذلك لم يفلح في طرابلس.

وقهقه بينما علا صوت ربيع:

- أنا والحمد لله تمام التمام.

فقطّب الوزير غاضباً وأمره بالخروج. لكن ربيع تلكأ في الوقوف وهو ينقّل نظراته بين الدكتور عيسى والوزير والدكتور باسل، مكذّباً عينيه، إذ بدت لكل منهم لحية رقيقة وحاجبان أرقّ، وأسرعت أصابعه إلى ذقنه وحاجبيه خوف أن يكون هو أيضاً صار أضرط مثل أي منهم، وكان الدكتور عيسى يحاول الوقوف، لكنه تهاوى فجأة على الكنبة، وشهق الوزير، وشهق الدكتور باسل، ولبث ربيع واقفاً يتفرج عليهم، كأنه يتفرج على رابع لهم اسمه أيضاً: ربيع لشلاش.

2

وجوه البحيرة

بدوا غرباء عمن حولهم وهم ينطلقون من البيت نحو السد: فتاتان يضيق بكل منهما بنطال الجينز، وشاب يتوسطهما.

وهم يعبرون الجسر الضيق فوق الساقية، تابعت رحاب:

- بعد عودة أبي صاروا ينادونني بنت المصروع. وعندما بصقت في وجه أحدهم وشتمته سموني المصروعة بنت المصروع، ولكن لم يجرؤ واحد منهم على أن يلفظ الاسم أمامي. أثناء اختفاء أبي ما كنت أسمع منهم إلا: يا بنتي يا رحاب. يا أختي يا رحاب.

قالت شهلة:

- مصروعة ووشّيشة! حظلك يفلق الصخر يا هاني.

قال هاني:

- أنتِ السبب.

قالت شهلة:

- عندما قدمتك لها كانت أفضل مروِّجة في صالون مرمر.

ثم وشوشت رحاب:

- كنت بالحجاب أحلى.

أفسحت رحاب خطواتها احتجاجاً، ولحق بها هاني مسترضياً. وتباطأت شهلة خلفهما حتى وقفا بموازاة الخيام، فرأت قبلة تحوّم فوق الرأسين اللذين يكادان يتلاصقان، كأنهما في وقفة الأمس عصراً أمام الشيخ الذي قرأ الفاتحة وأعلن خطوبتهما, فبكى محمود نجا الذي لقبته القرية بعد ظهوره بالمصروع. لكن شهلة سحجت بزغرودة قصيرة, فسحجت والدة رحاب بزغرودة أقصر.

* * *

بين الخيام بدوا أكبر غربة فساروا صامتين حتى توسطوا الفسحة الفاصلة بين البيوت والخيام: زيزون.

صاح هاني وسار في المقدمة إلى الأثر الوحيد الباقي لذويك يا شهلة: قبر خالك هاني: الفاتحة.

أمر هاني . وبعد الفاتحة أشارت رحاب إلى البيوت المتكومة يسار السد, وهتفت:

- هذه ضيعة أمي: التلّة.

- اسم على مسمّى!

قال هاني مصطنعاً الإعجاب فكشرت رحاب احتجاجاً. ونظرت شـــهلة إلى بوابة السد القريبة: فم هائل مطبق لوحش هائل يتوعد, ورحـــاب وهانـــي يتقدمان نحوه قليلاً, ثم يلتفان حول جدار السد, فتسأل شهلة: إلى أين؟

تشـــير رحـــاب إلـــى حيث يمكن لهم أن يصعدوا إلى الطريق المســـوّرة للبحيرة, مقابل التلّة. لكن شهلة تتقدم بثبات نحو البوابة, تحيي الرجلين اللذين يشربان الشاي، وتلجمهما الدهشة وهما يريان هـــذه الفتاة التي تلبس البنطال تتسلق الجدار. وحين يتجرآن على تحذيـــرها تكـــون قد توسطته. وحين يكتشفان أنهما ارتكبا مخالفة ويصـــيحان: ممنوع يا بنت الحلال, تكون قد بلغت أعلى الجدار, وتكون الصيحة قد أوقفت هاني ورحاب.

* * *

علـــى الطريق المسوَّرة للبحيرة وقفت ولوّحتْ للرجلين اللذين عـــادا إلـــى الشاي. ثم لوّحتْ لرحاب وهاني اللذين لازالت القبلة تحوّم فوقهما على الرغم من أن رأسيهما متباعدان.

أســـندت شـــهلة ظهرها إلى حافة السد وأخذت نظراتها تتطاير حتى التقطت الطريق والسيارات والساقية, ولكن أية واحدة من تلك العرائش هي عريشة رحاب؟

أقرب فأقرب كانت أسطحة البيوت عارية مثل الخيام: زيزون اللابدة في الأسفل الشاهق أمام الفم المطبق الهائل للوحش المتوعد

الهائل. واعترت شهلة القشعريرة فاستدارت إلى البحيرة، وأسندت صدرها على الحافة.

بضحكة تترقرق لاقاها وجه البحيرة. وسرعان ما صار وجهَ رحاب مظللاً بعريشة وقمرٍ يتقد بحمرته النارية. وأخذت رحاب تروي للقمر، وأخذ القمر يروي لها، وشهلة تكاد تغفو كأنها سعيد في حضن جدته أو في حضن أسماء: كان يا ما كان، كان فيه بنت اسمها رحاب محمود نجا، حلوة وعفريتة، تتابع أصوات وحركات الشبان الذين يعجّ بهم الكراج كلما سافرت إلى الشام أو عادت من الشام: راكب على حمص، ع اللاذقية هلّق ماشي، هات الشنطة يا أستاذ، هاتي عنّك يا مدموزيل. وفي يوم من الأيام رأت رحاب شابة في مثل عمرها تخطف منها الحقيبة: لوين مسافرة يا أختي؟

سألت رحاب الشابة: إنتِ عتّالة؟ قالت الشابة: قولي: وشّيشة. شو يعني وشّيشة؟ يعنَي بلاقيلكْ وبحملْ شنطتكْ وباخدك ع المكتب، بتقطعي بطاقة السفر وبتعطيني كم ليرة والمكتب بيعطيني كم ليرة.

قالت رحاب: بسّ هدي شغلة الشباب.

وقالت الوشّيشة: أنا أحسن وشّيش بهالكراج.

وكانت رحاب قد ملّت العمل عند مدام مرمر. ملّت الحجاب وملّت الترويج وملّت تحرش من يصادف أن تطرق أبوابهم في غياب نسائهم. وظل الملل يثقل على صدرها حتى فتح لها شاب الباب، وادعى أن زوجته في المطبخ. ولما أغلق الباب انقضّ على رحاب فعضّته وجمع صراخها الجيران الذين أشهدتهم عليه أمام الشرطة. إلا أن الشاب سيتكشف عن نفوذ كبير، ولولا نفوذ مدام

مرمر الأكبر لفتك برحاب. ولأن مدام مرمر لا تحب وجع الراس، قالت لرحاب: مع السلامة.

نصف ما كانت رحاب تحصّله، كانت ترسله إلى أهلها الذين لم يعد يكفيهم الراتب التقاعدي لأبيها، كما لم يكن يكفيها ما يتبقى لها، رغم أنها تقيم في المدينة الجامعية. ورحاب تعلمت المتاجرة بالأصناف الرخيصة من العطورات والمكياجات والعدسات الملونة، على يد مطيع صاحب الدكان التي تطلّ عليها نافذة غرفتها من الطابق السادس. لكن ذلك كان في سنتها الجامعية الأولى. ورحاب منذ صغرها تحب الغندرة. والغندرة التي أوصلتها إلى دكان مطيع ستوصلها إلى صالون مرمر الذي جمعها بك يا شهلة, وشهد عتابك لمدام مرمر على طرد صديقتك التي أكبرتِ فيها تفوقها في الجامعة وصبرها على عملها، وتمنيتِ أن تكون من نصيب هاني لما صادفها في بيتك، ولم تكوني تعلمين أنها المصروعة بنت المصروع، ولا أنها ستصير الوشّيشة التي سيصادفها هاني في الكراج، فيربدّ وجهه كما يربدّ الآن وهو يقترب من وجه رحاب، والقمر يهرب، وأنت مثل سعيد في حضن جدته أو في حضن أسماء، تخافين أن تنقطع الحكاية.

***

لكن الحكاية تتواصل حتى يضحك وجه هاني مثل وجه رحاب، وتترقرق الضحكة على وجه البحيرة. فالوشّيشة التي ارتبكت عندما رأت هاني، انتفضت وانقضّت على الوشيش الذي انقضّ

علـــى حقيـــبة هاني. ولما شتمها الوشّيش شتمته. وقبل أن ينطلق الـــبولمان بهاني صدّق أن رحاب انقطعت عن شهلة منذ انقطعت عـــن صـــالون مرمر، وأنها لا تستطيع أن تنتظر حتى تجد عملاً أفضـــل، لذلـــك أسرعت إلى الكراج، وقد تحصّل في النهار ألف لـــيرة، وقـــد تشتم الشرطي الذي سخر منها. وحين عاد هاني من السفر بحث عن رحاب حتى وجدها واقفة أمام باب مطعم الكراج تقضـــم السندويشـــة، فاندفعـــت إليه وحشرت السندويشة في فمه، وبشرته بأنها ستبدأ يوم السبت العمل في مكتب قطع التذاكر: تعال أعرّفك على مدير المكتب.

قالـــت رحـــاب ووجهها ـ مثل وجه هاني ـ يندغم في وجه البحـــيرة، وضـــحكة تترقرق أقرب فأقرب، ولكن ليس على وجه البحـــيرة، فخافـــت شـــهلة أن تنقطع الحكاية، والتفتت فإذا بهاني ورحـــاب يعبران خلفها، والقبلة تحوّم فوق رأسيهما المتلاصقين. وأخذ الموبايل يرجّ في جيب شهلة ويزقزق.

***

حين قرأت اسم ربيع على الشاشة فكرت في أن عليها أن تمحو الاســـم من ذاكرة الجهاز، وصممت على ألاّ ترد. لكنها اقشعرت فجأة، وأسرعت تتمتم:

– أهلاً يا ربيع.

ولـــم تكـــد تســـمع صوته حتى اعتراها الندم على أنها جعلته ينتظر، وعلى أنها ردت. وحين سألها عما تفعل، كانت تعدّ الأيام

التـــي انقضت بعد اتصاله الأخير، وتلوم نفسها على أنها لم تبادر للاتصال به منذ حكم بالفراق. ومن جديد جعلته ينتظر حتى وجدت ما تقوله:

– أحكي حكاية.

– لسعيد؟

– للبحيرة.

– أين أنت؟

– فوق بوابة سد زيزون.

– لازلت مجنونة.

– البركة بعقلك.

قالت بغيظ، فآثر ربيع السلامة وودعها. وندمت لأنها لم تقل له إنهـــا تبحث عن مجنون لا يدركه العقل كما أدرك ربيع لشلاش. وعـــادت إلـــى البحـــيرة لترى وجهها يرقّص وجوههم كما كانت ترقّص سعيد قبل أن يقف على قدميه. ودنا منها وجه هاني هامساً: عـــودي إلى البيت. أمك تريحك من حمل سعيد، وحسام سيرتدع عـــنك عـــندما تكونين بين أهلك. لكن شهلة تتمنع راغبة كارهة، وهاني يزين لها الهزيمة، كما سيسمي ربيع عودتها، ووجهه يزاحم وجـــه هانـــي. وستفجّر الهزيمة أو العودة شجاراً جديداً بين ربيع وشهلة حين يزاحم وجه سامي الوجوه جميعاً ويذهب إلى ربيع في المجمّع ليخضّ البحيرة بصراخه: أنا أخوها الكبير.

وســـامي إذن كـــان يراقب شهلة ويرى ربيع يتردد على بيتها، ويراها تخرج معه، وربيع يؤكد لسامي أن شهلة مثل أختي رضاب بل مثل بنتي غِوى: لماذا جبنت أمامه وكذبت؟

تصـــرخ شهلة فيخرس ربيع. لكن سامي لن يخرس، بل سيجر شـــهلة من شعرها إلى أبيها: هي تصيح له: لا سلطة لأحد عليّ، وهو يصيح بأبيه: لو كانت هالشرموطة بنتي كنت ذبحتها.

لـــم يكـــن هاني في البيت ليحمي شهلة من ضرب أبيه وأخيه. ربمـــا كان مع رحاب في بيت شهلة الذي صار بيت هاني. وربما كان في عمله الإضافي الجديد الذي سيمكنه من الزواج من رحاب هذا العام. أين أنت يا ربيع؟

دنـــا وجه ربيع ليرشف دمعتها ويهمس: كان عليكِ أن ترفعي دعوى. كان عليكِ أن تذهبي إلى الطبيب الشرعي لتأخذي تقريراً بهـــذه الكدمات على وجهك وذراعك وظهرك وفخذك. صار بدك عملية تجميل أكبر من عملية إياس.

لكـــن شهلة كانت قد طلبت إجازة مفتوحة حتى تختفي الكدمات عن وجهها على الأقل. ولازمت البيت حتى جاء هاتف ربيع: أين أنت يا شهلة؟

في بيت إياس التقيا مثل عائدين من سفر طويل ومنهك ومحبط. تضـــاجعا حتى كلَّ وكلّتْ, كأنهما يهربان من الكلام أو كأنهما في وداع لا لقاء بعده. وقبل أن يهدأ لهاثهما هجم وجه سامي وتواصل رنين الجرس حتى رضخ ربيع وفتح الباب.

وســـامي إذن لازال يراقب شهلة. ولعله اكتشف وكر إياس منذ البداية. وسامي لن يصدق أن شهلة ليست في الوكر. وسيقعي على الرصيف قبيل دكان أبو غدير. وحين يخرج ربيع وحده سيذهله أن يصـــدق يقيـــن شهلة بكمين سامي. وسيحاول أن يصطحب سامي بالسيارة إلى أي مكان يشاء، ثم سيحاول أن يشغله بأي أمر ريثما

تخرج شهلة وتشق طريقاً آخر من دكان أبو غدير إلى بيت إياس: أين المفر؟

لحسن الحظ كان هاني في البيت. لكن سامي صاح به حين لوى ذراعه ومنعه من ضرب شهلة: لو ما كنت مثلها ما كنت بتتستّر عليها. ثم نادى أسماء وصاح بأبيه: أنا بقطعْ ذراعي إذا ما كانت أسماء بتعرفْ كمان وبتتسترْع المصونة.

أمر الأب أسماء أن تتوضأ وتأتي بالمصحف. وصمت الجميع حتى أمر الأب أسماء أن تقسم، فأقسمت مكذبة سامي الذي خرج محرِّماً دخول هذا البيت ما دامت فيه هذه الأفعى وهذه الأفعى. واختفى وجهه ليحل محلهما وجه أبيه تكسوه صفرة الموت. وأمرت شهلة هاني أن يحضر الطبيب.

ورويداً رويداً تلاشى وجه هاني في البحيرة، ثم تلاشى وجه أسماء، فوجه أمها، فوجه سعيد، وانفردت شهلة بأبيها بلا غضب ولا حزن، بينما أخذ وجه البحيرة يتغضّن بوجه ربيع، فنظرتْ إليه بحياد، كأنها ألفت غيابه منذ تسلل من بيت إياس مذعوراً حتى هذه اللحظة من يوم الثلاثاء الرابع من حزيران.

3

حتى إذا جاء أمرنا وفار التنوّر

الله الــــذي أرســــل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشـــــاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصابه من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزّ عليهم من قبله لَمُبْلِسين.

صـــدق الله العظـــيم قال المؤذن في سره وبسمل لأنه نسي أن يبســـمل وهـــو ينظر إلى السماء الصافية ولا يتقي شمس الضحى الحارقـــة وأرهـــق نفسه وهو يستذكر سورة الروم وأحسّ بالذنب وحاول أن يقدح ذاكرته التي لم تعد تقدح كما كانت في الصبا حين كـــان يباري أقرانه فيما يحفظون من آيات الله البينات هنا في هذا المــــراح الــــذي أحاله السد إلى بحيرة يرمح فوقها قوسُ قزحٍ مثل

القـوس الذي أرسلته السماء على سيدنا نوح لتنذر بالطوفان فمن الأرض يطلـع الـنذيرُ القوسُ هذه المرة والمؤذن يبرأ من وجع مفاصله وربلتي ساقيه وعصعصه ويقفز على السبعين التي نسيها منـذ سـنين كما يقفز على درجات المئذنة وقد توسط قوسُ قزحِ الأرضِ كـبد السـماء الصـافية وأطلق من حنجرة المؤذن نداءه المشروخ لأن الكهرباء مقطوعة والمكبّر لن يعين صوت العجوز فكـيف بلـغ إذن الأولاد في الأزقة والنساء أمام البيوت والرجلين اللذيـن يشـربان الشـاي منذ الصباح أمام بوابة السد والرجال الذين تكوكـأوا في ظل العيادة يتقون الحر والرجال الذين اكتفوا بشملاتهم لاتقـاء الحـر وانحنوا على الشتلات بينما هاني ورحاب وشهلة لازالـوا واقفيـن وسط الطريق المسوٍّرة للبحيرة فوق بوابة السد يجهـدون ليتبينوا نذير المؤذن ثم يتسابقون على أحجار الجدار مثل الماعز وقد صدقوا أن عيني المؤذن الكليلتين أقدر على أن ترى من أعلى المئذنة شقوق السد تكبر والقادم أعظم!

يـاهوه يـا سامعين الصوت اتركوا اللي بإيديكنْ حتى لو كان الدهـب والألماظ واحملوا ولادكنْ وسوقوا الحلال لليمين وللشمال قبل أن تأخذكم سَوْرة من غضب الله وينفجر السد على رؤوسكم.

أمـام بوابة السد رأى هاني كأسين شبه مليئتين بالشاي ورأت رحـاب رجليـن يهرولان صوب التلة ونظرت شهلة إلى الأعلى حيث كانت تقف فتبينت ما لم تتبينه من نوافير الماء كأنها أنابيب سيارات الإطفائية المُشهَرة لتطفئ الحريق أو لترش هتافات الشباب والصبايا من أجل فلسطين ومن أجل العراق فأطلقت ساقيها للريح ولحقـت بها رحاب ولحق بهما هاني وظلوا يتسابقون حتى قطعوا

زيزون فزادوا رعبَ الناس رعباً وزادهم رعبُ الناس رعباً إلا أن الخيام ضحكت من الغرباء المجانين كما ضحك منهم من صادفوا على جسر الساقية وعلى الطريق المحاذية بعدما عجزت صدورهم عن اللهاث فوقفوا والتفتوا إلى السد الذي صار بعيداً جداً فَشُبِّه لشهلة أن صخوراً تتدرحج حيث كانت تقف وتهوي على البوابة وشُبِّه لرحاب أن نوافير الماء صارت شلالاً أو أكثر يغلظ ويهدر مع كل رفة جفن وشُبِّه لهاني أن الكهرباء المقطوعة قد عادت ليجلجل صوت المؤذن في المكبّر إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجّت الأرض رجّاً وبُسّت الجبال بَسّاً كانت هباءً منبثاً بسم الله الرحمن الرحيم صدق الله العظيم.

وفجأة اختفى الصوت إذ زلزل السد زلزاله وأخرج أثقاله وأرسل إلى السماء سحاباً فجعلته ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزّل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرف عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار.

تدافع الناس على الطريق المحاذية للساقية وفوق جسر الساقية وتابع هاني وشهلة ورحاب السباق إلى بيت المصروع محمود نجا الذي اعتلى سطح بيته ولحقت به امرأته وبنته المصروعة الوشّيشة وخطيبها وأخته لينصلبوا يرقبون مثل كل من اعتلوا أسطحة البيوت الخفيضة في سائر الجهات بينما كانت الصخور تتقصف من بوابة السد الفاغرة وترمي زيزون قبل أن تبلع المياه ذلك البيت وهذا البيت وتلك المدرسة وذلك المستوصف وهذا البيت وذلك البيت ومركز الاتصالات ومستودع المصرف الزراعي وهذا البيت وذلك البيت حتى ما عاد يظهر من زيزون غير رأس الخزان وقبة

الجـــامع والمـــياه تجعـــر في بوابة السد الفاغرة وتقصف بالركام الصـــخور حـــتى تبلغ تلك الخيمة وهذه الخيمة وتلك الأغنام وهذه الأبقار والمصروع محمود نجا يسأل أين البشر يا بشر ثم تأخذه الرعدة فينادي شتوة كانون ذخراً وشتوة شباط محلاً وشتوة آذار خيراً وشتوة نيسان بركةً وشتوة أيار هديةً طيب وشتوة حزيران يا حزيران؟

صاح صوت بالمصروع هذه ليست شتوة يا محمود فاليوم ليس الـــيوم الرابع من الشهر السادس من العام الثاني من القرن الحادي والعشـــرين بل هو اليوم السابع عشر من الشهر الثاني من المائة السادسة التي بلغها سيدنا نوح عليه السلام لذلك انفجرت كل ينابيع الغمـــر العظـــيم وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة تحت كل السماء وكلٌ ما في أنفه نسمة روح مـــن كـــل مـــا في اليابسة مات فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض الـــناس والـــبهائم والدبابـــات وطيور السماء فانمحت من الأرض وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط فادع يا مصروعٍ مع الداعيـــن خلّصني يا الله لأن المياه قد دخلت إلى نفسي غرقتُ في حمأة عميقة وليس لي مفرّ دخلتُ إلى أعماق المياه والسيل غمرني برحمتك استجب لي بحق خلاصك نجّني من الطين فلا أغرق نجّني من مبغضيّ ومن أعماق المياه لا يغمرني سيل الماء ولا يبتلعني العمق ولا تطبق عليّ الهاوية فاها.

تـــبدد دعاء محمود نجا والطوفان يخور كالثور الذبيح وكانت الأعاصـــير تعصـــف مـــثل نهـــيق حمار الوحش فطاش صواب المصـــروع ولـــم يعد يفرق بين موقع بيته وبين موقع بوابة السد الجاعرة في أية قرية هو وفي أية قرية هي بعدما صارت زيزون

أشـــلاء من المخدات والبسط والكنبايات والسروايل النسائية وعلب الســمنة والزيـــت وفناجيـــن القهوة المرة وهوائيات التيلفزيونات وأباريق الشاي والدفاتر والكتب المدرسية وأكياس السماد الآزوتي وروث الـــبقر وبـــواري المدافـــئ وبرامـــيل المـــازوت وأطـــر التراكتورات التالفة ومدقات الثوم والسكاكين والأغاني والحكايات وعظام الموتى رحمة الله عليهم أجمعين.

أين هي زيزيون إذن يا مصروع؟

أيـــن من كانت جارة الزيادية والمشبك ومشيتْ وتل القرقورة وقسطون التي كانت في يوم من الأيام جارة لزيزون وكان سدّها جاراً لسد زيزون ينتظر محمود نجا انفجاره ليتعافى من صرعه ويعود كما كان أطول شباب هذه القرية أو تلك القرية بل أقواهم طراً بل أول مـــن يحمـــل مـــنهم البكالوريا على راحتيه ويدق بهما باب الكلية الحربـــية بكامل قواه العقلية وكلما انقضت سنة يزداد طولاً وقوة وهيبة ومعرفة حتى صارت له على هذا الكتف نجمة وعلى هذا الكتف نجمة وحمل مسدساً على جنبه وتزوج سجيعة التي صارت صبية في غيابه وأنجبت له ما شاء الله بسم الله فلقة القمر.

وفلقـــة القمر هي أنت يا رحاب لأن المصروع كان يتمنى أن يـــرزقه الله بنتاً يسميها رحاب فتخلد ذكرى من عشقها منذ التحق بالإعدادية حتى تخرج من الثانوية في إدلب على الرغم من أنه لا يذكـــر أنـــه رأى من وجه الحبيبة المنقّب سوى عينيها ولا عرف بيـــتها ولا اسمها فهو من سمّاها رحاب وكرمى له سمّت سجيعة فلقة القمر رحاب التي هلّت بينما كان أبوها فيما يقال في مهمة فلم يرها حتى صارت ابنة سبع سنين دون أن تدخل المدرسة لأن أمها

تركت الشام وعادت إلى القرية تنتظر عودة زوجها من المهمة أي مـن السجن مع أن راتبه كان يصل إليها كاملاً غير منقوص في الأول مـن كل شهر عندما كانت في الشام وفي الخامس عشر أو الخامس والعشرين من كل شهر بعدما عادت إلى القرية وصارت عِرّة يستحي منها أهلها ويستحي منها أهل محمود نجا لأن صهر أولاء أي ابن هؤلاء أصابه الصرع في السجن بعدما جرى تبليغه بـزيادة نجمة له على هذا الكتف ونجمة على هذا الكتف فصار له ما مجموعه بالضبط أربع نجمات على الكتفين مع أنه نسي ما إذا كـان قـد نُسي في السجن لأنه رفض أوامر رئيسه بفتح النار في وضـح الـنهار علـى نساء يولولن مثل أطفالهن أو على رجال مطلوبيـن ومتخفيـن بيـن النساء وربما في ثياب النساء أو بين ضلوعهنّ فالنّسّاء المصروع الفساء محمود نجا ما عاد يذكر ما إذا كان قد ضُبط متلبساً فقط بالتعاطف الروحي لا غير مع المطلوبين أو مـع النساء أو مع الأطفال وما عاد يذكر ما إذا كان قد ضرب رئيسه أم رئيس رئيسه ولا كيف تمّ تبليغه بزيادة نجمة له على هذا الكـتف ونجمة له على هذا الكتف فصار له ما مجموعه بالضبط ست نجمات على الكتفين وكان صرعه فيما يقال قد اكتمل.

مثل البغل صار المصروع يلتهم علفه أو يعافه أو يشهر عضوه حين يُقاد إلى المرحاض أو ينام نهارين وليلة وربما ليلتين ونهاراً وقـد يشكو الصداع ويصرخ حتى يغلي الزبد في شدقيه أو يبكي كأنمـا يغني أو يضحك كأنه ينهق أو يغرق في الصمت نهاراً أو ليلة وربما أكثر بكثير.

وبعدما بلغ ذلك من محمود نجا مبلغاً رقّتْ له قلوب السجانين والمسجونين جاءه الفرج لأن من كان رئيسه أو رئيس رئيسه كان فيما يُقال قد فرّ من البلاد أو طُرِد منها شرّ طردة وربما خير طردة فعاد المصروع إلى بيته وعادت سجيعة إلى زوجها لكن فلقة القمر ظلت تتكر أباها سنة أو أكثر والمصروع يصير أقل صرعاً وأكبر عقلاً وأكبر صرعاً وأقل عقلاً بحسب تقلبات الأبراج واقتراب أهله أو أهل سجيعة منه ونأيهم عنه وبحسب حفظه للقرآن على يد الشيخ الذي قرأ البارحة فاتحة هاني ورحاب أو على يد الشيخ الذي أذّن أذان الطوفان ضحى هذا اليوم الرابع من حزيران سنة ألفين واثنين أي عشية الذكرى الخامسة والثلاثين لهزيمة الخامس من حزيران أو نكسة السبعة وستين قبل أن يختم محمود نجا ربع يسين وقبل أن يحتلم فلماذا يرغط الآن على سطح بيته كأنه ابن ثلاث أو أربع أو خمس سنين وقد وجد نفسه وحيداً وسط الماء التي سوّرت البيت وتابعت جريها في كل ناحية دون أن تنسى أن تنبش جوف البيت وتقطّع أشلاءه وترميها في كل ناحية بينما المصروع يُهرع كل صباح إلى أي من الورشات التي تبني سد زيزون ولا يعود إلا بعد المغيب لأن راتبه التقاعدي لم يعد يكفي سجيعة والمصروعة بنت المصروع الذي لهط أخوته حصته من الأرض قبل أن يموت أبوه ولم يعيدوها حين عادت سجيعة من الشام حاملة رحاب ولا بعد ما خرج شقيقهم من الجبّ غير مبالٍ بالإرث ولا بأن ينجب لرحاب شقيقاً واحداً على الأقل بل راح يصرف جهده ووقته في بناء سد أعظم من السد الذي بناه ذو القرنين بين ياجوج وماجوج وبين الناس.

كان عظم السد في جسمه ألف ذراع وفي طوله ألف ذراع حتى قيل إنه من أوابد الدنيا ويصل ما بين الصدفين مسيرة سبعة أشهر بخطوة بغل مثل محمود نجا الذي ينادي الآن امرأته وبنته وشهلة صادق بالتناوب يا ذات القرنين يا ذات القرنين وبالكاد يتعرف على هذا الشاب الذي جاءت به رحاب من الشام لتقول أريده يا أبتي زوجاً لي فيبارك ذو القرنين لذات القرنين بمن اختارت من العقلاء ويلاعبه بالمنقلة قبل أن يعود إلى عمله وردّيتين في سد قسطون بعد ما فرغ من سد زيزون وربما قبل ذلك بكثير حتى إذا دشّن التيلفزيون والجرائد أياً من السدين أو كلا السدين ما عاد للمصروع من عمل إلا أن يجري خلف خبر من هنا وخبر من هناك عن سجين من هناك وسجن من هنا أُفرج عنه منذ ثلاثة أيام وعن الآخر منذ شهر ولم يكن المصروع ليبالي بأن يكون السجين ممن سبقوه إلى السجن أو ممن تلوا ولا بذنبه إلى أن بدأت سجيعة تحذّر نقلاً عن واحد من أخوته أو واحد من أخوتها من أن من يجري المصروع خلف أخبارهم سياسيون فصار المصروع يضاعف جريه إلى أن يبلغ صاحب الخبر الذي لا يعرف منه أو عنه إلا اسمه فيهنئه بالسلامة ويعود إلى سجيعة الخائفة من ألا تكون فلقة القمر واهمة فتسافر حقاً إلى الشام لتدرس في الجامعة ولو انقلبت الأرض على السماء وقد يكون ذلك ما جعل همّة المصروع تفتر وربما كان الخوف أيضاً سبباً بعدما صار التيلفزيون يذكر أسماء معتقلين وهكذا صار يكتفي بخبر من هناك وخبر من هنا عن سجين توفي هنا أو سجين توفي هناك سواء لاقى وجه ربه في السجن أم بعد الإفراج عنه وهذا ما أورث

المصروع الكآبة زمناً مديداً حتى عادت رحاب من الشام أول مرة فأضاء وجهه واسترد عافيته والخلق يسألون وشرع يتلو مما حفظ صغيراً ونسي كبيراً أو مما حفظ كبيراً ونسي صغيراً حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قالوا يا ذا القرنين إن ياجوج وما جوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً علــى أن تجعل بيننا وبينهم سداً قال ما مكنني فيه ربي خير فأعينوني بقــوة أجعــل بينكم وبينهم ردماً أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال أتوني أفرغْ عليه قطراً فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً قال هذا من رحمة ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاء وكان وعد ربي حقاً صدق الله العظيم.

كانت الماء قد ناصفت نوافذ البيت وأبوابه وعلى وجهها أخذت ترمــي بمــا فتكت منادية محمود نجا الذي ملص من ذراع هاني وذراع سجيعة وقفز من تحت العريشة إلى فم الدرج فتلقفه ثم لفظه فتعلق بحديد النافذة وكاد الماء أن يخنقه وهو يرجّ البيت رجّاً ويفك أصابع المصروع عن الحديد ويخلّع العريشة مطلقاً ولولات سجيعة فــأخذت هانــي الحمية وملص من ذراع رحاب ومن ذراع شهلة وارتمى في فم الدرج ورأى الرجل الذي لاعبه بالمنقلة أمس حتى منتصــف اللــيل ينجرف الآن صوب التوتة وما إن انقذف هاني خلف استغاثة الرجل حتى هوت العريشة التي كانت شهلة ستستظل بظلهــا هذه الليلة أيضاً لتتقي حمرة القمر النارية ولتروي له الليلة مثلما روت له بالأمس أو مثلما روت هذا الضحى للبحيرة قبل أن تفلــق الســد وتدهم الزرع والضرع وتغطي ما بين زيزون وبيت المصــروعة الوشيّشــة فلقة القمر وأيقنت سجيعة بالهلاك فتعلقت

بساق الدالية الغليظة المتكئة على زاوية البيت وصاحت برحاب وبشهلة فتسابقتا إليها وانتصرت شهلة لكن الساق تقشّرت بين يديها وعلى خديها وكادت تحزّ عنقها بينما ساقاها تتحاشيان رأس سجيعة وساقا رحاب تدفعان رأسها وكان محمود نجا الذي ما عاد مصروعاً يعلن التوبة ويردد الشهادة يأساً من غوث هذا الذي سيصير زوجاً لفلقة القمر بعد أن يستسلم للسيل تارة ويلتف عليه تارة ويسبح بمهارة حتى يلطمه السيل بالتوتة الراسخة كالطود فيصيح صيحة عظمى ويتعلق بجذع التوتة ثم يتسلق إلى أن يبلغ قفلها الذي لن يبلغه السيل لأنه راح ينداح خلف محمود نجا أهدأ وأخفض فأخفض على مد البصر.

الفصل السادس: درج الليل... والنهار

1 ـ الفُلْك.
2 ـ التحقيق.
3 ـ عقد من الوشم.
4 ـ وماذا بعد يا إياس؟ ماذا بعد يا ونسة؟
5 ـ حرائق شهلة.
6 ـ سر الدكتور عيسى.
7 ـ مما روت ونسة لإياس ليلة...
8 ـ ألماس الربيع.
9 ـ من يصدق حكاية التي تخلق نفسها كما تشاء؟
10 ـ نهارك نهار عراقي.
11 ـ إذا عاد حب قديم فلن يكون حباً جديداً, بل حب قديد.
12 ـ ما أحلى السهر في بيت مدام مرمر!
13 ـ ندبات القلوب.
14 ـ زيزون الجديدة.
15 ـ رقصة القفّة.

1

الفُلْك

وقال الله ليكنْ جلَد في وسط المياه وليكن واصلاً بين مياه ومياه وكان مساء وكان صباحٌ يوماً ثانياً.

وقال الله لتجمعْ المياه تحت السماء إلى مكان واحد لتظهر اليابسة وكان مساء وكان صباحٌ يوماً ثالثاً.

وأقلعت السفينة من عين سفني إلى جبل سنجار حيث نتأها حجر فانفتقت وسأل نوح من لنا بسد هذا الفتق فقالت الحية أنا أقوم بذلك على أن تمكنني من ابن آدم لأمصّ دمه فقال نوح قد رضيت ونجا من كان في السفينة بعد رتق الفتق ومشت باسم الله مجراها ومرساها حتى رست على جبل الجودي أي إلى مقر الجمعية الفلاحية في قرية المشبك مثلاً أو إلى تل القرقور مثلاً أو إلى

المدرسة التي تعلمت فيها رحاب مثلاً حيث أقسم الرجال والنساء والأطفال بجبل الجودي على أن ينحروا الأضاحي ويعيدوا العيد كل سنة في ذكرى رسوّ السفينة كأنهم وحدهم أبناء نوح بينما الحية تلظلظ وتطالب نوحاً بأن ينجز وعده لكنه خاف على من كان من جنسه وأحرق الحية وذرّ رمادها في الهواء فجاءت منها البراغيث التي كانت تمتص دم محمود نجا في السجن برفق ويقال إنه لما كثر نسل الحية بعد طوفان زيزون أخذها نوح وأحرقها وذرّ رمادها في الهواء ولذلك على الأقل يقدس جبل سنجار من يقدسه منذ سبعة آلاف سنة إلى هذا اليوم على أنه يُقال أيضاً إن طوفاناً آخر غير طوفان زيزون قد كان على عهد الملك الكريم ميوان حين أقلع الشيخادي أوعَدَي أوعَدَاي من البقاع إلى لالش كما أقلع هاني من قفل التوتة إلى الوحل فغاص إلى الرسغين وصاحت رحاب ونطت فغطست في الماء الذي ملأ حوض الدالية ونهضت وارتاعت من ثقل قدميها في الوحل ومن بلوغ الماء ملتقى فخذيها وحاولت أن تجري وظلت تحاول عبثاً إلى أن أدركها هاني وسقط فوقها في الحوض الصغير وتعانقا كغريقين ونهضا يغالبان الوحل والماء بينما كانت سجيعة تغالب مطيطةً أمام الباب وتلعق جروح كفيها وتتلمس خدوشها في باطن الساعدين وزعقت شهلة فجأة وقد اصطبغت أصابعها بدم عنقها أما المصروع فلم يظهر له أثر على الرغم من أن الأرض تقيأت الأنابيب المطمورة في عبها فاختلطت مع الأنعام النافقة كما اختلط الأحياء بالموتى والجرحى بالسالمين والتكبير بالتجديف وهدير الهليوكبتر بصافرات سيارات الإطفائية والإسعاف والشرطة والمخابرات والمواكب الرسمية والحزبية

والديبلوماسية والسياحية والإعلامية والأمنية والأهلية والدينية ومن عجب أن موكب الأستاذ موسى نزهان جاء أقلّ صخباً وأصغر ما جعل الدكتور باسل يصرح للدكتورة ربى بامتعاضه فلو كان الدكتور عيسى على رأس موكب المجمع 21 لطغا على ما عداه يا دكتورة.

كان الماء قد مَوُجَ والأرض قد أماهتْ وكانت الصخور قد دحلت قبر المرحوم هاني خال هاني وشهلة وبعنف أقل كان دحلُ شبكة الصرف المثقبة وأقنية الصرف المكشوفة وقصٌ أوتاد الحديد قصاً بينما مالت قبة الجامع على خاصرتها الوحيدة في مستقرها الجديد.

وكان مساءٌ لَمَّ من لبى أذانَ المؤذن في ذلك اليوم فوق هذه التلة وفوق تلك التلة سوى رجلين كانا يشربان الشاي أمام البوابة وربما كانا هما من لوحتْ لهما شهلة من فوق البوابة أو من اعترضا تسلّق شهلة على جدار السد وركضا مفزوعين كما ركضت لكنها لحقت بهاني ورحاب المفزوعين بينما لحق الرجلان بمكتب المراقبة وانتظرا الماء إلى أن أوفى الدور الأول والأيدي ترمي للرجلين بحبل النجاة فتعلق به من تعلق وأصرّ الآخر على البقاء ضامناً لما يملأ المكمن أي المكتب في عهدته فلما صارت النجاة أَوْلى انقطع حبلها وكبّر المؤذن وسمَّى بسم الله الرحمن الرحيم وصاح بالملأ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربّ غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتهم ذواتي أُكُلٍ خمط وإثل وشيئ من سدر قليل صدق الله العظيم.

وكان صباح يعجُّ عجيجاً مثل رفوف النحل الهائمة المستثارة قريباً من الخلايا المخلعة وبعيداً عن أطباق الشهد التي شابهت سلة

المساعدات وقد عجّتْ بالسكر والرز والخبز والشاي والحلاوة والمعكرونة وعلب السردين والمرتديللا والطون والأيدي التي توزع والأيدي التي تتلقف والأيدي التي توضّب ربطات الخبز وعبوات المياه وتملأ القوائم الأولية بأسماء المتضررين وتحصي المنازل البائدة والمتصدعة وحقول القطن والشوندر والحنطة والشعير التي باتت ذكرى مثل المياه التي كانت تملأ البحيرة أو البوابة التي تعاظم عرضها أضعافاً مضاعفة بل مثل زيزون التي تلوح من تحت التحت للجنة الطوارئ ولجنة التحقيق وفريق الصليب الأحمر وفريق الهلال الأحمر والمنسق المقيم لمنظمات الأمم المتحدة في دمشق والبعثة الدولية الخاصة بالكوارث الطبيعية ومنظمة الصحة العالمية واليونيسيف وصندوق الأمم المتحدة للسكان والسفارة اليابانية وأسطول الطائرات التي ضاقت بها السبل من المغرب والجزائر والإمارات والعراق المحاصر كأن لم تكن يوماً دونه عداوة.

وكان مساء وكان صباح بعد ما ظهر المصروع مضرجاً وصامتاً وكسير اليد والقلب وبعد ما التقطت سجيعة من كل مطيطة ومن الوحل الطري ونصف الطري ملاعق وصحوناً وثياباً وكثيراً مما لم تكن تعلم أن البيت يخبئه مثل جزدان شهلة ولكن من دون عقد المرجان وعلبة الماكياج الصغيرة ومثل المسجلة الصغيرة التي لم تفارق رحاب منذ استطاعت شراءها بفضل عملها وشّيشة ومثل الموبايل الذي رجّ الجيب الخلفي لبنطال شهلة مدغدغاً أليتيها فتراقصت هنيهة وحكت هنيهتين قبل أن تقبض أصابعها على الموبايل وتقبض نظرتها على اسم ربيع في الشاشة فحمدت الله

على أن البنطال حمى الجهاز من الطوفان وحمدت لربيع اطمئنانه عليها وتذكرت بعدما اختفى صوته أنه كان عليها أن تبلغه ما جرف الطوفان منها أي عقد المرجان وأرهفت سمعها لأن ربيع راح يهامسها أن مياهاً كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة والسيول لا تغمرها وابتسمت بحياد كأن الطوفان قد جرف أيضاً المحبة والحنين إلا أن ربيع لم يستسلم بل انتصب أمام شهلة حاملاً زجاجة كبيرة من الفودكا وعقداً من المرجان وكاسيت لأولاد الجويني وراح يتبتّل كالسوسنة بين الشوك أنت كحبة العناب أنت كحبة الديس أنت كالتفاح بين شجر الوعر أنتِ كعنقود السمّاق أنتِ كعنقود العنب أنتِ وقوامك غصن حور وصدرك من الرمان وخدك من الجلنار وكانت تبتسم بحياد وتنظر حولها فلا ترى غير الوحل والماء ونظرت أبعد فأبعد في الجهات الأربع لعلها تلقى كلمة واحدة من كلمات ربيع فلم تجد إلا الوحل والماء لذلك قررت أن تسافر وإن لم يسافر هاني ورحاب إلا أن سجيعة التي لم تعد تخشى انكشاف شعرها المنكوش وربما لم تعد تخشى انكشاف ساقيها حثّتْ هاني ورحاب على السفر ولم يفرق المصروع شفيته حتى غابت المصروعة وخطيبها وشقيقته وبات قادراً على أن يبكي ويبكي ويبكي إلى أن تجفف دمعه الهتون برقيات المواساة والتضامن التي يعددها تيلفزيون الجيران وقد مسح دموع محمود نجا أيضاً بيان لجان حقوق الإنسان الذي بلغه منه عبر راديو الجيران أن التعزية الحقيقية لمواطنينا الذين أصابتهم هذه الكارثة هي في بناء سدنا الحقيقي المنشود سد الإصلاح والتغيير ذلك أن انهيار سد زيزون لم يكن بفعل الطبيعة بل بفعل الفساد الذي

استشرى في جسد الوطن ولأن محمود نجا كان مصروعاً فقد ادعى أن السيل ظل يجرفه إلى أن رماه في نهر العاصي وأن صراع النهر مع السيل هو الذي دمّر الجسر الروماني القديم وسط جسر الشغور حيث تقيأ السيل محمود نجا فلجأ إلى حارة الطاحون ولكن النهر الهارب من السيل كان قد سبقه إليها فواصل محمود نجا الفرار إلى حارة الناعورة فلحقه النهر الهارب وقد استحالت مياهه العذبة وحلاً يملأ المنازل والمتاجر والأزقة والشوارع فترك محمود نجا الخراب لأهله وعاد إلى أول مسكن من المساكن التي حملتها الناقلات العملاقة من مكان ما إلى هذه التلة أو تلك التلة كي ينعم محمود نجا بالكهرباء والتواليت والهاتف بدلاً من زريبة سجيعة ودعائها على عشرين شخصاً أو ثلاثين أو أربعين صدرت بحقهم مذكرات توقيف جزاء وفاقاً على ما تقدم وما تأخر لذلك قرر المصروع أن ينجو من الطوفان فخطب على محمود نجا خطبة الوداع قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحالَ بينهما الموج فكان من المغرقين وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقُضِي الأمر واستوى على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين صدق الله العظيم وقد رُوي أيضاً أو أخيراً أن رجلاً يشبه الفلاح الفصيح في مصر القديمة قد وقف عندئذٍ فوق واحد من صدوع بيته ونظر إلى أطلال سد زيزون وخاطبه: لقد أقاموك لكي تكون سداً ينقذ الفقير من الغرق، ولكن انظر فإنك الفيضان الذي يغرقه.

2

التحقيق

انــــتهى عـــرض الشـــريط واستسلم الأستاذ موسى للعتمة التي داهمتها أصوات مشتبكة ومشاهد مقطوعة ومبتورة.

امرأة منكوشة الشعر ـ هل هي سجيعة؟ ـ تكاد يداها تمزقان البطانـــية المزركشة: مساعدات؟ شوفوا شو نابني من المساعدات. بطانية واحدة الله لا يكثّر خيركم ولا خيرهم. ولأ شو؟ قال بطانية من المغرب! هذا البيتِ فوتوا فتشوه.

رجل أشعث وجبيرةُ يده تهز عنقه ـ هل هو المصروع محمود نجـــا؟ ـ ومـــن خـــلال شعث شاربيه وذقنه تمرق همسته لعين الكامـــيرا: الحرمة نسيت بطانيتين وطني. الحلال حلال والحرام حـــرام. بّـــس تـــرى يمكن حدا مدّ إيده للمساعدات وأخذ اللي فيه النصيب.

محطـــة ضـــخ سد زيزون وقسطون مدمرة تماماً كأنما قصفها صـــاروخ اســـرائيلي فـــي جنين أو صاروخ أمريكي في كابول, وصوت ملتبس كأنه لرجل يتخنث أو لامرأة تسترجل: سد زيزون يروى 17000 هكتار نصفها بسلامتك.

مـــنظر عـــام والصوت نفسه: 251 منزل تدمير كامل و129 تدمير جزئي. تقول يا زلمه إنّا بفلسطين!

بقرة منفوخة البطن وشبه مستلقية على ظهرها كأنها بلا ضرع ولا ذنب, لكن أطرافها مرفوعة بثبات وعيناها جاحظتان.

المؤذن متهدل وكفه تغطي ذقنه. يحاول الكلام مراراً. يعجز.

شـــاب حافٍ وبجلابية مقلّمة يهجم على الكاميرا وهو يصيح: بعـــت تلتيـــن الأرض حتى اشتريت لها الدهب واليوم كان عرسنا لازم يكـــون. ينحـــبس الصوت وتفقأ دمعته عين الكاميرا. يختفي الشاب, لكن صوت نشيجه يستمر حتى يخفيه هدير هليوكابتر.

صـــدر نافـــر تزيده حمرة الصليب بياضاً, ومع ابتعاد الكاميرا يظهـــر وجه الفتاة ناصع البياض وصغيراً ومدوراً ومحفوفاً بشعر أسود قصير, والرهق ينضح من العينين السوداوين الفائرتين.

ثلاثة شباب مسلحين ومتوفزين يعبرون الكاميرا بسرعة.

* * *

واستسلمت عينا إياس للعتمة ووجيب صدره للصمت, لأن قاعة العـــرض هـــي مكتب جنان, وكأن الوقت هو ذلك الصباح الكابي الـــذي أيقظـــه على غياب ونسة يوم الطوفان, وطفق يذكّره بأنها

ارتوت من لقاء أهلها, وبأن عليه أن يلبي نداءها ويلحق بها. لكن نـــداء جـــنان غلّل ذلك الصباح بالصوت الهلوع: نحن جميعاً أمام كارثـــة يـــا إياس, وأنا أعرف ماذا تعني هذه الكارثة لواحد مثلك. لابد من تحقيق دقيق وشفاف وسريع في كارثة زيزون.

: الدولة تحقق.

: والأســـتاذ موســـى يريد أن يحقق. الأستاذ موسى كلفني بأن أختار من يحقق, لذلك ناديتك.

: أنا آخر من سيرضى به الأستاذ موسى. حتى نفقات علاجي رفض أن يتحملها المجمّع.

: اترك هذا لي.

: لا أنـــا محامـــي يـــا جـــنان ولا اشتغلت في القضاء ولا في المخابرات.

: لكـــنك جربت السجن والسجن يعلم التحقيق. أنت نفسك كنت تقول.

: تريدينني أن أكون مثل المحققين في السجن؟

: أعوذ بالله. أريد خبرتك وأمانتك. الأستاذ موسى يريد التحقيق فـــي يد أمينة أولاً. لا ينبغي أن تتسرب معلومة ولا كلمة إلى أي جهـــة إلا عـــن طريقه. لا ينبغي أن يتستّر التحقيق على أي أمر. سيزوّدك الأستاذ بما يمكّنك من الوصول إلى أي مكان أو إلى أي شخص. ومهما واجهت يجب أن يبقى المجمّع بعيداً.

: قد يعيدني هذا إلى السجن يا جنان.

: ثق بي وثق بالأستاذ موسى. لا تغترّ مثل غيرك بما ترى أو تسمع عن تدخّل الدكتور عيسى أحياناً أو عن... الأستاذ موسى قادر على مالا يخطر على بال.

: ولكن للقضية جوانب فنية لا يد لي فيها.

: خذ هذه الأوراق. هناك من أعدها كدليل فني لمن سيحقق. وعندما يواجهك أي سؤال اتصلْ بي. اتصل بي وحدي حتى لو في الفجر. السيارة جاهزة بلا سائق. الكاميرا. سلفة للمصاريف. الحجز بالأوتيل..

: لم تنسي شيئاً. هل أنت جنان التي أعرفها حقاً؟

* * *

وفَجَأ الضوءُ العتمة والصمت، وكان الأستاذ موسى يلملم نظراته التائهة الموجوعة ويرمي بها إياس. وحين استطاع إياس أن يتنفس قال:

– الخسائر مبدئياً 86 مليون دولار قيمة المياه المهدورة وفوقها المحاصيل و..

وسكت, فقالت جنان.

– قرأت أن إصلاح السد يكلف 16 مليون دولار.

– مبدئياً. والحمد لله أنهم خففوا فوراً من حمل سد قسطون, وإلا لكنا بكارثة أكبر.

قال إياس, والأستاذ موسى ينظر إليه مستزيداً. وفتحت جنان الملف النائم أمامها وراحت تقلب فيه وهما يتابعانها حتى قالت:

- في سد قسطون كان المخزون 30 مليون متر مكعب. يعني 3 مليون متر مكعب زيادة عن طاقته. في سد زيزون كان المخزون 86, يعني 15 مليون زيادة.

ورفعت رأسها إليهما وتابعت:

- قرأت أن مخزون سد زيزون كان 76، يعني الزيادة عشرة مليون.

قال الأستاذ موسى ساخراً وكفّاه تسوّران صدغيه:

- وقرأت: سد زيزون تاسع أكبر سد بالطاقة التخزينية, وقرأت سد زيزون رابع أكبر سد في..

وعاد الصمت الثقيل حتى قطعه إياس:

- ثلاثة أيام لم أنم خلالها ثلاث ساعات. كنت أذهب إلى الموقع قبل طلوع الشمس ولا أعود حتى تغيب. تحت الحرارة 45 درجة سجلت مرويات أهل زيزون أولاً بالصورة والصوت. درت من جسر الشغور إلى أريحا وإدلب حتى حدودنا مع تركيا. كنت أعود إلى حماة مهدوداً. وفي الأوتيل أواصل دراسة المخططات والوثائق والتسجيلات والتحقيق حتى الفجر. الدكتورة ربى نوّرتني بالكثير الكثير مما كنت أجهله أو لا أفهمه. كنا نبحث عن إبرة في كومة تبن.

وهمس الأستاذ موسى كأنه يناجي نفسه:

- صارت الحقيقة إبرة في كومة تبن!

وقالت جنان:

- العلّة في الأساس. من يبني مثل هذا السد على تربة غضارية؟ طبعاً إذا تشبعت هذه التربة بالماء ستنزلق.

وهمس لها إياس:

- التحقيق معك نفعك. كيف لو أنهم لا سمح الله سجنوك؟

ونظر الأستاذ موسى إليهما متسائلاً, فقال إياس:

- قلت لعساف كوكب: السد يرشح منذ البداية. والرشح للسدود مثل النزيف الداخلي للإنسان. لماذا لم تضخوا موانع الرشح؟ الاسمنت يسد المسام لو ضخوه. قال: ضخينا بلا فائدة. قلت: كان عليكم أن تدقوا صفائح فولاذية على عمق عشرين متراً, ثلاثين.

وهمست له جنان:

- صرت ما شاء الله خبيراً!

ونظر إليهما الأستاذ موسى متسائلاً، فقالت:

- حتى لو تم التصفيح أو سد المسام بالإسمنت, لابد للتربة أن تنزلق عندما تتشبع بالماء. كان عليهم أن يبدلوا التربة كلها منذ البداية.

قال إياس:

- هذا مكلف جداً. وتكنولوجياً يوجد مئة حل, لكن الكلفة عالية جداً. موقع السد نفسه غير صالح.

قالت جنان:

- الموقع غير صالح. ومادام الرشح بدأ قبل أن يرتفع الماء في البحيرة شبرين, فالخطأ إذن في التصميم. الخطأ في التحام جسم السد بالقاعدة. الخطأ في التأسيس.

قال إياس وهو يشير إلى الملف المفتوح أمام جنان:

- الدكتورة ربى اطلعتْ على الكثير من التحقيق الرسمي وعلمتْ أنهم أخذوا عشرات السبور من القاعدة ومن الجسم للتأكد

من نوعية مواد البناء ومن رصّها. والنتيجة دائماً واحدة: كل شيء خارج المعايير.

هــز الأستاذ موسى رأسه هزات التبست فيها الموافقة على ما يقول إياس بالرفض والحيرة واليأس والاكتفاء. ونظرت جنان إلى إياس نظرة أكثر التباساً وهي تقف, فوقف, وانتظر حتى خاطبهما الأستاذ موسى وهو ينظر إلى جهاز العرض:

– اسبقاني إلى المكتب.

وأشار إلى العجوز المرابط بجانب جهاز العرض, فخرج.

***

وبات الأستاذ موسى وهو في كرسيه قادراً على أن يُعتم القاعة ويشــغّل الجهــاز ويتفرج على شريط آخر ويشرح لجنان وإياس كأنهمــا لازالا إلــى يميــنه ويساره، وكأنه هو من قام بالتصوير والتعليق والتحقيق. وأحسّ بالامتنان لجنان التي اختارت إياس لهذه المهمة, ثم اختارت الدكتورة ربى لمساعدته عندما طلب المساعدة. وأحــسّ بالشفقة على إياس والدكتورة ربى. ثم لاقى خجولاً زهوه بفكرة التحقيق الخاص به. ورأى نفسه في جناح خاص في أوتيل آفامــيا، ورأى العاصي الغاضب يهجم على شرفة الجناح، ورأى إيــاس والدكــتورة ربى معاً يتذمران من اتصال الوزير بهما كل ساعتين. وابتسم غافراً لإياس ما أثار به شبهة التحقيق الرسمي في الأوتــيل وفي زيزون. ولاقى خجولاً زهوه بتأمين الحماية لإياس وللدكــتورة ربى وبتيسير مهمتهما. ورأى المهندس عساف كوكب

يجلس أمامهما وقد تجرد من اعتداده بمن أسندوا إليه منصباً تلو المنصب حتى صارت له كرسي عوامة تتوسط بحيرة زيزون قبل أن تصير قاعاً صفصفا. ورأى إياس يتحول من سجين شائه الجلد إلى محقق وسيم يسأل عساف: أنت مهندس مدني يا عساف؟

: نعم يا أستاذ إياس. ودرست الهيدروليك حتى عميت عيناي.

: ألم تشعر بالمخاطر منذ بقبقت المياه في بيوت الفلاحين؟

: البقبقة بدأت قبلي.

: هل تعتبر نفسك مؤهلاً لمسئولية سد مثل سد زيزون؟

: يعني.

: إذا لم تكن مؤهلاً لماذا قبلتها؟

: من يرفض منصباً مثل هذا المنصب غير الأبله؟

: لكنها مسئولية خطيرة.

: ما خطر لي أن الأمر سيصل إلى هذا الحد.

وأخذت كرسي عساف العوامة تندفع مع الماء المندفع من بوابة السد التي صار عرضها فجأة مئات الأمتار. وظهرت في الأفق البعيد نيران مشبوبة تلونها شمس العصر سواداً في الذرى وحمرة قانية ومموردة ومصفرّة في اللجة وفي القاع.

وظهر في شريط الأستاذ موسى حارسٌ في مخفر الأحراج على واحدة من القمم الخضراء المقابلة لزيزون يصيح في الهاتف: يا سيدي حريق في زيزون. جهنم يا سيدي.

: حريق يا حمار آ؟ ولكْ السد نفسه طار.

ثم أخذت لقطات الشريط تتسارع وتتداخل:

إياس يسأل: لماذا لم يتم استلام السد رسمياً رغم استثماره منذ أربع سنوات؟

وجه 3: الإدارة لم تستلم أي مشروع من شركات القطاع العام منذ 15 سنة أو أكثر.

إياس: لماذا؟

وجه رقم 1: لدينا عُرْف يقول: تاريخ دخول المياه إلى أي منشأة مائية كلياً أو جزئياً ووضْعُها في الاستثمار هو تاريخ استلام أوّلي, حتى لو لم يكن هناك محضر خطي.

إياس: إذن السد مستلَم وغير مستلَم.

وجه 1: عليك نور.

إياس: لماذا لا توجد مراقبة للسد؟

وجه 2: لأنه لم يُعيَّن حارس للسد.

إياس: لماذا لم يُعيَّن حارس للسد؟

وجه 5: لأن آبار المراقبة في جسم السد غير منفذة كما في العقد. ومعلومكم يا أستاذ أن هذه الآبار التي لا تلحظها العين هي التي تكشف الرشوحات والتسريبات أولاً بأول.

وها هو إياس يصدق أنه محقق بامتياز ويخبط ملفاً فوق ملف على طاولة عارية ويصيح: إذا كان عساف كوكب مداناً بالفساد مرتين، فلماذا لم يُحاكَم؟ تحققون مع فلان وعلاّن ثم تقولون له: شرّف يا ضناي. هذا منصب جديد عساه يليق بقفاك. وتراءى للأستاذ موسى الفرن العجيب الذي يُقال إن إياس قد شُوي فيه. وخُيّل للأستاذ موسى أن إياس ينطّ حول الفرن مثل القرد, وأنه سيشوي عساف كوكب بعد قليل. لكن وجه إياس أضاء عيني

الأستاذ موسى بريئاً مثل وجه طفل. وظنّ الأستاذ موسى أن إياس سـيعاتبه لأنه رفض أن يصرف المجمّع نفقات علاجه. لكن إياس أمـر الأستاذ موسى: انظرْ واصغ, فنظر وأصغى, فرأى وجوهاً تتماوج شوهاء وأصوات غريبة يزيدها هدير الماء غرابة:

: كان عليك أن تجفف البحيرة وتعالج التربة.

: المياه زادت فوق المنسوب والمفيض مغلق بإحكام يا سيدي.

: القـرار بـأن التسرب طبيعي هو حكم على السد بالإعدام يا سيدي.

: يجـب أن نشكل مؤسسة أمنية للعناية بأمن المنشآت الهندسية كالسدود والأنفاق و..

: عليـنا أن نسـتعين ببيـت خبرة عالمي في دراسة ظاهرة التسريبات ومعالجتها في السدود كلها.

: لجنة التحقيق ستنقسم إلى لجنتين: لجنة فنية ولجنة أمنية.

: اللجـنة الأمنـية تضع اللوم على التصميم والتنفيذ, أي تبرئ ذمة التشغيل.

: اللجنة الفنية تحمل المسئولية للتصميم والتنفيذ والاستثمار.

: محكمة الأمن الاقتصادي.

وهنا انقطع شريط الأستاذ موسى، وأحسّ بنفسه ينوء تحت ثقل هائل. وفكر بأن عليه أولاً أن يزيح عن كاهله إرث عمه الدكتور عيسـى, ولكـن دون أن يمسه أحد بسوء. وعزم على أن يكافئ إياس, ولكن ليس بالموافقة على صرف نفقات تجميل وترميم جلده, بـل بالسماح له في أن يخبط الخبطة الصحفية التي يحلم بها, فإن سـرّعتْ بأجلـه، فـلا أسف عليه, وإن صنعت له مجداً, فالمجد

للمجمّـــع 21 فـــي عهده الجديد. واسترخى الأستاذ موسى لزهوة خفـــيفة: أحســـنتَ بـــزجّ ربيع في مهمة التحري على السدود كما أحسنتَ بزجّ إياس في التحقيق بكارثة زيزون. وتمنى لو أن جنان الآن تملأ الكرسي الملاصق ليدع ذراعه تتسلل إلى كتفها, أو لتدنو برأسها من كتفه, فيرتوي من رائحتها لأول مرة، بل ليقبلها لأول مرة, لكن شبح الدكتور عيسى وشبح ربيع انتصبا أمامه, فانتفض واقفاً ومتحدياً, فاختفى الشبحان, وشعت القاعة بضوء باهر.

3

عقد من الوشم

احتفالاً بالطلاق دخلت شهلة صالون مرمر لأول مرة. كانت قد سمعت بالصالون من رئيستها في مطبعة السالمي أم يامن: بسّ روحوا شوفوا يا بنات! بدكْ تشقّري شعرك؟ بدّكْ تجعّديه؟ ولاّ بدّكْ ترفّعي حواجبكْ وترْفَعيهن؟ لو تشوفوا البنات الزغار شو بيعملوا. والله العظيم أزغرْ منّكْ يا شهلة. اللي بدّها تكبّر بزازها واللي بدّها تزغِّر طيزها واللي... مدام مرمر أكيد ساحرة.

صافحت شهلة الساحرةَ بتهيّب. وحين سألتها عما يمكن أن تقدم لها, تلعثمتْ وقالت:

– فنجان قهوة حلو.

– قالت مدام مرمر بمرح:

- تكرمْ عينك يا حلوة. بسّ أنا عمْ أسألكْ عن اللي ممكن أعملْ لك إياه: شعرك؟ أظافركْ؟ ولاّ بدّكْ شي تاني؟

كانت عينا مدام مرمر تتفحصان شهلة وهي تسألها. ولعل ذلك مـــا ضرّج وجنتيّ شهلة واستفزها, فسألت وهي تهرب من عيني الساحرة:

- شو يعني شي تاني؟

- بطن, ورك, إجرين. بسّ اسم الله حارسك أنتِ كاملة مكمّلة.

قالت الساحرة وهي تمسك بيد شهلة وتقودها إلى غرفة أخرى تتوهج بصور فاتنة لم تعرف من صاحباتها إلا نانسي عجرم, وفي تلك الغرفة تعرفت على رحاب نجا.

كـــرمى لأم يامن رفضت مدام مرمر أن تأخذ من شهلة أجراً لقـــاء قصّ شعرها وتسريحه. وإثر زيارتها الثانية للصالون توالت لقاءاتهـــا برحاب. وربما كان ذلك في البداية مداورة لرغبتها في ملامســـة سحر مدام مرمر. لكن سحراً آخر لرحاب أخذ يأسرها: أصغر مني بكم؟ عشر سنين؟ وهاهي طافرة من آخر الدنيا للشام. سنة ثالثة مكتبات ومروّجة لصالون مرمر!

إلـــى عـــالم ملون ستقود رحاب صديقتها الجديدة: مثل حاجبي بـــروك شـــيلدز وشمتُ. لماذا؟ لأنهما وحشيان. ولكن مطيع قال: شـــكلك شريرة. مطيع أول من صادفته بدربي في الشام. قلت له: مـــع السلامة. عندما وشمت حاجبيّ وشفتيّ لم تكن واحدة في قسم المكتـــبات ولا في كلية الآداب كلها تعرف الوشم. بعد مدة أزلت الوشم ورجعت المياه لمجاريها مع مطيع. لا تتركي ظنونك تلعب. أنـــا لازلت عذراء. لكن اللعين له فضل كبير عليّ. علمني مثل ما

علمتني مدام مرمر. كان يحضر لي العدسات الملونة ويقول: بيعيها لزميلاتك والربح بيننا مناصفة. حتى لطالبات الثانوي صرت أبيع. كنت أسأل نفسي من أين تأتي المفعوصة بألفين ليرة؟ ولِكْ بثلاثة بأربعة؟ أقل عدسة بألف وخمسمية, والمفعوصة تتقصع وتمط صوتها: العيون سرّ تألّقك يا روحي. أنا أفضّل لون عيون ليلى علوي. تكرمي يا روحي! أما الزبونة الأفضل فهي من تبدل العدسات: روشنة شباب يا روحي. طبعاً كنت أتلهى عن الدراسة، لذلك ما كان أمامي إلا حبوب السهر في كل امتحان. تعلمت التدخين بسبب السهر والامتحان. ولكن بعدما عرفت طريق مدام مرمر ارتحت. مطيع هو من دلني على الطريق, مع أني كنت قلت له مرة ثانية: مع السلامة, مدام مرمر تكسب الذهب مع أنها بدأت أفقر مني وأجهل. دورة قصّ شعر في بيروت. صالون صغير. نفخت شفتيها في بيروت. دورة تجميل. كبر الصالون. فتحت فرع الشباب وأنا ظننتها هسترتْ. مطيع كان يحلم بأن تكون له ذقن كلارك غيبل ولم يحقق له الحلم إلا فرع الشباب في صالون مرمر.

***

قبل أن تختفي رحاب من صالون مرمر وتنقطع عن شهلة لتصير الوشيّشة, كانت شهلة قد جربت تجعيد شعرها مرة, وتلوين خصلة بالفوشيا مرة. وكانت رحاب قد أصابتها بالعدوى, فتمنت أن يكون لها أنف جوليا روبرتس أو صدر هيفاء وهبي, وأن تكون

لسرتها حلقة, بل لحلمة من حلمتيها, بل للسانها, ولكن مستحيل يا رحاب. ما من مستحيل يا شهلة. كيف يا رحاب؟ صالون مرمر يا شهلة. مدام مرمر شريكة المركز التجميلي للدكتور طرفة خير الله. تجميل الأنف يبدأ بعشرين ألف ليرة ويصل إلى الستين. مدام مرمر تقبل بالتقسيط كرمى للزبونة الفقيرة مثلك, وبلا كفالة. بالمجمّع 21 دكتورة اسمها ربى، أظنّ ربى، كبّرت قفاها في باريس. صدقيني كبّرت قفاها ولكن المسكينة صار لها فردة أكبر من فردة. من صحح العيب؟ مركز الدكتور طرفة, ولكن عن طريق مدام مرمر. الدكتورة ربى زبونة الصالون من يومه الأول, ومثلها كثيرات من أكابر البلد. ومن الأصاغر من هي الزبونة يا رحاب؟

تجدد السؤال عندما بات جلياً أن الأثر الذي تركه الطوفان في عنق شهلة شائه ولن يزول إلا على يد الدكتور طرفة خير الله: رحاب تؤكد، ومدام مرمر تؤكد, وعيون الزميلات في السوق الحرة تؤكد, وعيون الزملاء التي ترتد جزعة عن الأثر الممتد من تحت الأذن حتى الحنجرة, وتتملى متحسرة وتؤكد؟

قال الدكتور طرفة: بسيطة. وغاب دقائق لتتأمل مكتبه على مهل: شهادة الإيزو, لوحة الشفتين التي ستجعل شهلة تبتسم وهي تقرأ في أسفلها: تمّها قد الفستقة تقول خاتم سليمان. ولوحة الأربعينية القصيرة العبلاء التي ستجعل ابتسامة شهلة أكبر وهي تقرأ في أسفلها: يخزي العين مكبسّة تكبيس. وهذا إعلان فاقع تحت زجاج الترابيزة: نحت الجسم ـ شفط الشحوم ومعالجة

الســيلوليت ــ فــريق من الأطباء المتخصصين وخبراء التجميل؛ ودخل الدكتور طرفة فرأت شهلة نفسها تسأل:

- مدام مرمر شريكتك دكتور؟

ثــم رأت نفســها تعتذر عن خطأ لابد أنها ارتكبته كي يضحك الدكتور الذي سيلمس ذقنها بجرأة, وسيمرر بجرأة أكبر أنامله على عنقها كأنه ربيع ذات مساء بعيد. وسيطلب منها أن تستدير, ويرفع شــعرها عــن العــنق المشدوه, ثم يقول: بسيطة, ثم يداعب أذنها ويقول: مدام مرمر تأخذ نسبة على الزبونة. وربما قال أيضاً: مدام مرمر صديقتي منذ الصغر, ولأنك صديقتها تخلت عن نسبتها مما ستدفعين, وأنا سأتخلى عن نسبة, فودت شهلة أن تسأله عن السبب, أو أن تشــكره, لكن عنقها افتقد أنامله فسكتت. ولم تستطع من بعد أن تنــبس وهو يقترح أن يزين هذا العنق الجميل عقد من الوشم, فلا يبقى للطوفان أثر.

4

القبر يفغر

خلف محاكمة المتهمين بقضية زيزون تواصلَ وتفاقم لهاث إياس, متدرعاً بأنه رجل الأستاذ موسى نزهان. وسرعان ما بدا اللهاث كابوساً يقذفه من ليل إلى نهار ومن مكتب إلى سجن ومن محام إلى قاض حتى صدرت الأحكام, فتفجر الكابوس بإياس, لكأنه خبير بوسعه أن يرتب المسئولية في القضية ويرشد المحاكمة, أو قاض يشيح عن الخبير, أو مدير سابق أو معاون مدير لاحق أو مستشار هارب أو مدير لاحق أو معاون مدير هارب أو مستشار سابق أو مهندس عجوز أو مهندس شاب أو أيّ متهم بري أو بريء متهم, فمن ينصف مَنْ ومن ينصر من ومن يمنع إياس من أن يتفجر بكابوسه في المؤتمر الصحافي الذي سينعقد في وضح النهار؟

***

لا أحـــد يـــدري كيف تغلل المؤتمر بغلالة فوق غلالة: واحدة توصـــي باللفلفة, وأخرى تستبعد الإعلام الغريب, وثالثة تسأل عن المصـــلحة الوطنية بنبش القضية بعد هدوئها, ورابعة تسأل نفسها عن حقيقة ما جرى وتضرب كفاً بكفّ مرددة: لا حول ولا قوة إلا بـــالله. حتى إذا صار وضحُ النهار عتمةَ الليل صدّق إياس أن سد زيزون لازال قائماً كأن شيئاً لم يكن. وأقسم على أن ينشر التحقيق الـــذي قـــام به. ووضع له مقدمة جديدة تؤكد أن كل مهندس مدان حـــتى تثبـــت براءته, وتقترح إحداث فروع لنقابة المهندسين في الســـجون, ما دام قانونها يسمح بإحداث فرع في كل محافظة يزيد عـــدد المهندســـين فيها عن خمسين, ومادام سجنٌ واحدٌ فيما يقال يستضيف أكثر من مئة مهندس, وما أكثر الشائعات!

غـــير أن إياس تراجع عن نشر تحقيقه, ليس فقط لأن محكمة الـــنقض نقضـــت الأحكام وأمرت بمحاكمة جديدة, ولا لأن ربيع ومعتصم حذّراه من النشر, ولا لأن جنان أكدت أن الأستاذ موسى ســـيوفده إلى الخارج للعلاج, بل لأن الأستاذ موسى كلفه بالذهاب إلى فرع الجزيرة وإعداد تقرير عما يجري فيه منذ تقررت تصفيته.

***

علـــى الطريق الصحراوية أخذ السراب يلاعب عينيه بذراعي ونسة المشرعتين لعناقه, كأنها تبشّره الآن بقدومها, أو كأنها عادت

الآن طفلة تصغي له وهو يحكي حكاية أبيه وعمه زوج أمه وأمه وأخيه الميت وأخيه الهارب, أو كأن رحاب الآن تقطع لها بطاقة السفر وتتفرج على وداعها له: بسّ أطّمنْ على أبي راجعة وإذا طوّلْت الحقني. لكن مرض أبيها أبعد رجوعها, وزيزون أبعدت لحاقة بها حتى كافأه الأستاذ موسى بهذه المهمة التي ستبدأ في طية السراب التالية, بل التالية, بل التالية, حين يستقبله الدكتور سامر عطوف الذي كلفه الأستاذ موسى بتصفية فرع الجزيرة بعدما أعفاه من رئاسة الدائرة القانونية: هذه أفضل شقة بين شقق الضيافة في هذا الفرع, والدكتور عيسى نفسه كان ينزل فيها.

وونسة يا إياس؟

* * *

في الصالة الصغيرة يدور إياس حتى يطرد ذكرى الدكتور عيسى. وفي غرفة المكتب يتشهى مكتبته. وفي غرفة النوم يسكره نداء ونسة متموجاً على النافذة, فيلبث يقظان وغافياً حتى يلبي النداء, وقد بزغت ونسة شمساً لهذا الصباح, تتراقص على ذؤابات الحور, كأنها بقية ناعسة من القمر.

بين السابعة والنصف والثانية عشرة سيكون إياس قد صدق أن ستين بالمئة من فرع المجمّع قد أُنجز تفكيكه, مادام الدكتور سامر عطوف يسرّح مئة فمئة من العمال ومن صغار الفنيين والموظفين, ويتركهم يلاحقون التأمينات الاجتماعية التي لم يسدد المجمَّع نصيبه منها في العهد البائد ـ وليست في أولويات العهد الجديد ـ ومادام سيحتفظ بعدد محدود من كبار الموظفين والفنيين, ولكن بعد

أن ينقلهم إلى فروع أخرى بعيدة من فروع المجمّع, ومادام يحيل وسيحيل الشكاوى الصامتة والجهيرة والدعاء والرجاء والوساطات إلى الأستاذ موسى كما أمر. وغداً أو بعد غد, كما في الأمس أو أي أمس منذ بدأت تصفية الفرع, سوف يبيع الدكتور سامر بشهادة إياس ما يمكن بيعه من الأثاث والآلات والمخزونات والمقرات إلى من يشتري, بلا مزايدة ولا مناقصة، بل بعقود التراضي التي يتشكك إياس في نزاهتها, كما يتشكك في أن يكون هذا كله غير جناية على المجمّع وعلى البلاد كلها, فيعزم على الفرار إلى ونسة, لكن الدكتور سامر عطوف يحاصره بدعوة الغداء. ولأن المحافظ استدعى الدكتور سامر في الثانية عشرة والنصف, فقد كلف بمرافقة إياس من اختار من مهندسي الفرع ليكون مستودع سره وساعده الأيمن: الأستاذ راكان درويش.

* * *

تذكّر الأستاذ راكان هذا الشاب الذي رآه يعزي عابد نوري باسم الدكتور عيسى نزهان, وترحّم على صديقه حسين. وسأل إياس عما إن كان يعلم بقدوم ونسة شقيقة المرحوم من ألمانيا منذ فترة قصيرة, فأنكر إياس وهو يتأمل هذا الذي خطف ونسة بعد تخرجه من الجامعة, أو خطفته ونسة عندما كانت في السابعة عشرة. وسرعان ما بدا أن كأس العرق الكبيرة الأولى قد فعلت فعلها في راكان, إذ ثقلت نظراته, وتلون صوته بالحنين, وبدا كأنما يخاطب نفسه:

- كـــان أبي رحمة الله عليه وعابد نوري صديقين أكثر منهما شـــريكين فـــي زراعة الحنطة والشعير. أبي رحمة الله عليه هو كـــريف حســـين الابـــن البكر لاسماعيل. وضع اسماعيل ابنه في حضـــن أبي بعدما ختنه الشيخ, وسقطت نقطة دم على بنطال أبي فصار كريفه.

وتساءلت عينا ربيع, فاندفع راكان:

- لابـــد أنك تعرف أن حسين وأهله يزيديون. والكريف عندهم يؤاخـــي المختون ويفديه بروحه. لكن الزواج محرم بين الطرفين, لذلـــك يختـــنون أمام المسلم. بل الأفضل أن يكون الكريف صديقاً مســـلماً ووجـــيهاً معروفاً مثل أبي. مات أبي يا أستاذ إياس وهو يوصـــيني: حســـين أخـــوك, وكان حسين ابن سبع سنوات عندما ختـــنوه. أخّـــروه لأنـــه كان البكر المدلل. وحسين نفسه روى لي ذكـــرياته. كـــان في السابعة أيضاً عندما قصّوا له أول خصلة من شـــعره وذبحوا ثوراً. هذا هو البسك يا أستاذ إياس. وحسين يذكر أن الشـــيخ قـــال له عند الختان: قل أنا خروف يزيد المنير, فتلعثم مرة بعد مرة حتى قالها الشيخ عنه.

وعـــاد راكان يغبّ العرق وإياس يفكّر في أن زواج ونسة من هذا الخاطف أو المخطوف, لم يكن محرماً فقط لأنه مسلم, بل لأنه ابن الكريف أيضاً. وانتظر إياس أن يستذكر راكان خطف ونسة. لكن راكان صمت طويلاً, ثم تنهّد بأسى وقال:

- عـــابد نـــوري لم يعد متعصباً مع أن أباه جاء من سنجار, ويزيدية سنجار يقال إنهم أكبر تعصباً من غيرهم. وكما كان يحير

أبي لازال يحيرني. هو يعدّ نفسه سورياً وعراقياً. يعد نفسه كردياً وعربياً. هل تصدق؟

أومأ إياس بالإيجاب وهو يفكر في أن ونسة سورية وعراقية وكردية وعربية. وتبسّم عندما فكّر بأنها مسلمة وإيزيدية، وربما صيّرتها ألمانيا مسيحية أيضاً. لكن راكان فاجأه بعدما غبّ من كأس العرق غبّة كبرى:

- والدي كان يصدقه. أما أنا فلا أصدق كافراً. وهذا الكافر يا أستاذ إياس لازال يرعى صلاته بأقربائه في سنجار وفي الموصل وفي ألمانيا.

وقهقه فجأة ثم قال:

- اليزيدي يعتقد أن لغة أهل الجنة هي الكردية. أرأيت الكفر؟

فتململ إياس وقال عاجزاً عن أن يخفي ضيقه:

- لا تكفّر الناس يا أستاذ راكان. كل إنسان حرّ بما يعتقد.

قال راكان بحزم:

- لعنة الله على القوم الكافرين.

- يكفي الشيخادي أنه حرّم على أتباعه اللعن بعدما كان كل فريق يلعن الآخر ويكفّره كما تفعل الآن.

قال إياس بانفعال, فردّ راكان ساخراً:

- أنت مطّلع. نسيت أنك تعمل في المكتب الصحفي للمجمّع.

قال إياس وهو يحاول أن يكون هادئاً:

- لا يهم ما إذا كنت مطّلعاً أم جاهلاً. المهم أن ترى إلى أين وصلت بنا طريق تكفيرنا لبعضنا ولغيرنا. المهم أن ترى إلى أين وصل بنا لعن بعضنا بعضاً ولعن غيرنا.

فعلا صوت راكان:

- كيف ينسى أستاذ مثلك أن أتباع الشيخادي هذا ساعدوا يزيد على الحسين مقابل أن يتركهم على هواهم؟

- قد لا يكون هذا صحيحاً. ولو صح فقد مات بالتقادم.

- قد تكون مطّلعاً أكثر مني, لكنك لا تعرفهم مثلي. أنا عاشرتهم وخبرتهم. هم يحسبون أنفسهم من غير طينة البشر. ما بقي إلا أن يقولوا مثل اليهود: شعب الله المختار. هم يظنون أن صاحبهم وصاحبك الشيخادي سيحملهم على طبق إلى الفردوس. كيف يدخل الجنة من يقول بسم الله الرحمن الرحيم ويرفض أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؟ كيف يدخل الجنة من ينكر أنبياء الله؟

وكان إياس يتلّفت حذراً وخجلاً من انتباه الآخرين. وهمَّ بالوقوف بينما رقّ صوت راكان كأنه يكلم نفسه:

- احذر الشيطان يا أستاذ إياس. لولا لطفُ الله لكنت أنا وقعت في حباله. أنا خائف عليك.

وصمت محروراً, لكن صوته راح يتغلغل في سمع إياس مسمياً ونسة بالشيطان، فانحنى على راكان وهمس:

- أنت خائف عليّ وأنا خائف منك.

- لماذا؟

- لأن الشيطان هو أنت، أو لأنك شبيهه. أقصد شيطاننا نحن لا شيطان غيرنا.

قال إياس وأسرع بالخروج تلاحقه لعنة راكان ودهشة الطاولات المجاورة والنادلين.

***

ثم أسرع إلى ونسة كأنه يسابق راكان إليها, أو كأنه يهرب من راكان إلى ملجأه الوحيد في بيتٍ يتصدر خربة بدرخان التي ظللتها ونسة ذات يوم بوعد غامض, بينما كان إياس يعزي عابد نوري بابنه. وهاهي الخربة تزداد فتنةً بظلال ونسة, ووعْدُ ونسة يزداد غموضاً, والبيت الذي كان يعجّ بالمعزين هادئ, وعابد نوري ملء سريره لا يكاد يقوى على النهوض كي يرحّب بالضيف لولا أن الأستاذ صبري رمّو يسنده, وابنُ حسين يلبد في حضن الضيف ليصغيا معاً إلى شكوى المريض من سنيّه التسعين, ثم يلبي الطفل نداء جدته ويترك الضيف لجده ولونسة وللأستاذ صبري الذي يخاطب ونسة:

- راكان درويش تطاول على إياس بسببنا. ولكن الأستاذ إياس دافع عنا ولجم راكان.

- لم تكن في المطعم يا أستاذ صبري.

قال إياس مشدوهاً, فقال صبري مبتسماً:

- لا لم أكن. ولكن أحد الجالسين على الطاولة المجاورة لطاولتك حكي لي.

ونظرت ونسة إلى إياس ممتنة ومواسية:

- لا أحد ينجو من شرّ راكان.

وقال عابد نوري:

- اتركونا من سيرته.

لكن صبري خاطب إياس:

- مـــن أيامـــي الأولـــى معـــه في فرع المجمّع تعّمد أن يلعن ويستفزني. لكن واحدنا يصون لسانه يا أستاذ إياس. بعد فترة أراد أن يســـخر مني ورسم دائرة حولي. كنا أمام السد الجنوبي وحولنا عمّـــال وموظفـــون. قال: الآن حبست صبري رمّو. أمسكته من صـــدره وكـــدت أن أكســـر أضـــلاعه وأخنقه بلا كلمة. غضبت وأخطأت. واحدنا ليس ضعيفاً يا أستاذ إياس. وعلى كل حال صار راكان بعد ذلك اليوم يتحاشاني, لكن لسانه في غيابي لا يرحم.

قال عابد نوري:

- نحن يا أستاذ إياس لا نشتم ولا نستغيب. نحن لا نسرق ولا نكذب.

وكأنّمـــا حـــنّ إلى زمن دائل، أخذ ينادي أشتات ذكرياته: حين كنـــت شـــاباً مثلك يا أستاذ إياس واندلع الحريق بين شمّر العراق وشـــمّر الجزيرة وبين البو متويتْ والجحيش في الموصل ومعهما إيـــزيدية ســـنجار, فتهدّم هذا البيت مثل مئات البيوت ونجوت من القتل الذي أدرك المئات, وما نالني إلا جرح بسيط في هذه الكتف. ولـــم ينطفـــئ الحريق حتى تدخلت القوات السورية والعراقية في الصيف الذي جلت فيه فرنسا عن سورية, فعمّرت البيت قبل حلول الشتاء ولكني هجرت خربة بدرخان ونزلت إلى المدينة.

وأغمـــض عينيه وسكت كأنه لا يريد أن يتذكر أنه ما عاد إلى الخـــربة إلا بعدمـــا استعاد ونسة من راكان درويش. وكأن ونسة أشفقت على أبيها منها وليس من راكان, فتابعت أن الجزيرة كلها بعـــربها وكردها وقفت مع شمّر, فصدّق إياس أن ونسة مثل أبيها كـــردية وعربـــية, بل سورية وعراقية، ونظر إليها مستزيداً, لكن

أباهـا سـأل عـن العشاء اللائق بالضيف, فخرجت ونسة. وتابع صـبري كأن ونسة أسندت سلوى إياس له, فأخذ إياس يتطوح مع الإيزيديين من قبور البيض إلى أودية الخابور وجغجغ, ومن رأس العيـن إلـى جبل عبد العزيز, ومن جبل قره طاغ إلى ديار بكر, لكأنـه يجري خلف أثر لونسة وصبري دليله وونسة تطير بنسبها من عشيرة إلى عشيرة, فتصير مرة من الهاوركية ومرة من فرقة الصـوان ومـرة من الملّية ومرة من قوبان ومرة من شرقيان أو خـالدان أو دنادا أو أي فرقة من الفرق الإيزيدية في الهزار ملّت, أي في الألف ملة كما يشرح هذه المرة عابد نوري قبل أن تظهر ونسة، فيتنهّد وينشد متوجعاً:

ومسقطُ رأسي أرضُ كردٍ وربعها وقد كان منها نشأتي ثم نشـوتي
ولم يبق من روحٍ وصفوٍ وراحةٍ بأوطان كردٍ أو سرورٍ وبهجـةِ
مرابُع لا يحلو بها عيشُ قاطنٍ ولـو أنه يأوي إلى رأس قلّـةِ

* * *

أسرّ الدكتور سامر لإياس أن راكان درويش ليس متعصباً دينياً ولا قومـياً، وإن كان يعطي هذا الانطباع. لكن إياس نسي راكان درويـش، ونسي أن الدكتور سامر إنما يقربه اتقاءً لشره، ونسي وصية الدكتور سامر بالحذر في علاقته مع بيت عابد نوري ومع صـبري رمّـو، وأسـرع يلبي دعوة ونسة إلى عرس بنت خالها خوخـة، لكأنه هو العريس، وكأن ونسة هي العروس، وبالبشماغ الأحمـر تغطي رأسها، وتعرّج في طريقها إلى بيت العريس على

الجـــامع، وعـــندما تـــبلغ البيت ترش الماء يميناً ويساراً، وإياس ينتظرها عند العتبة بحفنة تراب، ويختار له أخاً في الآخرة لتختار ونســـة لها أختاً في الآخرة ثم يكرع النبيذ كرعاً، وينطّ مثل القرد لكل ضربة على الطبل كما كان ينط قبل أن تأمره ونسة بالبرء من أثـــر الســـجن. وفـــي منتصـــف الليل يصحو على أن خوخة هي العـــروس، وأن شـــاباً يشـــبه صـــبري رمّو ــ لأنه أخوه ــ هو العريس، فيؤوب إلى شقة الضيافة التي تزيدها الخيبة سكراً فتلفظ إيـــاس عن السرير الذي ينتظر ونسة، وونسة تظل تأتي ولا تأتي إلـــى أن يغفو إياس أخيراً فيراها عذراء العرس التي لم يقربها لا راكـــان درويـــش ولا ربـــيع لشلاش ولا صديق نمساوي أو غير نمســـاوي ولا إنســـيّ ولا جنـــي، بل هو شعاع يأتيها من السماء فتســـطع، فيرسلها عابد نوري إلى أرومية لتتزوج فلاحاً لا يمكن لـــه أن يتســـمّى بغير اسم إياس الذي يظهر له ملاكان ويناولانه غصـــناً من الهارما قد مُزِجَ باللبن في ليلة العرس هذه، كي تحمل ونسة نوري من إياس قمر الدين، وكي ينطوي الحمل الذي تحميه الملائكة فتلد ونسة من ستضيء به خربة بدرخان وهو يسطع مثلما سطعت ونسة عندما جاءها شعاع من السماء، بينما لا يزال إياس رافلاً في غفوته وفي سكرته. وسيظل رافلاً في غفوته وفي سكرته حـــتى يعـــود إلى ونسة وشمس العصر تتذهّب، وعابد نوري نائم وعلى وجهه حلم أخير، ستفسّره ونسة بأنه حلم الحجة الأخيرة إلى لالـــش، فيصدّق إياس أن عابد نوري قد حجّ أيضاً إلى مكّة بعدما سلبته هانوفر ابنه وابنته، لكنه لم يرم الجمار ولم يطف ولم يشرب

من ماء زمزم ولم يُحْرِم ولم يسع ولم يقصّ ذؤابة شعره فماذا كان يفعل إذن يا ونسة؟

ولأن ونسة لم تكن تعلم ماذا فعل أبوها، لا في حجته إلى مكة ولا في حجاته إلى لالش، لم تجب. لكنها فاجأت إياس بأنها سترافق أباها في حجته الأخيرة، وكان ابن المرحوم حسين يتربع على عنق إياس ويمسك برأسه ويؤرجح ساقيه على صدره، وونسة تتقدمهما إلى المقبرة، فالطفل يريد أن يزور أباه، لذلك سينزل عن عنق إياس، وسيسرع إلى شاهدة القبر، بينما يقرأ إياس الفاتحة، ثم يترنم مع ونسة بالأغنية التي مات حسين وهو ويؤكد أن كروان غنّتها له وحده:

ياه يمّا وانا ع العين

شافني حسينو غمزني بعينه ياه ياه

دوا جرح قلبي يمّا

عند حسينو آه آه

وفجأة بدا إياس مروّعاً وهو يرى قبراً يفغر بجانب قبر حسين، وكأن ابن حسين وونسة يحثانه على ملاقاة القبر الذي راح يكبر ويقترب.

5

حرائق شهلة

في الليل أو في النهار دأبت شهلة على أن تغتنم غفلتهم عنها أو نومهم، لتقرب الكرسي من المرآة وتتفرج: عقد من المرجان يتلوى في عمق المرآة وسط الوحل أو يظهر ويختفي على وجه الماء الغاضب المعكر، أسماء يأخذها العجب ولا تصدق أصابعها وهي تضغط على عنق شهلة كأنها ستنتزع العقد الموشوم، والدة شهلة تتحسر على إبرة مجوّفة وشمت لها رسماً مبهماً على ظاهر الكفين، وجه رحاب ووجه مدام مرمر ووجه هاني ووجوههم ووجوههن في السوق الحرة: أنتِ هكذا أحلى. وشهلة ترى شهلة قادمة من عمق المرآة وحول عنقها الضماد الذي يوصي به الدكتور طرفة: لا تزيليه قبل أربع وعشرين ساعة. ثم يزيله هو بعد أربع وعشرين ساعة وقد خلا المركز إلا منه ومنها. وبالماء

البارد والصابون المعقم يغسل عنقها ويوصي: لا تعرضيه للشمس خلال ثلاثة أسابيع ولا تسبحي في البحر قبل ثلاثة أسابيع. وشهلة المرآة تُرجفها أنامل الدكتور طرفة وتتشرب صوته وهو يوصيها بالعودة إليه إذا تشهّى العقد الحكّة أو تورّم: حتى غبار الهواء يمكن أن يؤذي هذا العنق الذي أنعم الله به عليك.

وتحمد الله شهلة التي تتفرج، وتُسْلِمُ ذراعيها للمرآة كي تصدق هرف الدكتور طرفة وهما يشربان البيرة في سناك أمية: حتى الكاهنة الفرعونية آمونت وشمت ذراعيها وساقيها ـ تقف شهلة وتُسْلِمُ ساقيها للمرآة ـ وحول فرجها، فتشهق شهلة التي في المرآة وتحدق في هذا الرجل الوقح. وتضحك شهلة التي تتفرج كما يضحك الرجل المهذب. وتنزل سروالها، وتتقرى ما حول فرجها، مكذبة الرجل الوقح الذي يتابع هرفه غير مكترث بالفرج ولا بما حوله ولا بالسروال، لأنه ما عاد الدكتور طرفة خير الله، بل رجل الجليد الذي عرف الوشم قبل الفراعنة، بل يهودياً يجبره الفرعون على أن يَشِمُ فوق جبينه حرف الألف كي يُعرَفَ عبداً، بل يابانياً يَشِمُ بالحسك عنق شهلة وذراعيها وساقيها وفرجها نفسه، وطرفة المهذب الوقح يتابع هرفه غير مكترث، لأن الإبرة الكهربائية التي حلت محل الإبرة المجوّفة تلسع شهلة بمثل لسعة النحلة أو الشفرة الحادة، أو لأن الألم الأكبر سيكون حين ستَشِمُ شهلة كاحلها، أو لأن مثيلاتها من الموظفات الفقيرات اللواتي لا وقت لديهن للماكياج كل صباح، يتسابقن إلى ماكياج الوشم، والدكتور طرفة الوقح المهذب يتقاضى ما بين ثمانية آلاف وخمسة عشر ألف ليرة من كل موظفة فقيرة تبيع مصاغها أو تشترك مع زميلاتها في

جمعــية شــهرية، غير أنه لم يتقاض من شهلة سوى خمسة آلاف لــيرة، ولم يقبل أن تدفع ثمن البيرة في سناك أمية مساء الخميس الماضي، ولا ثمن فنجان القهوة في الموليّا مساء الخميس التالي.

غــير أنه لم ينتظر أسبوعاً آخر حتى تفي بوعدها: عازمتك ع العشا. بل انتظر فقط من الخميس حتى الأحد، ليهتف مقسماً على أن لا فــرق بيــن الخمــيس والأحد، وعلى أنه جائع، وعلى أنه سيصمها بالبخل إن لم تف بوعدها الليلة.

بحثت شهلة عن هاني كي تستدين منه حتى لو خمسمية ليرة يا أخــي، فلم تجده. وبحثت عن رحاب فلم تجدها، فلجأت إلى مدام مرمــر، واســتحلفتها أن تكتم السرّ عن الدكتور طرفة، ووصلت مــتأخرة نصــف ساعة إلى مطعم الصنوبر. وسرعان ما عادت تلمــيذة غريرة يلقنها الدرسَ الأول هذا اللسانُ الذرب: دعيك من المستحضرات وانسي الدعايات. لغيرك لا أقول هذا الكلام حتى لا أقطــع رزقــي ولا رزق مدام مرمر. سخّني نصف كيلو مايونيز واســكبيه على شعرك قبل الحمّام. لفّي شعرك بكيس نايلون ربع ساعة. اغسلي شعرك بالماء والشامبو، ثم اغسليه بخلّ التفاح حتى يزول أثر الشامبو، واتركي أصابعي بعدها تسكر بنعومة شعرك: نعيماً.

غير أن أصابع الأستاذ لا تنتظر التلميذة، بل تمسح على شعرها وتــتغلغل فــيه أمام الملأ. ورأس شهلة يميل صوب طرفة ويميل عــنه. وطرفة يلقن شهلة الدرس الثاني: اغسلي يديك بالماء الفاتر قــبل النوم وضعي عليهما الفازلين. البسي القفازات القطنية حتى

الصـــباح، ثم تعالي لأمرغ ذقني التي حلقتها وعطرتها للتوّ على يديك، فتسكر بنعومتهما كما تسكر الآن أمام الملأ.

ومـــن مطعم الصنوبر ستتهادى سيارة طرفة إلى كراج البرج الفضي في المزرعة، وشهلة تهمزها كي تكتشف عالم هذا الرجل الــذي لا بد أنه يأتي كل ليلة إلى نعمائه بواحدة جعل لها مؤخرة شاكيرا، أو على الأقل حاجبي نوال الزغبي. وها هو دور شهلة قد حــلّ، والحريق يضطرم بين جنبيها وفي صدرها وأنفاسها. لكنها تخشـــى ألاّ يُبقي الحريق منها أثراً، فتبربر بما يعتذر لطرفة الليلة أو بما يعده بليلة، فتطبق شفتا العجول على شفتيها، وتكسّر ذراعاه أضـــلاعها، بينما تستغيث أصابعها بعضوه فلا تُبقي منها الرعشة أثراً. وستظل ليالي بطولها هائمة بلا أثر.

إلا أن المرآة كانت تعيد تشكيل شهلة طوال تلك الليالي: شعرها صـــار ناعمـــاً كمـــا شـــاء له طرفة. يداها أيضاً. وهذا هو العقد الموشـــوم، هـــذا هو البنطلون الأزرق والقميص الأبيض المكسّم والـــبزة الزرقاء وازورار أبيها ودهشة أسماء وانبهار طرفة بهذه التي تشير إلى الصور المشلوحة فوق زجاج مكتبه، وتسأل:

- من هذه؟
- إيلين سيغارا. مغنية فرنسية.
- وهذه؟
- جيسيكا آليا. ممثلة أمريكية.
- وهذه؟
- نيكول كيدمان. هل رأيت فيلمها: الساعات؟
- لم أكن أعلم أنك تجمع صور الممثلات والمطربات.

- كنت أجمعها عندما كنت صغيراً وطائشاً.
- والآن؟
- الآن كبرت وعقلت.
- وبدأت تحنّ إلى الصغر والطيش؟
- هذه الصور جاءتني بها شابة صغيرة وطائشة اسمها لونا. أبوها المرحوم الدكتور عيسى نزهان. أظنك سمعت به.
- زبونة؟
- زبونة جديدة، لكنها زبونة استثنائية. جريئة جداً. سكس وزنطرة و..
- واصطحبتها إلى البيت أم لم يأت دورها؟

قالت مقاطعة، فنظر إليها لائماً، ثم أشاح عنها قائلاً:

- أنت تسيئين الظن بي. عملي حساس يا شهلة وأنا أداريه جيداً جداً. هذا لا يعني أني لا أصطحب إحداهن إلى البيت. لكنني أفضّل ألا تكون من أصطحبها منهنّ. ولولاك ربما كنت اصطحبت لونا. أنا عازب وأحب الحياة.

وعاد ينظر إليها وينفخ في النار حتى اندلع الحريق في أنفاسها وصدرها وبين جبينها. وخافت من ألاّ يبقى لها أثر، فاختطفت طرفة إلى بيته، وظلت تفترسه حتى لم يبق له أثر. وعادت إلى البيت تتكر أنها لم تباشر رجلاً أو لم يباشرها رجل طوال الشهور الماضية، منذ قرر ربيع أن تكون النهاية حيث كانت البداية: في السوق الحرة التي ستشهد حرائق شهلة كل نهار ما عدا نهار العطلة الأسبوعية ــ الأربعاء ــ فتصبر حتى يغلق طرفة المركز، وتجعله يفترسها كما تفترسه في بيته الفسيح الأنيق حتى لا يبقى

له أثر ولا يبقى لها أثر، فتعود إلى البيت منهكة، ويسرّها أن سعيد يكـــون نائمـــاً دائماً عندما تعود. أما إن صادف ألا يستطيع طرفة موافاتها إلا في وقت متأخر، فكانت تلاعب سعيد مساءً، أو تخرج بـــه في نزهة قصيرة، ثم تسلمه لأمها، وتسلم نفسها للعذاب ريثما يهجعون جميعاً، وتنسل إلى التيلفزيون، تبحث عن قناة غير مشفّرة لتبـــث لهـــا إعلانـــات أو مشاهد إيروتيكية نصف ساعة أو ساعة وربمـــا ساعتين، وأثناء ذلك أو فيما بعد ـــ في سريرها ـــ تتوسل لأصابعها علّها تطفئ الحريق.

6

سر الدكتور عيسى

وصـــل إيـــاس مـــتأخراً إلى الاجتماع الموسّع للجنة مناصرة العـــراق, فجلس في الصف الأخير قرب الباب, وكان أحدهم يعدد أسماء نجوم في الفن والسياسة والثقافة ممن يعتصمون ويعتصمن في بغداد درعاً ضد الحرب التي قد تكون أقرب مما تظنون: قال الـــرجل الســـبعيني. وتداخلت الأصوات طويلاً حتى أسفرت عن قـــرار تســـيير الرحلة الأولى إلى بغداد: للذهاب يوم وللعودة يوم ويومـــان للتضامن. أما من أراد أو أرادت الانضمام إلى الدروع العربـــية والأجنبية فالأمر له أو لها, وأرجو من الله أن ينعم عليّ بالشـــهادة فـــي بغـــداد: قال الرجل السبعيني الذي يقود الاجتماع, ودوّى التصفيق.

لـــو يســـتقيل الديكتاتور ويوفّر على نفسه وعلينا هذه الحرب: قالت جارة إياس. فالتفت إليها, وفكّر في أنه رآها أكثر من مرة في أكثر منتدى, وربما في أحد الاعتصامات. ولما وقفت سألها:

- أي ديكتاتور؟

فقالت وهي تلوّح لأحدهم أو لإحداهنّ:

- صدام حسين فيه غيره؟

قال إياس:

- ظننتك تقصدين جورج بوش.

- الأب أم الابن؟

سألت المرأة وهي تتجاوز إياس محاذرة احتكاك ركبتها بركبته.

- الاثنين.

قال ضاحكاً فانحنت عليه هامسة:

- كلهم أخرى من بعض. واحد بالسيلوفان وواحد عريان.

وابــتعدت ضـــاحكة, ووقف إياس يتفرج على المتدافعين نحو المنصّـــة. وفجـــأة رأى شهلة بينهم مشهرة يدها. وحين حسب أن عـــيونهما تلاقت ناداها فتلفتت, فنادى بصوت أعلى ورفع ذراعه عالياً, ولم يخفضها حتى رأتها شهلة وهزت قبضتها له مراراً.

بعـــد لأي اســـتطاع أن يقترب من المنصة. وخُيِّل إليه أن عقد المـــرجان يطوق عنق شهلة. وتساءل عما إن كان ذلك إشارة إلى العودة إلى ربيع. ولكن لو كانت كذلك لما تكتّم ربيع لحظة. وإياس إذن هـــو مـــن سينقل إليه الإشارة, ولكن بعد أن يسجّل اسمه في الرحلة الأولى إلى بغداد, ويلاقي شهلة التي ستنتظره قرب الباب, وستكون رفيقة الرحلة, وسيعانقها مهنئاً بسلامة النجاة من طوفان

زيــزون, دون أن يــنظر إلى عنقها, حتى يفتح لها باب التاكسي ويرى عقداً من الوشم.

عندئذ سيغرق في الضحك من نفسه ومن ربيع, وأصابعها تمسّد علــى العقد, وصوتها يؤكد أن هذا العقد أجمل من عقد المرجان, وأن ربــيع أكبر وفاء من إياس: على الأقل اتصل بي ليطمئن, أما أنت. وفكّر إياس وهو يقرّ بذنبه في أنها ترسل بالعقد الجديد إشارة إلـــى نفسها قبل ربيع: ما فات مات. وكاد لسانه يعتذر لها ويتعلل بانشغاله عن ونسة نفسها بالتحقيق في كارثة زيزون. لكن الحنين إلى ونسة عقل لسانه, وبدت شهلة تغالب ارتباكها وهي تتحدث عن معجزة الدكتور طرفة خير الله وأصابعها لا تغادر عنقها: انظر إذا كنــت لا تصــدق. وطلــب إيــاس من السائق أن يخفض صوت المســجّلة, فقــال الســائق بانفعال: فيه حدا بينزعج من القرآن يا أستاذ؟ وضغطت أصابع شهلة على كف إياس هامسة: اتركنا منه. بكــرة بتشوف عجايب الدكتور طرفة بسّ يبدا يعالجك. فقال إياس بضيق: الله كريم, ونظر السائق إليه في مرآته وقال: لا إله إلا الله.

* * *

تــرك إياس شهلة تنتظر الباص الذي سيقلها إلى المطار, وعاد إلى المجمّع مراوغاً السعال الذي أخذ يداهمه أقوى وأطول. وبدلاً مــن مكتبه, قصد مكتب ربيع فوجده أشبه بمن أيبسه المرض أو القنوط. وقبل أن يجلس بادره:

– ما بك يا ربيع؟

- جنان يا إياس.

همس ربيع أخيراً, وإياس يتأمل وجهه الشمعي.

- من البارحة لا حسّ ولا خبر.

أردف ربيع فقال إياس متكلفاً الممازحة:

- إذن طلبوها للتحقيق مرة ثانية. عليك بالأستاذ موسى.

قال ربيع كأنما يداري فضيحة:

- جنان مع الأستاذ.

- ليست أول مرة.

- صرت أسمع بسفر جنان من مدام سالمة ومن..

- ما الجديد يا ربيع؟ بعلمي أنه ليس بينك وبين جنان حتى صباح الخير.

- الجديد أنني لم أعد أحتمل هذا الوضع. لابد من حل.

- ما الحل؟

- لا حل إلا بالطلاق.

- ماذا تنتظر؟

- أنتظر عودة غِوى. أنتظر مصيري في المجمّع. لا أظنك تعرف أن اسمي في قائمة من سيتخلص منهم الأستاذ موسى. مدام سالمة أكدت لي ألف بالألف. هل يعقل أن تكون جنان هي السبب؟

أطرق إياس يفكر في جواب، وإذا بالأستاذ بيدروس يدخل متجهماً ويلقي بتحيته كأنه يبدأ شجاراً، ثم يجلس قائلاً:

- الدكتور عيسى صار تحت الإقامة الجبرية.

* * *

وسرعان ما قيل إن أسرة الدكتور عيسى قد لحقت به أمس إلى بيروت. كما قيل إن الدكتور عيسى يحتضر منذ ثلاثة أيام على الأقلّ، وإنه سينتقل إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، لعل وعسى.

وقيل إن حالته الصحية قد تحسنت في الأسبوع الأخير، وإنه كان على وشك مغادرة البلد بلا رجعة، لأنه مطلوب للتحقيق منذ فترة طويلة، ولم يورّث الأستاذ موسى إلا التفافاً على ذلك، وإن التحقيق معه قد أُجّل بسبب حالته الصحية في البداية، ثم بفضل علاقات الأستاذ موسى الخارجية قبل الداخلية.

وقيل إن دورية مسلحة تحرس بيت الدكتور عيسى، وإن لونا لم تسافر مع أهلها، بل هي محاصرة في البيت.

وقيل إن هاتف البيت مقطوع، وإن حراس البيت سمحوا للونا بمغادرته واللحاق بأهلها إلى باريس وليس إلى بيروت، ولذلك توجهت من البيت إلى المطار مباشرة.

وبانطواء ذلك اليوم كانت السبّحة قد كرّتْ: الدكتور عيسى نزهان ـ مضرب المثل في النزاهة ـ بلع ملايين الدولارات من الشركات الأجنبية التي تعامل معها، ومن المشاريع الضخمة التي نفذها المجمّع 21. المجمّع 21 خاسر منذ سنين ولم يعد للدكتور عيسى ما يملأ به الأفواه والبطون. الراشي الأكبر كان يسلّم مفتاح الشقة دولوكس مئتي متر أو الفيلا المفروشة بالأثاث الإيطالي والفرنسي والأميركي دفعة واحدة: هدية لفلان أو لعلان أو لعشيقة هذا أو لابن ذاك أو لأصدقاء هذا وذاك. مستودعات المجمّع 21

في المحافظات مفتوحة حتى لمن يُتوقع أنهم سيصعدون إلى السطح بعد مئة درجة. من فرط ما مارس الدكتور عيسى الجنس منذ شبابه لم تعد الفياغرا نفسها تؤثر فيه. الدكتور عيسى بلا علاقات سرية ولا علنية مع النساء لأنه عاجز وليس لأنه عفيف وشريف. أموال الدكتور عيسى في البنوك السويسرية والأميركية لا تأكلها النيران، والأستاذ موسى هو من كان يديرها. لهذا المليارديرالأفّاق وثلاث بواخر متخصصة بنقل الممنوعات بين موانئ العالم، والأستاذ موسى هو من كان يديرها. في جيب هذا الأخطبوط جواز سفر أميركي له وجواز لابنه وجواز لابنته والأستاذ موسى نفسه يحمل الجنسية الأميركية. هذا الأخطبوط كان طموحه سيحطمه عاجلاً أو آجلاً و...

***

وفي الصباح كانت مفاجأة الدكتور عيسى الكبرى: جنازة تخرج من الجامع الكبير بعد صلاة العصر إلى مقبرة الدحداح.

ومن الصباح إلى العصر كان كل من في إدارة المجمّع 21 كأن على رؤوسهم الطير.

وقبل صلاة العصر خرج ربيع وإياس مع قلة مشدوهة وحذرة من المجمّع ليلاقوا المرحوم إلى المقبرة. وعلى الرغم من أن الدكتور باسل تقدمهم، فقد قيل إن التعليمات تقضي بأن تكون مشاركة المجمّع 21 في التشييع رمزية: جنان أكدت ذلك لإياس،

لكـــنها نفـــت بشدة أن يكون الأستاذ موسى مصدر تلك التعليمات: فظاعة الناس شو بتحكي!

أمّا ما لم يستطع أحد أن ينفيه أو يؤكده فهو ما تردد منذ تردد نبأ الوفاة من أن المرحوم قد أطلق على رأسه رصاصتين أو ثلاثاً، أو مـــن أنه كان في سبيله إلى الهرب عبر الحدود التركية عندما تبادل الرصاص مع الحراس. كذلك تضاربت الشكوك في أن يكون المرحوم قد انتحر عندما اقتحمت دورية بيته، أو في أن يكون نُحِر ولم ينتحر كي تُدفَن معه أسراره فلا تهتك أستار كثيرين وكثيرات. وقـــد يكون الأجل وافى المرحوم حقاً كما تهامس من وقف إياس وربـــيع خلفهـــم في المقبرة حين وصلت الجنازة: خمس أو ست ســـيارات، سميحة ولونا متشحتان بالسواد وبينهما جنان المتشحة بالسواد أيضاً، سميح والأستاذ موسى يتقدمان الجميع، ثلاثة أكاليل.

وبيـــنما تقـــدم ربيع ليشارك في الصلاة، انتحى إياس بين قلة جانباً، وتراءت له قبة وقاعة وأحواضاً مزدانة بالورود ومستودعاً ومواقف للسيارات وبيتاً للحارس ووزراء ومدراء وضباطاً وتجاراً وشـــيوخ عشائر وكاميرات تيلفزيونية ورؤساء أحزاب ومكبرات للصـــوت تجـــأر بالرحيل والغياب ولا تذكر الموت، فهذه جنازة الدكتور عيسى نزهان، أي جنازة ورد قمر الدين شقيق إياس قمر الديـــن، ولا فرق بين الجنازتين ولا بين المرحومين سوى أنه لم يـــبق لورد غير أخ هارب وأخ يتفرج على هؤلاء المصلّين، بينما بقـــي للدكتور عيسى نزهان ابن أخيه الأستاذ موسى نزهان الذي سيورث للفتى سميح عيسى نزهان المجمّع 21 أو غير المجمّع 21، اللهم إلا إن آثر عليه من سينجب من صلبه، ليظل الدكتور عيسى

نفســه عصــياً علــى الموت، كما كان إياس يحسب أن أخاه ورد عصيّ على الموت، وكما كان سيحسب الآن الدكتور عيسى أيضاً، لولا أن الأصوات علت حول القبر: سبحان الحي القيوم.

7

مما روت ونسة لإياس

أنــت حكيت لي في بيتك وأنا أحكي لك في بيتي. لا تنس. هذا بيتي ولو كان مفتاحه معك في حضوري وفي غيابي.

أنـا أمزح يا إياس. من الأفضل أن يبقى لكل واحد منا بيته إذا ما عشنا هنا أو عشنا في هانوفر. الأصح أن أقول من الأفضل أن يكون لكل واحد منا بيتان: بيتك ، بيتي لك. بيتي وبيتك لي. ما هذا السعال يا إياس؟

أنـا لست صحافية حتى أرتب الكلام مثلك. وأنا ما عدت أفرق بيـن مـا عشته في الرحلة المباركة بعد زيارتك للخربة وبين ما قرأت وسمعت قبلها أو خلالها من والدي ومن غيره.

حسين مات وهو يحلم أن يقوم بما قمت به ليلمس بيديه ويرى بعينه ما قرأ وما سمع كما كان يقول. أنا رافقت أبي متضايقة لأنه مريض ولأنه مصمم على الموت بعد الحجة الأخيرة، ولأن مرضه خرّب إجازتي الطويلة وحرمني منك كل هذه المدة.

كانـــت الـــرحلة مضنية ولكن عندما وصلنا راح التعب. جبل هكـــار ســـاحر يا إياس. لالش فعلاً من الجنة. بعذرا أسطورة من الأســـاطير وحكايـــة من الحكايات. عن ماذا أحدثك؟ عندما سرد القـــوّال قصة الطوفان تذكرتك وتذكرت ما حكيته لي عن طوفان زيـــزون. خـــذْ حبة البراتا هذه. ابلعها حتى تشفى من السعال يا إياس. كم تمنيت أن تكون معنا. لا تجفلْ. أنا لا أدعوك إلي حجّنا. كثيرون يذهبون للتعرف. افرضْ أنك سائح أو مستشرق. في المرة القادمة نذهب معاً، ومادمت لست منا فأنت حر في أن تخلع حذاءك أو لا تخلعه. أنا خلعت حذائي ومشيت حافية. كنت سعيدة وخفيفة وصـــرت أرشق البنات بالماء من البركة الصغيرة. قبل البركة لو تـــرى النبع والصبايا بالثياب المبللة الملتصقة بجسم كل واحدة. لو تـــرى الوادي والماء الصافي وتسمع الضفادع وأنواع الطيور. لو تـــرى الشـــجر. لـــو تملأ صدرك بعطر البخور في المساء ساعة يعطرون المرقد. لو.. ماذا أحكي لك؟

مشـــينا فـــي دهلـــيز ضيق إلى المرقد. هيبته جعلتني أرتجف وأتذكر كم مرة هدموه. كم مرة نبشوه وكم مرة قتلوا من قتلوا منا وسبوا من سبوا من أيام الأرمني المملوك إلى أيام جدي الذي قتله الأتراك والعثمانيون.

فوق المرقد قبة بيضاء مثل المخروط وحوله غرف عديدة. طبعاً ركعت بعد أبي وقبّلتُ العتبة والأرض. تعرفت على واحد من الخدام وقال إنه خدم العسكرية في الناصرية قبل ست وعشرين سنة وعاشر فيها الشيوعيين مثل الأخوة. قلت لك لا أستطيع ترتيب الكلام مثلك ولكن سأحاول.

أنت تعرف أننا نقدس مكة ولا تنس أن أبي حجّ إليها. نحن نقدس القدس أيضاً وحسين كان يحلم بالحج إليها قبل حرب 1967. ولكني سمعته يقول بعدها إنه لن يحج إلى القدس ما دامت إسرائيل فيها. هل تظن مثلي أن حسين فكّر بالقدس لأن أبي ذهب إلى مكة؟

ليتك ترى العين البيضا. ليتك تصدق أنها زمزم المنقولة من مكة. لمست الحجر الأسعد التي كان يجلس عليها الشيخادي. ما رأيك أن نزور معاً خربة بيت فار حوالي بعلبك حتى نرى الأرض التي طلع منها الشيخادي؟

قلت لك لمست الحجر الأسعد يعني الحجر الأسود عندكم وطفت في فناء المرقد. وليلة العيد صعدت إلى رأس الجبل. أنا وأبي ذهبنا مبكرين كما رغب وحضرنا كل شيء من أوله. الناس جلبوا معهم الخبز والبرغل الناعم والدبس وأبي حمل معه العسل فقط. لو رأيت الجاويش يحمل طبق الخبز الرقيق ولو رأيت ونسة تسابق حتى تأخذ قطعة خبز وتركض إلى زمزم لتشرب. لو رأيت القوّالين والدفوف والشبابات وأنا مثل كل الشباب والصبايا أغني وأرقص.

على يمين المدخل إلى المرقد حية سوداء، وتحت المرقد صخرة منها تنبع زمزم وتحرسها الحية. عمرك رأيت حية مقلوبة رأسها إلى الأسفل وذنبها إلى الأعلى؟

اليهود يقولون: الحية أغوت حواء فأكلت من الشجرة المحرمة. ولكــن احزرْ من يقول: الحية من خُزّان الجنة ومن أحسن الخلق فيها وكانت صديقة لإبليس ولها قوائم ولكن الله عاقبها لأنها أدخلت إبليس على الجنة فأغوى آدم بشجرة الخلد وأكلت حواء وأكل آدم بغوايــة حواء. لذلك قطع الله قوائم الحية ومسخ صورتها وجعلها تمشــي علــى بطــنها وجعل التراب غذاءها وجعلها عدوة البشر والبشر أعداءها ودائماً يقتلونها.

احــزرْ أيضــاً مــن يقول إنه كانت هناك أفعى بسبعة رؤوس أغلقــت النــبع وكاد الناس يهلكون لولا أن ميرزا ضرب بسهامه الرؤوس السبعة فأنقذ الناس؟

إيــاس: سعالك مقلق. يجب أن يراك الطبيب، وعلى كل حال ابلع حبة البراتة.

أنا الآن ما عدت أستطيع أن أفرق بين المرمر المزخرف فوق بــاب المرقد وبين الصور المتقابلة لطاووسين ولأسدين بين نقوش الجــدار الشــرقي للساحة من الطيور والحية الطويلة أيضاً، وبين حوض الماء والقاعة الأولى والقاعة المربعة والقاعة الصغيرة. ما عــدت أستطيع أن افرق بين الماضي والحاضر ولا بين أبي الذي كــان ينــتظر موتــه مطمئناً في لالش وجدي الذي قتله الأتراك والعثمانيون في سنجار. ما عدت قادرة على أن أفرق بين الحكاية والتاريخ ولا بين خربة بدرخان وهانوفر ولا بيني وبينك ولا بين زيّ البابا شيخ والقوّال والكوجك وزيّ خوخة العروس ـــ نسيتها؟ ـــ وما ألبس أمامك الآن. ارفع عينك عن ركبتي.

هنا زرت مرقد أبو البركات. أين رسالتي التي نقلت لك فيها ما قاله في المحبة؟

هــنا زرت مــرقد الشيخ حسن، وهنا ضريح مغطى بالحرير وعلــى الحائط ستارة خضراء ومزينة بآية الكرسي، وهنا طريق لولبية وهنا أحواض معلقة وهنا المستودع.

هــنا خزيــنة الرحمن التي أريد أن أرى بعيني ما فيها وألمسه بيدي. أبي وغير أبي يتحدثون عن السناجق وعصا موسى وكبش إبراهــيم ومشط لحية الجنيد ومسبحة أحمد البدوي وكأس سليمان الحكــيم وحــزام الشــيخ أحمــد الرفاعي وحية إسرائيل وتماثيل الطواويس في خزينة الرحمن في بيت الأمارة. وأنا وأنت سنزور بيت الأمارة ونرى هذا كله كما حلمت وتمنيت، فنرى المير وبابا الشيخ ونزور القرى والمزارات التي زرتها أنا وأبي.

أولاً نبدأ ببعدرة أو ببعذرا كما تحب أن تقول. وفي عين سفني نزور مقام الشيخ شمس ومقام الشيخ مند ومقام الشيخ محمد الذي يشــفي ترابه من القروح ومن الرمد. في بعشيقة نزور مقام ملك مــيران ومقام ناصر الدين وشجرة الست نفيسة التي استشفى أبي بــزيارتها كما استشفى بزيارة شجرة الشيخ مند في بحزاني. وفي بحزاني نزور مقام الشيخ أبو قحوف. وفي العودة نعود عن طريق سنجار كما عدت مع أبي لنزور المقام الثاني للشيخ شمس ومرقد الشــيخ شرف الدين ومرقد الشيخ أسود الذي تزورونه أنتم مثلنا. كذلــك مــرقد الست زينب ومرقد شيبو قاسم وهذا علوي. ونحن نزوره مثل العلويين. سعالك اليوم غيره بالأمس يا إياس.

في سنجار سنقف عند الشقّ الهائل بين قرية يوسفان وقرية البكدان لنرمي ما في جيبي وما في جيبك ولكن ليس بالمقدار الذي رماه أبي. من يعلم كم صارت المبالغ المرمية في هذا الشق, والتي سيستعين بها المهدي المنتظر على تطهير الأرض عندما يظهر؟

يمكن أن تقول لي أنتِ رافقت والدك سائحة وليس للحج. ويمكن بعد كل ما أحكيه لك أن تتحمس لهذه السياحة أو أن تتراجع وتحكي كما حكى لك راكان درويش عني وعنا كلنا.

أما أنا فلا أريد الآن أن أسأل نفسي أي سؤال, لا عما أحكي لك ولا عما رأيت وعشت وشعرت به. أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأدعو يا رب يا ملك الجن والإنس وملك العرش والكرسي. ويوم الأحد أول أيام الخلق أدعو عزازيل ويوم الاثنين أدعو دردائيل ويوم الثلاثاء أدعو اسرافيل ويوم الأربعاء يوم سعدي أدعو ميكائيل ويوم الخميس أدعو جبرائيل ويوم الجمعة أدعو شمنائيل ويوم السبت أدعو نورائيل حتى نكون لبعضنا أنت وأنا في هذا الجيل وفي كل جيل من أحسن الخلق وأنقى الخلق يا حبيبي. أحضرت لك معي نسخة قديمة من مجلة لالش ونسخة قديمة من عام 1995 من مجلة مواسم، وهذه ملحق ثقافي لنشرة في سبيل الأرض والعمل وتصدر في القامشلي. أرجوك أن تقرأ بعناية ما فيها عن تأثير الحياة الجديدة فينا حيث تبدل ما تبدل كما تبدل من حياة البدو مثلاً ما تبدل، ولو أن راكان درويش وأمثاله متحجّرين. تصوّرْ لو أن أبي لم يسترجعني من راكان وعشت عمري معه! على الأقل ما كنا التقينا. ستقرأ في ملحق مواسم كيف أن لعن الشيطان ما عاد يجرّ القتل من زمن طويل وإلا لكان

صبري رمّو قتل راكان درويش. ستقرأ كيف أن عودة واحدنا بعد أكـثر مـن سـنة من الغياب لأي سبب ما عادت محتومة وكيف وكـيف.. فالدنـيا تتبدل. وفي نفس الوقت أقول لك بعد رجوعي ووالدي رأينا خربة بدرخان مخضوضة لأن واحدة هربت مع معلم مدرسة مسلم من جهة حمص، وهذه أول حادثة في خربة بدرخان بعد هربي مع راكان درويش. ولكن الدنيا تتبدل، فأهل البنت وهم أقرباء لأمي من بعيد يتظاهرون أنهم يريدون بنتهم ويبحثون عنها ويـتراخون كمـا أكد لي صبري رمّو. ويمكن الشاب والبنت عند أهله ولم يهربوا إلى ألمانيا كما سمعت أمي تقول.

أحياناً أفكر بحظي وبالمصادفات في حياتي. فأول رجل أجبته وهـو راكـان لم يكن منا. والثاني كان من النمسا كما كتبت لك. والثالـث هـو ربيع لشلاش والرابع هو أنت. ولا واحد من ملّتنا. طبعاً منّاً من طلبني للزواج لكنني أتحدث عن الحب. لو أن الحب يعـيش هنا في سورية بلا زواج لما كنت أقول لك تعال معي إلى هانوفـر. أنا أفكر يا إياس أن الحب مثل الدين. الحب حر والدين حر ولكن البشر يشوهون كل شي. ما رأيك أن نعيش في هانوفر حـتى يصير الإنسان هنا حراً فيما يحب وكيفما يحب وحراً فيما يعتقد وكيفما يعتقد سواء في الدين أو السياسة أو أي شي، ويومها لو عشنا حتى ذلك اليوم، نعود؟

لن تموت لو عشت خارج سورية كما قلت لي. جرّب ولو فترة وأنا بانتظارك. أنا هنا لا أستطيع أن أعيش إلا إجازات كما ترى. ولولاك ولولا ابن أخي ولولا مرض أبي لما رتّبت في هذا الصيف هـذه الإجازة الطويلة. أعرف أنك تعدّ سفرك معي هروباً، وأنك

متفائل بالمستقبل هنا ولو قليلاً، وأنك دفعت الثمن الغالي من أجل ذلـــك ومســـتمر على هذه الطريق. كل هذا أعرفه وهذا بعض ما يجعلنـــي أتعلـــق بـــك. ولكن أرجوك فكّر بكلامي ولا تعبس هذه العبســـة كـــأنك تحمل همّ الدنيا كلها على كتفك. خلّنا نفرح بالأيام القلـــيلة الباقية قبل أن أسافر. خذني لأرى أمك وأرى المقبرة التي حدثتني عنها. خذني لأرى البحر هنا لأول مرة فأنا لا أعرف حتى الـــيوم مـــن سورية إلا الجزيرة والشام والطريق الواصلة بينهما. كأســـك فارغة يا إياس. أنت رأيت أبي وأمي وقبر أخي والخابور وجغجغ والبليخ والفرات وكأسك فارغة يا إياس مثل روحي ساعة غنى أبي ليلة وداعي كأنه ينوح بصوت مذبوح:

رأت ناقتي ماء الفـــرات وطيبـــه   أمرّ من الدفلى الزعاف وأمقرا
وحنـــّتْ إلى الخابـــور لما رأت به   صياح البنيط والســـفين المقيّرا
فقلـــت لها بعض الحنيـــن فإن بي   كوجدك إلا أننـــي كنت أصبرا

أنا لم أفهم ما قاله لكنه أوجعني فطلبت منه أن يكتب لي بعض الأبيات وشعرت أني لن أراه بعد تلك الليلة. أرجوك لا تتركْ هذا الشعور يملأني الآن كأننا لن نلتقي بعد هذه الليلة.

8

ألماس الربيع

بينما كان الترحّم على الدكتور عيسى يتلاشى، فشا الحديث عن ربيع المجمّع 21 وعلا. وبينما جعل ذلك ربيع لشلاش ـ مثل كثيرين ـ أكبر توجساً، بدا إياس قمر الدين ـ مثل كثيرين ـ أكبر جرأة وأملاً. وربما كان غموض الحديث وحده ما يجمع الفريقين. فالماضي يُهتك هتكاً، لكن النيل من الدكتور عيسى بات محرماً. ولعله هو ما أطاح بالدكتور باسل من منصب نائب الأستاذ موسى نزهان إلى التوقيف رهن التحقيق.

هكذا التبست إعادة هيكلة المجمّع بتكريس ما كان، وتجديده بتفكيكه. وهكذا التبس قرار نقل ربيع إلى ما بات يعرف بسد الألماس، بالعقوبة والإبعاد، فرأى نفسه يزور بيت الدكتور عيسى لأول مرة بعد العزاء، ويطأطئ أمام سواد ثياب سميحة وازورار

سميح وتجاهل لونا وحضور جنان فجأة، كأنما حضرت فقط لتضبطه بالجرم المشهود، أو لتوافيه إلى موعد حاسم. لكن الموعد سيؤجل إلى أن يجمعهما ليل الصالون أمام التيلفزيون، فيقرر أن يكسر الصمت: أنت تعرفين أنني مسافر غداً.

قالت جنان دون أن تلتفت عن التيلفيزيون:

- طبعاً. ثيابك جاهزة وما عليك إلا أن تملأ الحقيبة.

فأحسّ بالامتنان للخادمة الفيليبينية التي أتت بها جنان بعيد وفاة الدكتور عيسى: تطبخ وتغسل وتكوي وتمسح وتشطف وتجعل البيت أزهى منه حين كان وجنان يتعاونان عليه، وكل ذلك بمئة وخمسين دولار في الشهر تدفعها جنان، وربيع لا يجرؤ على أن يسألها عما بلغ راتبها بعدما ظهر الأستاذ موسى، لكنه يجرؤ الآن على أن يسأل محتداً:

- إلى متى سنبقى هكذا يا جنان؟
- القرار بيدك.
- كأن ما نحن فيه هو ما تريدين.
- صحيح. ولو أني أفضّل ألا نكون متخاصمين.
- كأنك تقولين: خلّنا ننفصلْ.
- خلّنا ننفصلْ.
- ما عاد بيننا ما يجمع؟
- نسيت غِوى؟
- وحدها؟
- وآثار عشرين سنة في هذا البيت، ما الذي يمحوها؟

وفكّــر بأن غِوى أو المستقبل لازالا يجمعانهما، كذلك الماضي أو.. أو ماذا يا ربيع؟ ورأى نفسه عاجزاً عن متابعة السؤال. وفكّر بأن الحاضر وحده ما يفرّق بينهما، وتمتم:

- والحب يا جنان؟

- أوه يا ربيع!

وتمتم في سرّه كأنه يتابع ما سكتت عنه: والجنس مات أيضاً يا ربــيع. ونظر حوله في الصالون، وفكّر في أن البيت كله لم يعد غير سند تمليك باسميهما، وقد آن الأوان لتمزيقه، وقال:

- ما رأيك أن نتقاسم البيت ويمضي كل واحد منا في سبيله؟

- البيــت لِغِوى وأنا باقية فيه حتى أموت. إذا أردت أن تتركه مع السلامة.

قالت ببرود وحزم أذهلاه وجعلا صوته يعلو ظافراً:

- إذن أنت من دبّر إبعادي إلى سد الألماس.

- عيب يا ربيع.

- لماذا هذه العقوبة إذن؟

- هــذه ثقــة من الأستاذ موسى بالأستاذ ربيع. والأستاذ ربيع يعرف أهمية مشروع الألماس.

قالــت جنان وهي تغلق التيلفيزيون وتنسحب إلى غرفة النوم، فلحق بها قائلاً:

- مــا نحــن علــيه غــير معقول. على الأقل فكري بحياتك الخاصة.

- إذا صارت لي حياة خاصة سأفكر فيها بعيداً عنك وعن هذا البيت.

- وأنا؟

- تريدني أن أفكر عنك؟ أنت لك حياتك الخاصة منذ سنين طويلة. لا يهمني إلا أن تبقى بعيدة عني وعن هذا البيت. تصبح على خير.

- تصبحي على خير.

تمتم مستسلماً ومستحسناً. وباستسلام أكبر واستحسان أكبر بكّر إلى سد الألماس.

* * *

كان ربيع مثل كثيرين متشككاً فيما أشيع عن اكتشاف الألماس، وبخاصة عندما أخذ المجمّع يردد ما نُسب إلى الأستاذ موسى: نحن مقبلون على عصر الألماس. وها هو ربيع منذ يومه الأول في الكارافان يوحوح للبرد ويعاين البحيرة اليمنى الهائلة التي يتوالى ضخ الإسمنت في أغوارها، والأغوار تظل فاغرة، وربيع يواصل الاجتماعات مع مجموعة الثروة المعدنية، ويعاين البحيرة اليسرى التي علا فيها الماء أمتاراً مجهولة دون أن يبلغ القناة الواصلة بين البحيرتين. وفجأة عصفت العاصفة المطرية وغرقت مضخة البيتون والرافعة والكومبريسته، وتدافعت بلاطات المفيض والمخمِّد، وتخلّعت قساطل المياه الجوفية، ووصلت القناة بين البحيرتين، وأيقن ربيع مثل الجميع أن سداً ينهار أو يكاد، ولكن ليس في زيزون هذه المرة.

غير أن العاصفة لم تدم إلا نهاراً ونصف ليلة. وفي الصباح بدا في البحيرة اليمنى كم هي الأغوار التي يغور فيها الماء هائلة، فاستحسن كثيرون سوء أو نقص الدراسات التي لم تلحظ غوراً ولم تستطع حتى الآن أن تملأ غوراً. وتسابق الغطاسون لينقذوا

الكومبريسّــــة على الأقلّ. وبدأ صب البلاطات بسماكة أكبر وحديد أغلــظ وأكــثر. وفي صباح آخر بدأت المضخات تضخ الماء من البحــيرة اليســرى إلى معمل غسل الألماس في الذروة التي يقابله علــيها الكارفــان. ومن صباح إلى صباح كانت الشاحنات تتكاثر بانتظار أن تفرغ حمولتها من الفلز، والفلز يزداد التباساً في المقلع، والمقلــع يبشر بعصر الألماس، والألماس يعاند ويمعن في العناد، وربــيع يراسل مجموعة الثروة المعدنية ويراسل الأستاذ موسى، ويصبر على الشمس التي تضاعف حرارتها كل يوم كأنها غادرت الشــتاء وعادت إلى عز الصيف، إلى أن يأتي صوت إياس يهزج هزجاً: أنا وونسة هنا نسبح. تعال. اسأل عن شاليهات المرساة بعد الميرديان. نحن في الرقم سبعة. سلامات يا بو الألماس.

* * *

كانت الشمس عندما اهتدى ربيع إلى الشاليه أكبر حراً منها عند الســد. وها هي ونسة تطلع من النسيان وتتقدم نحوه ونحو إياس، كأنهــا قــد تركت قطعتي المايوه في البحر وأقبلت بلا جدائل ولا خصــلات. لكــنه العنق الغامض العريان نفسه، سوى أن الشعر القصــير زاده طــولاً، والخصر لازال عود خيزران، والحلمتان لازالــتا منقار الدوري، وعينا ربيع ترتدان عن البذخ المباح لكل عين فلا يجرؤ على أن يتملى حوض ونسة ولا ساقيها ولا فخذيها. وبينما تغتسل من ملح البحر يملأ إياس الطاولة الصغيرة في شرفة الشــاليه بثلاث كؤوس وثلاث علب من البيرة التركية. وإذ تعود

ونســـة وتجلس قبالة ربيع، يتوه ربيع بين حورية العربية وهورية الكــردية, أو يجري خلف ونسة بنت الجرة وهو يهتف لطاووس ملــك، أو يــتهرب مــن ثلج هانوفر إلى بيت حسين نوري ومن المطعم الدوار فوق أوتيل الشام إلى بيته هو لترقص ونسة وتغني كأنها لم تزل تحتفل بالسري صالي، بينما ربيع يخشى عودة جنان فجــأة، ويخشى الباطنية التي تعتدّ بها ونسة، ويخشى الديمقراطية التي يعتدّ بها هو، وينطوي أسيان معترفاً بأنه عجوز وخائف، كأن ونسة الآن هي شهلة عندما اختطفها من الاعتصام أمام مبنى الأمم المــتحدة إلــى مطعــم الضيافة، وإياس يغني ساخراً: أول عشرة محبوبي يا عيني / هداني خاتم ألماسْ، ثم يغرق في نوبة سعال.

وبيــنما حملت ونسة علب البيرة الفارغة ودخلت إلى الشاليه، أقســم إياس أن مشروع الألماس كذبة مضحكة ومبكية مثل كذبة ربيع المجمّع 21، وقرّب كرسيه هامساً:

– أيــوه يــا بو الألماس: إياك أن تعود بلا عقد من الألماس. لماذا؟ لتغوي به الحبيبة القادمة كما أغويت شهلة بعقد من المرجان.

فنظر ربيع إلى البحر متمتماً: شهلة. وقال إياس:

– شهلة غاطسة في العشق إلى أذنيها.

– من هو؟

سأل ربيع مصطنعاً اللا مبالاة.

– الدكتور طرفة خير الله.

قال إياس وهو يراوغ نوبة سعال جديدة. والتفت ربيع موجوعاً بالفقد والوجد: ونسة أولاً، ثم شهلة، بل وجنان، بل والمجمّع نفسه. وكان إياس ينادي ونسة متعجلاً البيرة.

9

من يصدق حكاية التي تخلق نفسها كما تشاء؟

تـــناءت لقاءات شهلة وطرفة بعد عودتها من بغداد: هي تعتذر بانشـــغالها بـــزواج هانـــي ورحاب، وهو يعتذر بمؤتمر جراحة التجميل في عمّان. هي تعتذر بانشغالها في حملة مقاطعة البضائع الأميركية، وهو يعتذر برهق العمل ليل نهار. ولما طال بهما ذلك رأت نفســها فجــأة تكاد تترمد، فقررت ألاّ تأخذ بعذرٍ له أو لها، وبدلاً من البيت، عادت من السوق الحرة إليه مساء الثلاثاء.

كانت الساعة تقترب من الثامنة. وكان يبدو مرهقاً حقاً. لكنه بدا أيضـــاً مبـــتهجاً وهو يقدم لها الزائرة الأخيرة: لونا بنت الدكتور

عيسى نزهان. سبق أن حدثتك عنها. صاحبة صور الممثلات والمطربات.

وخاطبتها لونا بسرعة ومودة:

- رأيتك أكثر من مرة. آخر مرة عندما حرقنا البضائع الأميركية في ساحة عرنوس. صح؟

والتفتت إلى طرفة تتابع ما انقطع من حديثها بدخول شهلة، وشهلة تتأملها كأنها تبحث عن شبه لها بإيلين سيغارا أو جيسيكا آليا أو نيكول كيدمان فلا تجد. وكان طرفة يصغي مأخوذاً بهذه التي تلهث كلماتها ونظراتها وأنفاسها خلف جانين جونز: سجنتْ نفسها يا دكتور سنة في شقتها قبل أن تقرر أن تصلح آثار شد بشرتها، وماري ماكدونوف يا دكتور: تسممت وكادت تموت بسبب زرع السيليكون في صدرها. ولكن لا تنس الرجال: توم كروز صغّر أنفه وأرنولد شوارينغر صغّر فكيه وأنفه. حتى مايكل جاكسون أجرى أكثر من عشرين عملية تجميل خلال عشرين سنة.

قال طرفة متابعاً هو أيضاً ما انقطع من حديثه بدخول شهلة:

- هيئة الغذاء والدواء في الولايات المتحدة لازالت تحظر استخدام السيليكون في جراحات زرع الثدي. قد لا تظهر الآثار الضارة إلا بعد سنوات يا لونا.

- كل هذا يهمني جداً ولا يهمني إطلاقاً. أنا أعرف أن الطب يتطور مثل كل شيء بسرعة ضوئية. الأخطاء ستصبح أقل عدداً وأقلّ خطراً، وتبقى المسئولية على الدكتور طرفة وأمثاله. أما أنا وأمثالي فلن نستسلم لخريطة الجينات. قلت لك يا دكتور في أول

زيـــارة إذا كنت لم تنس: أنا لن أكتفي بما وجدت عليه جسمي مع أن جســـمي حلو بكل المقاييس كما سمعت منك ومن غيرك، وكما أعـــرف حـــق المعرفة. قرأت مرات أن القراءة والأسرة والحب والديـــن أيضـــاً وأموراً كثيرة تغيّر المزاج والمشاعر وكل ما له علاقـــة بالنفس والروح. وهذا الجسم يا دكتور؟ لا أقصد النموّ أو المـــرض أو الشيخوخة أو الحوادث إلى آخره. أقصد الجسم السليم المكتمل. ولا فرق إذا كان يعجبك أو يعجب صاحبه أو صاحبته أم لا. هـــذا جسمي أنا مثلاً وأنت صرت تعرفني. أنا ألعب فيه أحلى لعب. صح؟

ووقفت وأشارت أصابعها لشهلة ولطرفة بسرعة ومودة: باي. وهمســـت شـــهلة: بـــاي، وهي ترى نفسها فجأة قد كبرتْ حتى صارت مثل أمٍ لهذه الصبية، فأطرقت خجلى من أن تكون البنت قد ضـــبطت أمهـــا مع عشيقها. ولم ترفع رأسها حتى سمعت طرفة يـــزوّق وعـــداً بيوميـــن في بيروت: نعوّض بهما ما فاتنا يا ست الحلوين.

***

وبانـــتظار الصباح قضت شهلة ليلتها تزوّق الوعد أيضاً. لكن لونا ظلت حاضرة: مرة في وجه أسماء ومرة حاملة لسعيد ومرة ملء المرآة ومرة على الشرفة التي لجأت إليها شهلة أخيراً لتجالس لونـــا التي كانت تَغْمضُ حيناً وتتجلي حيناً، منفّرة وجذابة، مدّعية وســـاذجة، بريئة وخبيثة، شهية وأشبه بصبيّ جائع ومشرد. وكلما

تقــدم الليل كان ذلك يضاعف من قلق شهلة: بنت الدكتور عيسى نــزهان والمال بين يديها مثل الماء والصابون. مفقوعة بالموضة وجاهلــة ولكــن يمكن لها ــ كما يمكن لشهلة نفسها ــ أن تخلق نفسها حقاً كما تشاء. أستغفر الله. أما طرفة فله الحق في أن يميل إلــى البنــت الجريــئة والمثقفة والمتحررة والتي تحرق البضائع الأمريكية في ساحة عرنوس مثلها مثلك يا شهلة، مع أنها في عمر أســماء أو في عمر رحاب، وأنت تبدين كأنك أم لأي واحدة منهن وإن كنــت لا تكبريــن أي واحدة منهن بعشر سنوات، فكيف تراه ينظر إليك طرفة الآن؟

على هدهدة السؤال ظلت تداور النوم حتى طلبت هاتفياً إجازة بلا راتب لمدة يومين، ووافت طرفة في الساعة العاشرة إلى دوّار كفرسوسة: ما بك يا شهلة؟

وعلــى الحدود التي تجتازها لأول مرة ودعت السؤال وأقبلت على طرفة الذي يضاعف الدهشة حتى يصيّرها ألفةً في جناح من أوتيل ريجنسي بالاس، لذلك يأتي الغداء إلى سرير شهلة، ثم يأتي الــنعاس اللذيــذ مثل شهوة طرفة التي يؤججها هدوء شهلة لأول مرة: ما بك يا حبيبتي؟

***

بعد نوم عميق امتد حتى المساء سينسى طرفة السؤال. وستنساه شهلة وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها خلف طرفة ليلاً فنهاراً فليلاً: في اللاوتــايم تســترخي حــتى تكــاد تغفو، وفي الشارع تصرّ على

سندويتشة الشاورما وتخرب عشاءها كما يقول طرفة، وفي الهيكتايس تصير الراقصة المحترفة من طابق إلى طابق على إيقاع الراي فالهاوس فالدانو فالتكنو فالترانس، ولا تعود إلى الأوتيل حتى الثالثة فجراً، لترتمي على السرير منهكة، وتدع طرفة يعريها ويقلب ثدييها إلى الأعلى ويتفرج، وعلى الجانبين ويتفرج، ويوسع بين فخذيها ويتفرج، ويباعد شفتيها ويتلمس أسنانها ويتفرج، ثم يباشرها وهو ينظر إلى مرآة السرير وإلى مرآة التواليت ويتفرج، وهي تتلاشى في خدر رهيف، وتظل تتلاشى حتى الحادية عشرة صباحاً حين يرشها طرفة بقبلاته: صباح الخير.

وحين يأتيها الفطور إلى سريرها، يصير الجناحُ بيتاً اختارته وطرفة سوياً، وأثثاه سوياً، ويصير طرفة الزوج الذي لم يكنه حسام درباس، والعاشق الذي لم يكنه ربيع لشلاش. وتصير شهلة الزوجة العاشقة التي تؤنب طرفة على تناول الفطور في غرفة النوم، وتجره إلى الصالة، وتجبره على شرب الحليب الذي تحلّيه بالعسل، وتختار له الكرافتة، وتسأله عما ترتدي، وتتأبط ذراعه إلى صالة فورم دي بيروت، وتكتم دهشتها بالمجوهرات التي ترى، وتترك زوجها يختار لها خاتماً من الذهب الأبيض، وتومئ برأسها محيّيةً سيد الألماس الأسود، وتصطنع هيئة العارفة وهي تصغي لمغامرة القرن الحادي والعشرين بالألماس الجليدي. وبعد معرض المجوهرات ترجو زوجها أن يعود بها إلى الأوتيل ليتغديا ويستمتعا بالقيلولة، ثم يبدأا السهر حيث يحلو له: في مطعم البستان أولاً كي تجاري زوجها في شرب كأس صغيرة من العرق وفي نَفَس أرجيلة، وكي تنقر حبة زيتون أسود أو تقشر حبة لوز

أو تـــناول زوجهـــا قطعة من السودا النيئة. وعندما ينتصف الليل تصـــير واحدة من الأليترناتيف حتى يتباهى بها زوجها في مربع الـــ BO18. ولكن لابد من قليل من الرقص كما سيلي في مربع الســـيركوز حيث صادفت الزوجين ليلة خاصة للجاز. وفي الثالثة فجـــراً، وكما في الليلة الفائتة، يعود الزوجان إلى بيتهما، وترتمي شـــهلة علــــى السرير منهكة، وتدع طرفة يفعل بها ما يشاء وهي تتلاشـــى فـــي خـــدر رهيف، وتظل تتلاشى حتى يوقظها صوت طـــرفة: أهليـــن لونا. عندئذٍ تفكر أنها لم تصر بعد زوجة طرفة، لكـــنها يمكن أن تصير، بل عليها أن تصير. ولذلك ليس للونا أن تتصـــل بطرفة في مثل هذا الوقت، وليس لطرفة أن يبالغ بإعجابه بهـــا، ولا أن ينقل لها إعجاب شهلة، ولا أن يواعدها هذا المساء. وكـــان يمكن لشهلة أن تتابع فيما ليس له، بل وفيما عليه، لولا أنه نســـي قـــبلة الصباح وأسرع إلى الحمّام بعدما انتهت المكالمة مع لونا.

10

نهارك نهار عراقي

منذ الساعة الواحدة بدأوا يتوافدون إلى الغرفة التي خصّ الدكتور واصف بها إياس بعد يوم واحد من دخوله المستشفى.

كان معتصم أولهم. وكما في الزيارة السابقة، تجاهل مرض إياس، ورثى للمكتب الإعلامي بعدما ورثتْ منه رغيدة منصب المدير، وحضّ إياس على أن يدير المرض خلف ظهره ويغادر المستشفى سريعاً حتى يذهبا معاً إلى قرية زيزون الجديدة: خبطة صحفية كبيرة يا إياس. أنت تعرف الموضوع جيداً. أنت تكتب الريبورتاج وأنا أصوّر. ننشر الريبورتاج في جريدة الحياة أو الشرق الأوسط، وخلّ الأستاذة رغيدة تفقع.

لم يأبه إياس في الزيارة السابقة باقتراح معتصم. لكنه هذه المرة ترك الرجل يتحسّر على زمن الدكتور عيسى في المجمّع. وفكّر في أنه لو استطاع أن يكتب ريبورتاجاً عن قرية زيزون الجديدة، فلن يشارك معتصم، لا لأمرٍ إلا لينشر الريبورتاج الجديد مع التحقيق الذي قام به في انهيار السد وفي الطوفان، ثم طواه كما طواه الأستاذ موسى نزهان.

ولم يكد يخرج معتصم حتى دخل الدكتور سامر عطوف، وكانت قناة أبو ظبي تبث صور الدبابات الأمريكية في شارعٍ بغدادي خالٍ، وعينا إياس تنتقلان بين الشاشة ووجه الدكتور سامر المحيّر: هل هو حزين على إياس أم على بغداد أم على إعفائه من مهمة تفكيك فرع المجمّع في الجزيرة؟ أم تراه غير مبالٍ بأي أمر؟

لكن الدكتور سامر ابتهج عندما دخلت الممرضةً التي ابتدأ دوامها الآن، فأسرعت إلى المريض الذي أوصى به الدكتور واصف الجميع: محتاج شي يا أستاذ؟

– شكراً يا ست حياة.

قال إياس وابتسم وهو يرى الدكتور سامر يبحلق في قفا الممرضة الكهلة التي كانت تتفحص لوحة المريض. وعندما اتجهت إلى الباب أشار إياس إلى كرسي وقال:

– شاركينا الفرجة يا ست حياة. الأميركان احتلوا بغداد.

فقالت بصوت مختنق:

– من صباح الحرب وأنا أقرأ كل يوم سورة الفيل عشر مرات وزوجي يقرأ سورة الأحزاب عشر مرات. عفوك يا رب. نصرت الأميركان ولم تستجب لنا.

وتنسحبت مسرعة، وهمس الدكتور سامر:

- ومع ذلك قفاها عرمرم وصدرها كمان.

وسكت ولغا إلى أن دخلت مدام سالمة فلغتْ وسكتت إلى أن دخل الدكتور واصف فلغا وانصرف الدكتور سامر، وكانت الدكتورة ربى قد دخلت ولغت ثم سكتت إلى أن انصرفت ومدام سالمة. وكان أبو غدير ـ صاحب الدكان الذي لم يأبه بتهدّل الأستاذ إياس ولا بسعاله منذ أسابيع ـ قد دخل ولغا حتى انصرف كاتماً غيظه، لأن الأستاذ الذي لم يعد ينط مثل القرد منذ شهور يقول بحياد إن رئته اليسرى قد تكون مصابة بالسرطان. وكانت شهلة ورحاب وهاني قد دخلوا ولغوا وسكتوا إلى أن انصرفوا، وبغداد لم تزل تسقط، والست حياة عادت لتطمئن على المريض المسكين الذي قد يكون السرطان أصابه وهو في عز الشباب. وكانت الساعة قد جاوزت الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة وربما الخامسة، ولم يعد مسموحاً لأحد بأن يزور إياس. لذلك صُلب على الشاشة، ولبث يتفرج على من صلبوه وعلى من يبكونه وعلى من يتفرجون وعلى من يذُعرون ويفرون، وعلى من يتوافدون إلى هذه الغرفة النظيفة الصغيرة: السرير الذي لازمه إياس منذ صباح الأحد، الكومدينة التي يتدافر عليها الهاتف والجرائد والمجلات ودفتر صغير، الخزانة الصغيرة وعلاّقة السيروب وشاشة القلب والزرّ الذي يكفي أن تلمسه سبابة إياس حتى تفتح الست حياة الباب لاهثة, الكراسي التي سمح الدكتور واصف بتكاثرها، التلفزيون الذي أقسم الدكتور واصف بألاّ يتفرج عليه بعد نشوب الحرب بيومين أو ثلاثة، وأنعم به على إياس منذ ليل الاثنين كما أنعم عليه

بهــذه الغرفة، فأنقذه من رفقة المريضين اللذين قضى بصحبتهما يــوم الأحــد ونهار الاثنين في الغرفة المجانية، وكل ذلك إكراماً لذكــرى المرحوم ورد قمر الدين الذي كان صديقاً حميماً للدكتور واصف, كما كان على علم بالقطيعة بين المرحوم وأخيه الصحافي السجين المدلل عند المرحوم الدكتور عيسى نزهان. ولابد أنه الآن مدلــل عــند الأســتاذ موسى نزهان، مادامت مدام جنان برقا قد حضــرت بنفســها إلــى المستشفى ظهيرة الاثنين, ونقلت تحيات الأستاذ موسى وتعّهد المجمع 21 بنفقات علاج إياس قمر الدين.

بالطبع، بغداد التي سقطت فجر هذا اليوم أوضحاه أو ظهره أو عصره، هي بغداد العراقية وليست بغداد البولونية أو الاسترالية أو الجورجــية, ولا بغــداد أريزونا أو بغداد كانتاكي سيتي أو بغداد فلوريــدا، كما قال الدكتور واصف منذ ساعة ممازحاً أو شامتاً أو حزيــناً أو مبتهجاً, ومتباهياً في أية حال بما يعرف من المدن التي تحمل اسم بغداد على وجه البسيطة.

لكــن الأمريكان لم يحتلوا إلا بغداد العراقية. وإياس المصلوب وحــده على السرير يتفرج على المهيب الركن جورج بوش الابن ـ الأب حفظه الله وهو يرفس المهيب الركن صدام حسين حفظه الله, بيــنما يؤكد صوت ربما كان للدكتور سامر: لو استقال صدام حســين لأراح واستراح. ويؤكد صوت ربما كان لمدام سالمة أن رفــس صدام حسين تحريرٌ للعراق ومفتاح وحيد لتحرير المنطقة. ويهــتف صوت ربما كان لهاني صادق: باي باي يا عروبة باي بــاي يــا وطن. ولا يعود إياس قادراً على أن يفرق بين صوت وصــوت, إذ كان الوثاق قد أُحكم حول رقبة صدام حسين, والعلم

الأمريكي قد اعتلاه هنيهة قبل أن يعتليه العلم العراقي الذي لم يخطّ عليه صدام حسين حرفاً. وبدأ التمثال يميل إلى الأرض. وشبّ إياس من السرير. وظل يشب حتى بدا كأن التمثال يخلّص دبره من عضو غليظ طويل مقيم: الدبر أكبر من فوهة مدفع الدبابة الأمريكية المصوبة عليه, والعضو أكبر من سبطانة المدفع نفسه، وإياس يعود إلى السرير أخيراً حين هوى التمثال على الأرض: أنا ربكم الأعلى فاعبدون: صاح التمثال, فقهقه إياس عالياً، وظل يقهقه حتى قاطعه السعال الذي تفاقم قبل أن تبدأ الحرب، فاضطر لأن ينصاع لأمر ونسة التي اتصلت به صباح الحرب، ويصوّر صدره، ثم..

ثم ابتدأ يكذب على ونسة كما كانت الحرب تكذب عليه: لا شيء حتى في صورة الطبقي المحوري. لا تقلقي. غير أن الدكتور واصف أمر بالخزعة، ثم لوّح بالجراحة، ثم جثم إياس في السرير وقد تحرر من صليبه ونظر إلى صدام حسين شخصياً ــ وليس إلى التمثال أو الشاشة ــ عيناً لعين وأنفاً لأنف وفماً لفم وصدراً لصدر. وأخذ صدام حسين يتخلّق في أسماء شتّى يعرفها إياس جيداً جداً. ولعله لذلك أخذ يصغي إليها واحداً واحداً غير خائف ولا متعجّل. وصاح اسمٌ: أنا الدولة، وصاح اسم: أنا المجتمع، وصاح اسم: أنا الدولة وأنا المجتمع. وفجأة أخذت الأسماء جميعاً تتحيْون في هيئات مُلْبِسة، وطال الأمر بها قبل أن تنجلي حصاناً ليس مثله حصان. وصهل الحصان العجيب الغريب: أنا إله أعبد نفسي أتمرغ بالتراب أمام قدمي أستحق هذه العبادة المقدسة لكن الألوهية الوحيدة هي أنا أنا لست أنا لكوني أنا أنا

وحدي أستحق نفسي سأختار شعبي سياجاً لمملكتي ورصيفاً لدربي فمن كان بلا علة فهو حارسُ كلبي ومن كان منكم أديباً أعيّنه حاملاً لاتجاه النشّيد سأمنحكم حقّ أن تخدموني وأن ترفعوا صوري فوق جدرانكم وأن تشكروني لأني رضيتُ بكم أمةً لي فسيروا إلى خدمتي آمنين أذنتُ لكم أن تخرّوا على قدمي ساجدين سنأذن للغاضبين أن يستقيلوا من الشعب فالشعبُ حرّ سأختاركم مرةً واحدةً كل خمس سنين وأنتم تزكّونني مرةً كل عشرين عام إذا لزم الأمرُ أو مرةً للأبدْ للأبدْ للأبدْ. وفجأة انقطع الصهيل وتبدد الحصان العجيب الغريب، وعاد إياس إلى الوحدة القاتلة لولا أن الهاتف يتذكره بين حين وحين، فيتلعثم إياس أمام صوت أمه الباكي ويحتار فيمن أخبرها أن بكرها الغالي في المستشفى! ثم يتلعثم أمام صوت أخته الديبلوماسية رضاب التي تتصل من روما لتطمئن على شقيقها المصاب بالسرطان، ويحتار فيمن أخبرها بحقيقة مرضه التي لم تكن قد تأكدت بعد! ومن هاتف إلى هاتف يكاد إياس لا يجيد إلا اللعثمة وهو ينتظر صوت ونسة التي لم يخبرها أحد بأنه نزيل المستشفى. لذلك يرمق الهاتف حتى يسمعه يرنّ رنيناً مختلفاً فيتلقف السماعة: ونسة: أين أنت يا ونسة؟

: أنا قادمة ــ ستقول، مثلاً.

: لا تتأخري ــ سيقول راجياً، وربما باكياً، مثلاً.

لكن ونسة قد تكون مشغولة مثله بسقوط بغداد، فتنسى مثله أنه مريض، وتشمت مثله بسقوط الديكتاتور، وتستبشر مثله بسقوط أيّ ديكتاتور. وقد تزيد ونسة ــ مثلاً ــ بأن تطلب من إياس أن يكتب مقالة واحدة على الأقل عن هذه اللحظات التاريخية التي يجسدها له

التيلفزيون الآن، وأن يرسل بالإيميل إليها ما يكتب كي تترجمه إلى الألمانية وتنشره في صحفية محترمة، فتنفتح له في الصحافة الطريق التي نشأ وهو يحلم بها، ولم يزل. وفي وحشة الغرفة الصغيرة النظيفة التي تصير سجناً كلما اقترب المساء الربيعي، يبدأ ربيع الكتابة في الدفتر الصغير بالمصير المحتوم لهذا الرجل، ثم يشطب كلمة الرجل ويكتب كلمة الديكتاتور. ثم يشطب السطرين اللذين لم يكتملا ويندفع بالكتابة عن دولة هذا الرجل الديكتاتور ذات الحزب الواحد و / أو العشيرة الواحدة و / أو الطائفة الواحدة و / أو القومية الواحدة. ثم يشطب ما كتب ويندفع بالكتابة عن أسرة الرجل الديكتاتور فرداً فرداً وفردةً فردةً. ثم يخصّ بالكتابة من اختاره الرجل الديكتاتور ليكون خليفته على الأرض عندما يصعد هو إلى السماء ليواصل بناء دولته هناك، بينما يواصل الخليفة خلافته مهتدياً بهدي أبيه السماوي في الخطف والقتل والاعتقال والتعذيب والنهب والتجويع. ثم شطب إياس السطر الأخير وقد باغته سأم مثل هذه المفردات وعجزها. وعاد يرمق الهاتف الصامت متهيباً أن يخبر ونسة بمرضه. وكانت لافتات تتكاثر في الشاشة وأصوات تعلو وتمثال الديكتاتور ذو الدبر الكبير العاري ينشحط على الإسفلت مصفوعاً بالشحاطات والصبابيط والأبواط والكنادر والصرامي والجِزَم والكلاشات والبوابيج، وبالبصاق والشتائم، فدسّ إياس الدفتر الصغير في كومة الجرائد والمجلات على الكومدينة، مؤثراً أن يتفرج.

11

إذا عاد حب قديم فلن يكون حباً جديداً، بل حبٌ قديد

قالت جنان بلجهة ودية:

- الحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك.

قال ربيع وهو يداري فرحته الصغيرة بلقائها. وتذكّر وهو يُفرغ حقيبته عودته من طرابلس وتونس: هذه العودة مثل تلك، سوى أنه اليوم قادم محمّلاً بالخيبة في مشروع الألماس، ولم يصادف شهلة في السوق الحرة في المطار، وجنان في البيت: ماذا بقي إذن من الشبه؟

وقالت جنان بأسى:

- إياس في المستشفى.

فأحسّ بالندم على أنه لم يجرؤ على أن يجرب الاتصال بجنان طــوال إقامته فيما سماه أخيراً: منفى الألماس. ونظر إليها معاتباً: هي أيضاً لم تتصل. وتساءل:

- خير؟

- إصـــابة بالسرطان في الرئة اليسرى، ولكن إياس لا يعرف. انتبه. الدكتور يرجح أن الإصابة في بدايتها ولكن الله يستر.

واجــتاحه خــوف مبهم، وتسمّر يلوم نفسه على أنه لم يتصل بإيـــاس غير مرة واحدة منذ غادر إلى منفى الألماس: حتى لو لم يتصل إياس، كان عليك ألاّ تقابله بالمثل. وأسرع بالخروج.

***

كـــان إياس غاطساً في السرير، ولم يجرؤ ربيع على أن يملأ عينيه من نحول الأصابع ولا من غور الوجنتين.

وكانـــت شهلة ملء الكرسي الملاصق للسرير: صوت خفيض ونظرات كسيرة، وعقد من الوشم يطوق عنقها ويزيدها غربة.

وجاهد ربيع كي يلاقي إياس كأنهما قد افترقا بالأمس على نقار ومـــزاح. وتجاهل شهلة التي صمتت حتى التفت إليها إياس، وقال متابعاً ما انقطع من حديثهما بدخول ربيع:

- أنـــت تقوليـــن: الحـــاكم المدنـــي الأميركي يلعب الكرة مع الأطفال. يا سلام على الحضارة! يا سلام على المشاعر الإنسانية! والمتحف يا شهلة؟

- يقولـــون: مـــن نهـــب المتحف هم المجرمون الذين أطلقهم الديكتاتور من السجون قبل الحرب.

قالت شهلة وهي تبحث عن نظرات ربيع، فقال إياس بانفعال:

- حـــتى لو كان هذا صحيحاً، لماذا تفرّج أبطال المارينز على المجرمين وهم يكسرون الجرار والتماثيل وينقلون ما ينهبون إلى الشاحنات؟ لماذا حمى رسل الحضارة والحرية وزارة النفط وعينوا فـــوراً مسئولاً عن حماية قصور صدام حسين ونسوا المتحف؟ إذا كنـــت لا تعرفين السبب، اسألي من سرقوا لوحة ركوع العبرانيين أمـــام نـــبوخذ نصّر. اسألي الطالبان عندما حطموا ما في متحف كابول. بل اسأليهم عندما حطموا تمثال بوذا، وقولي لي: ما الفرق بين هؤلاء وبين أبطال المارينز؟

ابتسمت شهلة وقالت مشفقة:

- أنت تبالغ يا إياس.

وقال ربيع برجاء:

- اهدأ يا إياس.

والتفت إياس إلى ربيع مخاطباً بانفعال أكبر:

- هـــذا تدمـــير مـــبرمج للتاريخ. أمريكا بلا تاريخ لذلك تريد العـــراق على صورتها. نائب الرئيس الأميركي قال قبل الحرب: أعدنـــا العراق إلى عصر ما قبل التاريخ. الرئيس نفسه قال: حملة صليبية.

قالت شهلة ممازحة:

- زلة لسان يا إياس. من يحاسب على زلة لسان؟

ودخل الأستاذ بيدروس وأم أسامة، وتبعتهما الست حياة، فوقف ربيع قائلاً:

- سأترك مكاناً لغيري.

وأسرع نحو الباب، ثم توقف متابعاً:

- أنا في الكفتيريا. بعد قليل أعود.

وخرج خائفاً من أن تحسبه شهلة هارباً منها.

* * *

حمل ربيع فنجان القهوة إلى الطاولة الفارغة الملاصقة للعمود، وأزاح المجلة التي نسيها صاحبها، وأخذ ينقّل نظراته بين الطاولات الأخرى، وبين الواقفين والواقفات: ليس غير القلق والوشوشة والسجائر, ليس غير المرض يملأ الهواء الذي يتنفسه الجميع, وفي زوايا السقف المستعار المضاء رغم ضوء النهار, يربض الشبح الذي لا يريد أحد أن يراه ولا أن يشعر به: الموت.

وأطرق ربيع يفكّر في أن إياس يبدو ميتاً مسجى على السرير, لولا صوته الملتاع على العراق. وشهلة؟

شهلة قد تبدلَ صوتها أيضاً, ربما بفعل المرض أو بفعل ذلك الشبح الذي لابد أنه يربض أيضاً في سقف غرفة إياس: الموت.

وشهلة قد زاد وزنها أربعة أو خمسة كيلو, إن لم يكن أكثر. وذلك العقد من الوشم يكاد يخنقها, كما كادت الوحدة تخنق ربيع هناك في منفى الألماس, ومن قبل في البيت وفي المجمّع, والآن

فـــوق هذه الطاولة الصغيرة التي بالكاد تتسع لمجلة منسية وفنجان قهوة وكأس ماء ومرفقين متوترين.

لكن شهلة ستنقض الوحدة عما قليل: يراها ربيع فور خروجها من المصعد البعيد ويشيح عنها. ثم يعود إليها وهي تقترب وتضبط رجاءه الصامت بأن تجالسه. وحين تحييه مبتسمة يقف وينتظر إلى أن تجلس, فيجلس ويقف في آن وهو يسألها عما تشرب، ويُحضر لهـــا فـــنجان القهوة, ويلاقي شكرها المهذب بابتسامة أكبر تهذيباً، ويتفرج على أصابعها وهي تقلّب في المجلة, ويرى صورة كبيرة للأسرى العراقيين, ويسمع همسة شهلة:

- شيء لا يصدق.

فيهمس:

- علـــى كـــل حال لم يقتل الأمريكان من العراقيين أكثر من صدام حسين.

ويخفـــق قلبه لأن أصابعها تتابع التقليب في المجلة كأنها تذكّره بنفسها. ويرى صورة كبيرة لأسيرة أميركية زنجية, ويسمع همسة شهلة:

- شيء لا يصدق.

فـــيفكر فـــي أن ما لا يصدق هو هذه الجلسة هنا, ونوم إياس هناك. وتنسحب نظراته إلى فنجاني القهوة، فتطوي شهلة المجلة، وتستعين على توترها برشفة عجلى ونظرة خاطفة من ربيع: كأنه فـــي ســـباق من الخمسين إلى الستين أو السبعين. وجمع شجاعته وقال وهو يشير إلى العقد:

- مبروك.

- فتلمست أصابعها عنقها, وظلت صامتة, فتضاعفت شجاعته وقال:

- نزع هذا العقد صعب.

- لكنه ممكن.

قالت بمرح. وخيل إليه أن صوتها الذي ألفه قد عاد إليها. وقال راغباً:

- عنقك من دونه أحلى.

ثم سأل متوجساً:

- هل هو علامة على..

وطال احتباس سؤاله, فتساءلت:

- على حب؟ ألم يحدثك إياس؟

- أريد أن أسمع منك.

- لماذا؟

وطال احتباس جوابه, فابتسمت قائلة:

- لا تجعلني أظن أني مازلت أعنيك.

فأحسّ بالندم يجلّله, وتمتم:

- يبدو أنك لازلت تعنينني جداً. ولكن لماذا أكتشف ذلك الآن؟ وأين؟ في المستشفى وإياس يموت. وأنت يا شهلة؟

- أنـــا؟ ماذا تتوقع مني وقد تخلّيت عني وأنا بحاجة لك؟ أنا؟ هربت منك مثلما هربت مني. كنت بحاجة إلى أن أنساك حتى لو لم تنسني.

قالـــت مـــتوجّعة. وراح يتملّى منها كأنه يراها لأول مرة في السوق الحرة. وفجأة اربدّ وسأل:

- هل هو الدكتور طرفة خير الله؟

- ليس مهماً من يكون ولا أن تعرف.

- كأنك لم تصدقي أن أودعك حتى أسرعت إليه. لو انتظرت. لو حاولت أن تستعيدي علاقتنا. لو دافعت عنها. من يحب ينتظر أحياناً العمر كله, حتى لو لم يحاول.

- ومن تحب أيضاً. ولكن ما نفع هذا الكلام الآن؟

- إذن لا أمل.

قال مخاطباً نفسه, وكان صوته ينضح ألماً. وتكوكأ حتى سألت:

- ماذا تريد مني يا ربيع؟

وأحسّ أنه يسمعها تناديه لأول مرة, فهفا إليها وجاء صوته كأنه يتهجّد:

- أن نبدأ من جديد.

وتراءى لها ربيع وهو يلاعب سعيد, وطرفة وهو يعود بها من بيروت مسرعاً, وفي بداية أوتوستراد المزة يودعها بحرارة، ولكن، ولكن ربما ليوافي لونا. وأحسّت أنها تكاد تتوه, وأن ربيع يمكن أن يؤخر تيهها على الأقل, رغم أنه يأتي الآن فجأة أو متأخراً أو غير مفهوم، وربما غير واثق. وسألت:

- من سيكون البادئ؟

قال مبتهجاً:

- لأن البادئ أظلم: أنت. افرضي أنك رأيت ربيع لشلاش أول مرة. ابدأي.

- وربيع لشلاش؟

- من حيث المبدأ هو مهيأ. أنا لم أسرع بعدك إلى غيرك, ولم أكن أنتظر هذا اللقاء.

وأســـرعت أصـــابعه إلـــى أصابعها، وتعانقت الأصابع تحت المجلة, وسأل مشوقاً:

- متى نلتقي يا شهلة في غير هذا المكان؟

فسحبت أصابعها وقالت:

- مـــدام مرمـــر دعـــت إلى سهرة عندها يوم الخميس. ولكن سيكون طرفة حاضراً. ما رأيك؟ على الأقل ستعرفه عن قرب. أنا أدعوك وسأطلب من مدام مرمر أن تدعوك.

فـــتلوّتْ أصـــابعه تحت المجله, وتقلصت شفتاه, واهتّز رأسه حائراً.

12

ما أحلى السهر في بيت مدام مرمر!

فوجـــئ ربيع برحاب تفتح الباب وتستقبله بحرارة وتقوده عبر الممر المبلط الطويل وسط ألوان الجنينة وأضوائها الخافتة. وعند منـــتهى الدرج المفضي إلى الباب المرصّع العريض فوجئ بمدام مرمر ترحب به كأنهما صديقان قديمان: امرأة من مرمر, صقيلة بلـــون الســـماء إبان السطوع، في مثل عمر جنان وشقرتها لكنها أقصر وفستانها يزيدها سمنة. وأسرع خلفها وبموازاة رحاب إلى الصالون الفسيح الذي بدا هاني ضائعاً في زاويته اليمنى, وبجانبه شاب يدوزن عوده: أين شهلة؟ وهل يُعقل أن يكون صاحب العود هو الدكتور طرفة خير الله؟

نظرت رحاب إلى ساعتها وقالت إن شهلة قد تأخرت. ودعت مدام مرمر ربيع إلى أن يختار ما يشرب ويملأ كأسه بنفسه, فغالب انكماشه ومضى إلى البار البعيد, وتعثّر في فتح زجاجة الجين وفي العثور على العصير وفي مكعّبات الثلج وفي مشيته وهو يعود إلى مكمـــنه بجانب رحاب. وزاده انكماشاً انصراف الآخرين عنه إلى الدندنـــة مع صاحب العود. ونظر إلى ساعته مرتين قبل أن تسبق الخادمـــةُ إلى فتح الباب ـ رحاب ومدام مرمر همّتا بالوقوف ـ ودخلــت شـــهلة وخلفها طرفة وخلفه الخادمة تحمل أطباقاً، وقدّر ربيع أن شهلة وطرفة هما من أحضر الأطباق: لماذا؟

كـــان ربـــيع آخر من وقف لتحية القادمين. وأصغى إلى شهلة وهي تقدمه لطرفة وتقدم طرفة له, وأقبضته غربة صوتها, وتعمّد أن يجلس بعيداً عنها, ولكن إلى جوار طرفة.

بعـــد قليل ملأ طرفة كأساً له وكأساً لشهلة: هو إذن يعرف ما تفضـــل أن تشرب. وبعد قليل تجرأ ربيع على أن يملأ عينيه من شهلة, فارتدتا عما بدا له من ماكياجها ومن تعرية التنورة لفخذيها حـــتى المنتصـــف. وبعـــد قليل طلب طرفة منها أن تناوله علبة السجائر, فبحثت في حقيبة اليد, وقالت: شرّف: هي إذن تحتفظ له بعلبة السجائر.

بعـــد قلـــيل أيضـــاً تنبه ربيع إلى أنها تتناول من الخادمة شالاً وترخـــيه على حرجها فتغطي ما ظهر من فخذيها حتى منتصف ساقيها, فخاطبها:

– لم أكن أعرف أنك محافظة. بلا الشال أحلى.

وتكلّفَ ضحكة، وسرّه أن مزحته قد تكون آذتها وأن يبدو جريئاً أو ذا دالّة. واكتشف أنه لم يبادلها منذ دخلت إلا هذه العبارة، ومال إلى طرفة متكلفاً المودة:

- كنت أنتظر معرفتك منذ قالوا إنك ستعالج إياس قمر الدين.

فقال طرفة:

- وأنا أنتظر معرفتك. أنا سعيد بمعرفتك. شهلة حدثتني عنك.

بماذا حدثته عني؟ تساءل ربيع وهو يزداد استفزازاً. وأسعده أن الآخرين تشاغلوا بالمزاح والضحك وملء صحونهم بالمقبلات من الطاولة الكبيرة المدججة قرب البار. وعندما رأى هاني قد تعالى على كرسيّ أمام البار, حمل كأسه وأسرع إلى الكرسيّ المقابل كأن شهلة ليست هنا.

بعد قليل فوجئ بها تقدم له صحناً من المقبلات, فاعتذر عنه شاكراً دون أن ينظر إليها, وتابعها وهي تمضي بالصحن إلى طرفة, ورآهما يضحكان.

وبعد قليل فوجئ بهاني يتركه وحيداً, وبنفسه يغبّ كأسه غبّاً, وبمدام مرمر تقدم له صحناً من المقبلات, فاعتذر عنه شاكراً، وكأنما كان بحاجة إلى أن يكون حازماً في أي أمر, فقرر ألاّ يأكل لقمة واحدة. ولبث وحيداً حتى فوجئ بطرفة يجلس على كرسيّ هاني, فاسترق نظرة من عقد الوشم على عنق شهلة, وحاول أن يتخيّل أنه يكشط العقد بنفسه، ويطوقه بعقد من المرجان, فأخفق, فحاول أن يتخيّل جلد إياس وقد أبرأه طرفة من آثار السجن. وازداد إخفاقاً، وكان طرفة يحثه على أن يشرب, فرفع كأسه قائلاً:

– أنـــت ذائع الصيت في التجميل. هل صادف أنك وقعت في غرام من تجمّل؟

– بالتأكيد, ولكن من النساء فقط. أنا أجمّل الرجال والنساء.

قـــال طـــرفة وقهقـــه. وفكّر ربيع بأن شهلة ليست الأولى ولا الأخـــيرة فـــي حـــياة هذا الشاب الذي يضجٍ عافية وثقة. وأحسّ بالشماتة بها, ونظر إلى طرفة نظرة حسد قائلاً:

– بمهنـــتك يصـــير الجمال صناعة. هذا اعتداء على الطبيعة, على الفطرة.

قال طرفة:

– الفطـــرة تـــتراجع كلما تقدم الإنسان على طريق الحضارة. والصـــناعة تعيد خلق الطبيعة, وخاصة في هذا العصر. الاعتداء علـــى الطبيعة يشوهها. أنا لا أعتدي عليها، بل أجمّلها أو أمنحها جمالاً جديداً.

أخفى ربيع إعجابه وقال مناكفاً:

– لكـــنك أيضاً تجعل المرأة سلعة. وأنت وهي تركضان خلف السوق.

– هذا صحيح إلى حدٍ ما. وأحياناً إلى حد كبير. ولكن لا تنس أن لكـــل فـــترة من الزمن نظرة خاصة إلى الجمال. أقصد جمال المـــرأة, جســـد المرأة، لكل ثقافة نظرة خاصة. وما وصلت إليه الحضارة على هذه الطريق مهم جداً.

– هناك من يقول إنها في نفق مسدود.

– الجمال يا أستاذ ربيع حق من حقوق الإنسان, إذا سمحت لي أن أســـتخدم اللغـــة السياسية الدارجة في هذه الأيام. وباللغة نفسها

يمكن لك أن تسمي ما أقوم به وما يقوم به أمثالي وما تقوم به مدام مرمر وأمثالها: ديمقراطية الجمال. طبعاً للسوق هنا دور مثل دورها في الديمقراطية السياسية. هنا يتحرر الإنسان من سلالته. هنا يتحرر الإنسان من الهرم الذي يحتكر المحتكرون والمحتكرات في رأسه الجمال والتجميل.

– حِكَم.

– حتى لو كنت تستهزئ، هي حِكَم فعلاً. يبدو أن الفلسفة لا تهمك. أنا أيضاً قليل الاهتمام بها. ولكن إذا كانت الحكمة يا أستاذ ربيع تقطير المعرفة وتجديدها، فهذا هو تماماً ما تقوم عليه مهنة التجميل، منذ أول قصة شعر أو أول مكحلة. عن إذنك.

قال طرفة وتوجه إلى الآخرين. وتمتم ربيع: ما شاء الله يا شهلة! طبيب وفيلسوف! وكان صاحب العود قد بدأ العزف منذ حين. وما إن عاد طرفة إلى مجلسه قبالة شهلة حتى بدأت هي تغني: هزي على البلاد..

تذكّر ربيع كاسيت أولاد الجويني، وفاض به الأسى وهو يرى مدام مرمر توقِفُ شهلة وتعقد الشال على حوضها. ولم تكد شهلة تكمل فتلتها الأولى حتى نهض طرفة ليراقصها فاتجهتْ إلى ربيع. وسرّه أنها فعلت، لكنه ترك يديها ممدودتين إليه حتى ابتعدتا رافضاً أن يرقص، بينما أنهض طرفة رحاب وعلا التصفيق. ولاقت مدام مرمر شهلة راقصة، وانطلق صاحب العود بأغنية جديدة لم يسمعها ربيع من قبل. واقتربت منه مدام مرمر فلاقاها مشيراً إلى شهلة مستنكراً وصادقاً:

– من هذه؟

والتفتت شهلة ورأته مقبلاً على شجار, ورأت مدام مرمر تضحك وربيع يراقصها. وتناهى إليها قسمه على أنه لا يعرف الآن من تكون, فأرخت الشال وناولته لرحاب. ورأى ربيع انقباضها, وكان هاني يعقد الشال على حوض رحاب وطرفة يلاقي شهلة, لكنها تجاوزته وجلست بجانب صاحب العود. وأسرع طرفة إلى مدام مرمر فانسحب ربيع إلى كرسيه نادماً على حضوره. وفكّر في أنه لو عاد إلى شهلة وعادت إليه, فسيكون معها مثله مع جنان: هنا طرفة وهناك الأستاذ موسى نزهان. ونظر إلى ساعته, وتساءل عما إذا كانت شهلة قد باتت بعده تتأخر في السهر كما تشاء, أم إنها الليلة في حماية أخيها هاني. وأحسّ بالجوع فجرع كأسه دفعة واحدة. وأحسّ بدوار خفيف, وتمنى لو يكون قادراً على الانصراف, لولا أن عليه أن يرى إن كانت شهلة سترافقه أم سترافق طرفة الذي جلس الآن بجانبها, بينما صفّق الآخرون عالياً.

13

ندبات القلوب

كانت شهلة تنفرط على صدره مثل حبات الندى حين قالت:

- غداً تزيل الوشم يا طرفة.

قال وأنفاسه تلتهب في شعرها:

- دعيك من هاني ورحاب وتعالي معي.

وصمتت مترددة, ثم تحررت من ذراعيه وسألت:

- هل تتزوجني يا طرفة؟

- من تسأل مثل هذا السؤال في مثل هذا الوقت وفي باب العمارة, لا بد أنها مجنونة.

- أنا مجنونة وأنت تريد زوجة عاقلة. فهمت.

- كم قلت لك: أنا لا أفكر في الزواج. نسيتِ يا عاقلة؟

- واحدكم يطلب يد الواحدة منا ويقول لها: فكري وردي لي الجواب. فكّرْ يا طرفة وردّ لي الجواب غداً عندما تزيل الوشم.

قالت, وقبّلتْ وجنته, ولحقتْ بهاني ورحاب. وفي نومها, كما في صحوها, ظلت سكرى حتى أزال طرفة الوشم.

عــندئذٍ ملأهــا صمته عن الزواج بصوت رجل مجهول مرة, وصوت امرأة مجهولة مرة: أنتِ الآن حرة. تحرر عنقك من عقد الوشــم كمــا تحرر من عقد المرجان. حسام أيضاً طوّق عنقك. بالأحرى حسام لفّ حول عنقك الرسن وراح يجّر. أنت الآن حرة. تحــررت مــن طــرفة كما تحررت من ربيع وحسام. ولكن من سيرضــى بعــد اليوم بهذا العنق الشائه؟ لابد لكِ من عقد يستره. يســتره أم يطوقه؟ يستره ويطوقه: هذا ما تريدين, لذلك طلبت يد طــرفة كمــا طلبت يد حسام. حسام أفضل من طرفة ومن ربيع. علــى الأقــل رضــي بــك. ربيع أدار ظهره لك وطرفة لا يريد الــزواج، وأنــت لا تصلحين زوجة ولا تصلحين عاشقة, بل ولا تصلحين حتى أن تكوني أماً لسعيد. أنت لست حرة. أنت حرة قليلاً وعبدة قليلاً. أنت حرة كثيراً وعبدة كثيراً, لذلك يصدعك الصوت ويتبدل ثم يرميك على المفارق: إلى أين يا شهلة؟

* * *

فــي ذلك الفجر, عندما كانت لاتزال تستعيد طلب الزواج من طرفة, جاء صوت ربيع مشروخاً يطلب اللقاء الآن إن أمكن. وما دام غير ممكن الآن فليكن في الساعة العاشرة في الهافانا.

لــم تعهد شهلة لصوت ربيع هذا الحزم من قبل. غير أنه كان بالكاد يُسمع في الهافانا.

كانـــت نظراته تنضح رهقاً, لكنها كانت نظرات هيمان برّحها السهد وربما الغيرة: فكرت وهي تصغي إليه.

وقال ربيع:

- لـــم آكـــل منذ غداء البارحة. عدت إلى البيت وملأت كأساً كبـــيراً بالويسكي والثلج. جلست على الشرفة في أرجوحة غوى. كنـــت أفكّر فيك طوال الوقت. جنان لم تصدق عينيها وهي تراني أشـــرب الويســـكي في الصباح. لن أذهب اليوم إلى المجمّع. على ماذا تعاهدنا في المستشفى يا شهلة؟

- على أن نبدأ من جديد.

- وهـــا قـــد بدأنا في سهرة البارحة. مازلت تحتفظين بعلبة سجائر أخرى لطرفة؟

- لا

- لمن ارتديت تلك التنورة؟

- لك يا ربيع.

- وهذا؟

سأل مشيراً إلى الوشم, فقالت بضيق:

- سأزيله اليوم.

- وطبعاً سيزيله الدكتور طرفة.

- طبعاً.

- ماذا أبقى لي منك؟

- لا تنس يا ربيع أنك أنت كنت البادئ, والبادئ كما قلت لي الـــبارحة: أظلم. أنت تركتني فلماذا تسألني؟ ليس طرفة هو الذي يُبقي مني أو لا يُبقي, ولا أنت.

- من إذن؟
- أنا يا ربيع.

قالت غاضبة, والتفتت إلى المقهى فالشارع، وأحست أن فراغهما يجتاحها أو أن فراغها يجتاحهما. ولما عادت إلى ربيع رأته شاحباً شحوباً مريعاً وقد أسند ظهره على الكرسي وفرش كفيه على الطاولة وأغمض عينيه, فسألت مرتاعة:

- ما بك يا ربيع؟

فأومأ: لا شيء. وربما كان ينشد الهدوء فقط, أو كان عاجزاً عن أن يرد, ثم صار عاجزاً عن أن يسمع, لكنه أخلد ليديها تسقيانه جرعة من الماء البارد, وتمسحان حبات العرق عن جبينه.

بعد لأي استطاع أن يفتح عينيه وأن يعيد كفيه إلى حرجه, وكانت تعيد الموبايل إلى حقيبتها. وقالت عاجزة عن أن تخفي قلقها:

- اتصلت بمدام مرمر. بعد دقائق تصل. سنأخذك إلى الطبيب.
- أي طبيب؟
- لا أعرف. طبيب قلبية. هي تعرف أفضل أطباء البلد.
- قلبي لا يشكو من شيء.
- إن شاء الله. لكن يجب أن نطمئن.
- أنا راجع إلى البيت.

قال وقد استعاد صوته الحزم الذي فاجأ شهلة في الفجر. ورنت إليه خائفة، وهمست:

- كأنك تنتقم من نفسك يا ربيع. كأنك تعاقب نفسك. بل أنت تعاقبني وتنتقم مني.

- لازلت تجهلينني يا شهلة. أنا لا أعرف الانتقام, لكني أعاقب نفسي فعلاً. أما أنت فليتني أستطيع معاقبتك.

- على ماذا يا ربيع؟

- بالنسبة لي على أني تركتك. على أني طلبت منك أن نبدأ من جديد.

- وبالنسبة لي؟

- لا أعرف.

قال وهو يتنهد عميقاً ثم يقف. وسألت بلهفة:

- متى أراك؟

- في أي وقت.

همس بضعف ومضى مسرعاً كأنه يخشى أن يتأخر عن موعد معها. لكن الموعد سيتأخر حتى يبرأ عنقها من الوشم.

***

عندئذٍ سينسى ربيع أنه ما كاد يغادر الهافانا حتى أسرعت إلى صدره وخزة وخارت ركبتاه. وما كاد يقود السيارة حتى عاودته وخزة أكبر. وما كاد يدخل البيت حتى كاد أن يسقط فصاح: جنان.

وسينسى أن جنان لم تكن قد عادت من المجمّع, وأنه سيغفو في الصالون على الكنبة العريضة حتى تعود, وأنها ستوقظه بغلظة وستلومه على سكره وسهره وغيابه عن المجمّع وذقنه النابتة وهيئته الزرية, وستهدده: ما عدت أستطيع الاحتمال. إما أن تترك البيت أو أتركه لك.

لكنها ستحتمل وسيحتمل ما دامت غِوَى قادمة. وقبل أن تصل سيزور طبيب القلبية الذي نصحت به مدام سالمة. وسيكذّب الطبيب الذي يؤكد أنك قد مررت بأزمة قلبية خفيفة, وأنها تركت ندبتها على البطين الأيسر, وأن عليك أن تحمل هذه الحبة دائماً, وأن تجري هذه التحليلات. وما دام وزنك معتدلاً وطعامك معتدلاً ولا تدخّن, عليك بالمشي, والأهم أن تنأى عن أي توتر أو انفعال.

عندئذ فكّر بأن شهلة ستقضي عليه. فلولا السهر في بيت مدام مرمر لمًا كان ما كان, ثم فكّر بأن جنان ستقضي عليه, وبأن عليه أن يشكوها لِغوَى. لكن جنان استقبلت غِوَى بشكواها منه في اليوم الأول, فعجز عن أن يدافع عن نفسه. وفي اليوم الثاني قالت جنان في غياب غِوَى: باريس والحمد لله أنضجت البنت. الآن نستطيع أن نفترق بلا قلق عليها. وفي اليوم الثالث قالت بحضور غِوَى: خلّنا يا ربيع ننه أمورنا بسلام قبل أن تسافر غِوَى, فانفجرت غِوَى: أنا مسافرة بكرة. وأطبق الصمت على البيت حتى سافرت, بيد أن الطلاق كان قد تمّ, وكان ربيع قد تخلى عن حصته من البيت ومن الرصيد لغِوَى.

وها هو الآن يقيم في بيت إياس الذي غادر المستشفى بانتظار أن يعود الدكتور واصف من سفرته المفاجئة إلى كندا.

وها هي الآن شهلة تأتي إلى موعدها مع ربيع عريانة العنق, تتهيب كرسي إياس وفنجان قهوته وصورة الزنجية العارية وعتمة شاشة التيلفزيون وصوت الراديو الخفيض الذي ينبئ بمصرع جندي أمريكي على الطريق السريع غرب بغداد، وجرح جنديين في القائم قرب الحدود السورية العراقية, فتُسْكِتُ الراديو وتصغي

إلى ربيع كأنه يحدثها عن رجل آخر يحمل قلبه ندبة على البطين الأيسر, ولا بيت له ولا زوجة ولا بنتاً تدرس في باريس, فودّت لو تستطيع أن تجعله يرى ندبات قلبها: أنت ندبة يا ربيع, وطرفة ندبــة. حســام درباس ندبة, وسعيد ندبة, وأبي ندبة, وما بقي في القلب مطرح لندبة. ووسّدتْ رأسه على حضنها كأنها تُشهده على مــا بها. وتدفّأ حضنها بأنفاسه فاقشعرت. وتمرغ خده على ثدييها فانتصــبت حلمــتاها. وتمرغ خدها على شعره يغالب تهيّبها حتى يغلبه وقد استطاعت أن تقف وتجعل ربيع يقف ويخاصرها منقاداً إلى سرير إياس. وحين رأته مستلقياً بثيابه ومستسلماً استطاعت أن تضــحك وتفــك أزرار قميصـــه وبنطاله, وتداعب شعر صدره الأشــيب, وتغمزه حتى يتخلص من ثيابه وتتخلص من ثيابها على مهــل مــتلذذة بالشهوة التي أخذت تلفحها على مهل. وحين يلتحم عــريها بعريه ستستعر الشهوة ويمضّها شتات ربيع وتعثره, كأنه نسي كيف يضاجع امرأة, بل كأنه لم يضاجع امرأة من قبل. وفجأة يــنهار على صدرها باكياً: كأن طرفة يمنعني عنك. كأن جنان.. كأن غوِى.. كأن إياس.. كأنك لست شهلة.. كأني أموت.

عــندئذ كفكفــت دمعه وهمست: أنا شهلة يا ربيع. أنا شهلة يا حبيبــي. ومسحت كفها على ظهره بحنان, وترشفت وجنتيه وذقنه وعنقه. ثم أخذت أظافرها تحك أليتيه وشفتاها تلثمان حلمتي ثدييه, وطوت ساقيها على باطن ساقيه, وأخذ يتموج فوقها كأنه يفيق من غيــبوبة. ولمــا اكتمل صحوه أخذت أصابعه تدعك عنقها أقسى فأقسى وهي تختنق. ثم أخذت أسنانه تعض كتفيها وثدييها. وفجأة راحت تنغرز في عنقها, واندفع يحرث فيها حرثاً كأنها جنان وكأنه

الأستاذ موسى, أو كأنها ونسة وكأنه إياس, أو كأنها شهلة حقاً وهو طرفة الذي سيجعلها تتضرع إليه أن يكّف, لكنه لن يستجيب حتى ينتعظ, ولن ينتعظ, لأنه اكتشف أنه ربيع لشلاش وحسب.

***

بعدئـذٍ ســتكتفي شــهلة بهاتف منه وهاتف منها, معتذرة مرة بالملعون سعيد ومرة بالجرد السنوي في السوق الحرة ومرة بوحام رحاب ومرة بمرض أبيها, بينما كانت تفكّر مرة في أن عليها ألا تتخلى عنه في محنته, ومرة في أن عليه أن يتزوجها فوراً, ومرة في أن عليها أن تنتظر حتى ينهض مما هو فيه ثم تطلب يده إذا لم يطلـب يدها. غير أنها عندما أخبرها بموعد جراحة إياس صباح السبت, كانت قد قررت أنه لا يصلح زوجاً لها, ولا تصلح زوجة له, لذلك ستكتفي به صديقاً يضاجعها وتضاجعه من حين إلى حين.

14

زيزون الجديدة

سُــرَّ إياس بسفر الدكتور واصف فجأة, وتمنى أن يطول غيابه في كندا, وبخاصة أن نوبات السعال بدأت تتناءى وتقصر وتخفت.

كــان ســعيداً بإطلاق سراحه من المستشفى مثله عندما أُطلق سراحه من السجن, كما ردد أمام الجميع. وربما تضاعفت سعادته لأنــه أقــام في بيت ونسة, تاركاً بيته لربيع. وحين فاتحه معتصم بالريبورتاج الموعود عن زيزون الجديدة, قال جازماً:

– سأذهب وحدي وأكتب وحدي.

لكــن غضب معتصم جعله يتراجع فقط عن السفر وحيداً, فَقَبِلَ معتصــم علــى مضض، وتباطأ إياس لما كان فيه ربيع بعد سفر غِوَى وبعد الطلاق, فضلاً عن ارتباك علاقته مع شهلة. ثم توالت هزّات المجمّع.

كانــت الهزة الأولى حين نصّب الأستاذ موسى ابن عمه ثائر نزهان رئيساً للدائرة القانونية التي شغرت رئاستها منذ أُعفي منها الدكــتور ســامر عطوف. وسرعان ما تردد أن ثائر نزهان محام تحت التدريب, ولا خبرة قانونية أو إدارية له البتّة.

وكانت الهزة الثانية حين أُسند أمن المجمّع لفواز بكلة، وجرى تــبديل الطــاقم الأمني كله في أربع وعشرين ساعة. وسرعان ما تــردد أن لفــواز بكلــة شــركة أمنية في موسكو تتولى حراسة الشخصــيات والمؤسسات الخاصة, وقد أخذت الشركة تنشط في بغداد. كما تردد أن فواز صاهر آل نزهان بعد موت الدكتور عيسى.

وكانت الهزة الثالثة أو الرابعة حين أُعيد تشكيل لجنة الأشراف وأُبْعِــدَ منها ربيع, أو حين أُعيد تشكيل المكتب الخاص. وسرعان مــا تــردد أن رئاسة المكتب التي شغرت ثلاثة أيام, لن تُسند إلى جــنان, علــى الرغم من أنها ظلت تمارس عملها فيه كأن شيئاً لم يتغير, ثم طلع اليوم الرابع بالتجديد لجنان.

أمــا الهزة التي لم يُؤبه بها, وربما كانت الخامسة أو السادسة, فقــد كانت تشكيل لجنة جديدة لتطوير المجمّع 21, ضمّت كثيرين مــن خارجه, وأكثرهم من جيل موسى نزهان ممن زاملهم أو عرفهم في يفاعته أو في لندن أو في واشنطن أو بعد وراثته لعمه الدكتور عيسى.

كان كل صباح يهلّ على المجمّع بخبر جديد أكثر إثارة. لكن ما شــغل الجمــيع أخــيراً هو ما تردد من أن الأستاذ موسى سيأتي بأقــربائه الأدنيــن والأبعدين إلى المجمّع, وسيُسند إليهم المناصب الحسّاسة, وأكثرهم من الشباب. وفجأة استدعى فواز بكلة إياس إلى مكتبه. ورأى إياس نفسه كأنما عاد إلى أي من مكاتب التحقيق التي

تقاذفته قبل سنين, فلبث متوفّزاً وفواز يتشاغل عنه بالأوراق والهواتف والنظرات الخاطفة إلى قناة السي. إن. إن. ثم: قهقهة مدوية فهمسة طويلة ختمها فواز قائلاً بمودة وهو يناول إياس الموبايل:

- كلّمْ ضرار.

- ضرار من؟

سأل إياس مستنكراً.

- من يعني؟ أخوك.

قال فواز مستنكراً أيضاً, فكان على إياس أن يسمع صوت ضرار بعد سنين. وكان عليه أن يسمع صوته هو يحمد الله مرة, ويشكر ضرار مرات ما دام قد أوصى به الدكتور واصف, أو أخبر أمه بمرضه, أو أخبر أيضاً رضاب التي انتقلت من روما إلى ستوكهولم, وما دام يوصي به الصديق والشريك فواز بكلة: شريك في ماذا يا إياس؟

وفجأة أدرك إياس أن للماضي المبتور البعيد فخاخاً لا تزال منصوبة. بل هي تشتبك مع فخاخ الحاضر, كأنّ أخاه ورد لم يمت, وضرار ليس هارباً, وكأنّ فواز يمكن أن يكون أخاً ثالثاً, والدكتور واصف أخاً رابعاً. ولابد أن لإياس أخوة آخرين في موسكو أو في بغداد مادام لضرار وفواز شركة واحدة على الأقل للخدمات الأمنية. وربما كان الإخوة أيضاً في فيلادلفيا حيث يكلم ضرار أخاه الوحيد, ويذكّره بزيارة أمه, ويعرض عليه أن يعالجه في أرقى المستشفيات الأمريكية, رغم ثقته المطلقة بمهارة الدكتور واصف في الجراحة مثل مهارته في الأعمال: أية أعمال يا إياس؟

* * *

كانـــت مفاجـــأة فـــواز الأخيرة وهو يودع إياس أنه على علم بالريـــبورتاج الموعود عن زيزون الجديدة. ولا بد إذن أن يكون معتصم قد أسرع إلى أن يكون مخبراً لدى المسؤول الأمني الجديد عن المجمّع. ولابد إذن أنه كان مخبراً لدى المسئول السابق, وربما لـــدى غيره. لذلك قرر إياس أن يسافر وحيداً. غير أن ربيع أصرّ على أن يرافقه فراراً ــ ربما ــ مما به. وكانت نوبات السعال قد عادت تتكاثر على إياس وتطول وتعلو, وكانت هواتف ونسة قد أخذت تنتظم كل ليله: لا تنتظر عودة الدكتور واصف يا إياس. تعال.

ولأن ربـــيع أشـــفق على إياس من لهفته على زيارة أمه ــ قد تكون زيارة الوداع لأحدهما أو لكليهما: فكّر ــ ترك السيارة تتابعٍ إلـــى أطلال السد. وثمة، أمام البوابة الفاغرة, وقف إياس مرتاعاً, كأنـــه لم يرها من قبل, وكأن الموت الرابض فيها سيمسك به من صـــدره الآن, أو بعد قليل, ولكن بعد قليل جداً, فلا منجاة حتى لو عـــاد يـــنطّ كالقرد، أو لو جرى كالغزال إلى زيزون الجديدة, أو ركـــب سيارة ليودع أمه, أو طارت به طائرة إلى هانوفر، أو عاد الدكتور واصف من كندا الآن واستأصل الرئة المتسرطنة, بل حتى لو لم تكن الرئة متسرطنة, أو لو جاءت ونسة نفسها لتنقذه من الموت المحـــتوم. واجتاحه حنين موجع لأمه, فتهالك يبكي بلا دمع فوق بقية من عضادة إسمنتية، ولم يستطع أن ينطق بحرف حتى انعطف ربيع بسيارته حيث تشير الشاخصة إلى قرية زيزون الجديدة.

عـــندئذ مســـح على يباسة دمعه. وحين تجاوزت السيارة بوابة القـــرية المقوّسة الكبرى, تنهد مطمئناً. وازداد طمأنينة عندما حيّا ربيع الرجال الجالسين على رصيف صفّ البيوت الأول: تفضلوا يا شباب.

لكن السيارة تابعت على مهل: شارع الوحدة العربية, شارع ابن خلـــدون, شارع الحرية, شارع المتنبي, وهذه مدرسة, وهذا جامع, وهـــذه أكـــياس بلاستيكية سوداء, وحفر صغيرة, وكرة, وأطفال, وامـــرأة تســـتطلع السـيارة من نافذة كالخصّ, وهذا عجوز اقتعد رصـــيفاً آخر لصفٍّ آخر من البيوت, وهذا فتى يستند على ظهره ســـياجٌ ملتـــبس بين أن يكون لزريبة أو لحديقة, وهذا ربيع يتغنى بجـــود الثريّ الذي موّل بناء زيزون الجديدة, وهؤلاء هم الرجال الذيـــن لازالـــوا جالســـين على الرصيف ــ كانوا ثلاثة أو أربعة وصـــاروا ستة أو سبعة ــ يصافحون بحرارة واحترام الأستاذين القادميـــن من الشام خصيصاً لزيارة زيزون الجديدة: هذا الأستاذ مهندس وهذا الأستاذ صحفي، وهذا أبو أحمد يقدم الشاي للضيفين ويـــتذكر أيـــام عمله في ورشة للمجمّع 21، وهذا أبو نادر يتقدم الشابين إلى البيت التالي على الرصيف المقابل: بيوت حلوة وكبيرة ولكـــن كمـــا ترون يا جماعة: كلها مثل بعضها. بيوت ميتة مثل جنائنها ومثل شوارعها. أين يمكن أن نربي البقرة؟ افتحوا طريق يـــا حريم. هذا ابني الكبير الله الكبير يخدم عسكرية. وهذه أختي أرملـــة وأم ولدين تعيش معنا. هذه زوجتي وهؤلاء أولادي الثلاثة وهذه بنتي الوحيدة مسك الختام. يعني نحن عشر أنفس نعيش في هـــذا البيت. لا تؤاخذني يا أستاذ عرقت؟ البيت حار. طبعاً حارّ. هـــذا الســـقف وهذه الجدران تنفخ النار ومازلنا في أول الصيف.

وهـــذه هي الجنينة. قطعت منها الزريبة وغطيتها بالخيمة. البقرة مـــثل الولـــد لواحدنـــا يا أستاذ. ممنوع نربي حيوانات. أين أربي الدجاجات والحبش والأوز والبط؟

وعاد ربيع وإياس مغمومين خلف أبو نادر إلى مجلس الرجال. وريـــثما دارت القهوة على الضيفين والآخرين الذين صاروا تسعة أو عشـــرة, افتقد إياس أي شبه لأي من الرجال بأي ممن صادفهم أو جالســـهم عندما كان ينجز التحقيق الذي أمر به الأستاذ موسى نزهان. وفكّر في أن هذه الغربة عن الرجال وعن زيزون الجديدة كلهـــا ستكون صلة الوصل بين التقرير الذي رفعه إلى الأستاذ موسى وبيـــن ما سيكتبه فور عودته إلى الشام. لكن الغربة أخذت تزايله عندما أبـــرق طقم الأسنان في فم أبو مصطفى ـــ لابد أنه كبيرهم ـــ وتهدج صـــوته: ساعدونا بعشرة آلاف ليرة يوم الطوفان ثم قطعها المصرف من ثمن محاصيلنا. إذا كان المبلغ سلفة لماذا قالوا لنا هذه مساعدة؟

وفكّـــر إيـــاس وهو يلتقط صورة لربيع مع الرجال في أن ما سيضـــيفه إلى التحقيق في كارثة زيزون كثير ومثير. وأخذ يلتقط الصـــور بحماســـة لزيـــزون الجديـــدة، كأن الجريدة التي ستنتشر الريـــبورتاج لـــمٍ تعد تطيق صبراً. وودّع الرجال على عجل كأنه سيمضـــي فـــوراً إلـــى بيت ونسة ليكتب الريبورتاج. لكن نوبات السعال أخذت تحاصره وترهقه، والسيارة تقطع سهل الغاب لتنقضّ علـــى البحر وتجمع إياس بأمه: هي ذاوية كأنها تحتضر منذ زمن طويل, وهو يَجِف ويبكي بلا دمع, وينسى زيزون الجديدة وزيزون القديمة, وربيع واقف بجانبه لا يحير.

15

رقصة القفّة

كـــان إياس قد ازداد تضاؤلاً حدّ الضياع في السرير. ولم ينفع تسريح ونسة لشعره ــ ولا تمسيدها لحاجبيه ولا حلاقتها لذقنه ــ فـــي درء صـــورته الجديدة التي سيسميها في السابعة من صباح السبت وهم ينقلونه إلى غرفة العمليات: حيوان جديد.

وكان الدكتور واصف قد سمح لونسة وحدها بأن ترى, مستجيباً لإيـــاس قـــبل دخول غرفة العمليات. وكان على ونسة أن تكذّب عينيها: هذه صفحة ظهرك يا إياس وآثار الشواء تظهر من بعيد. هذا منشار وجزّار ودم وأضلاع وقفازات وخروف وأحشاء، كأنْ لم يبق إلا أن تخترق ونسة الزجاج ليأتي الدكتور واصف بأسياخ ومنقل عارم بالجمر ويشوي ويُلقم ونسة لقمة من لحم إياس, فيغلبها الغثـــيان حين تحسب أنها رأت مضغة هشة بلون الورد لازالت تنزّ, أو حين تحسب أن المضغة مقطوعة من رئة إياس, أو حين تحسب

أن رئـــة إياس مثل رئة خروف العيد تماماً, فتجرها ممرضة أو أكثر إلـــى الخــارج, ليلاقــيها ربـــيع وشهلة في مدخل الجناح مصفرّة ومحنيّة: شوفيه يا ونسة؟ شو صار؟

كان ذلك بعيد التاسعة من صباح السبت, أي في اليوم الخامس لهـــاتف ربيع: الحقي إياس يا ونسة، فلم تغف حتى أغفت الطائرة على الغيوم, ثم لم تغف حتى غلبها الغثيان وأمرتها الست حياة أن تبلع قـــرص الفاليوم, فنامت النهار بطوله في هذه الغرفة. ولما استيقظت رأت ربيع مرابطاً أمام التيلفزيون, فناسَ صوتها:

- طمّني يا ربيع.

- الحمد لله. فاق إياس من التخدير ووضْعُهُ مستقر.

همس بفرح, وكانت سيارة مفخخة تنفجر في الشاشة الخرساء, فأغضتْ ونسة وتنبه ربيع, فقال:

- تفجير في بغداد.

وخُيّل لونسة أن صوته ينبض بالحزن والقلق, فهفت إليه مشفقة ممـــا روى لها في الأيام الفائتة: جنان تركتني بلا بيت وبلا بنت وبـــلا قرش. شهلة تركتني بلا قلب. الأستاذ موسى نزهان أحالني إلى التحقيق بعدما أرسل ثائر نزهان إلى ليبيا ليفسخ عقد المجمّع معها. شو أعمل يا ونسة؟ أنا ابن اتنين وخمسين سنة قولي لي شو أعمل؟

***

والآن, وقـــد جـــاءوا بإياس من غرفة العناية المشددة إلى هذه الغرفة, بات بوسع ونسة أن تضطجع على السرير الإضافي الذي

سمح به الدكتور واصف, ثم ترجئ النوم حتى يرفرف جفنا إياس كما يرفرف قلبه على هذه الشاشة. وستظل تنتظرحتى يغلبها الخور والنعاس، فتراه يتوقد عندما دخلت: الحمد لله على سلامتك. وتراه يفيض بالعرفان عندما دخلت الممرضة الكهلة: هذه الست حياة يا ونسة. عوضتني عن أمي. عوضتني عن الجميع إلا عنك.

وعلى الصراط بين اليقظة والنوم ترى ونسة نفسها في غرفة أكبر من مشفى أكبر, وحسين يملأ سريراً مثل سرير إياس وينطفئ نظرة فنظرة, وبيرجيت تشهق شهقة الموت, فتنتفض ونسة وتقفز من سريرها وتهجم على وجه إياس وعلى شاشة القلب ولا تصدق أنه ينطفئ نفساً نفساً, فتلجأ إلى النافذة, وترمي ما لاقاها من أضواء المدينة بدعاء وزفرة, كأنها لازالت واقفة أمام النافذة المرشوشة بأضواء هانوفر, وصوت ربيع يزيده الهاتف لجلجلة: وضع إياس محرج. كان يرفض أن يصلك الخبر حتى تنتهي العملية. الآن يرفض العملية حتى تحضري. لذلك سيمتلئ ما كان قد تبقى من نهارها وسيمتلئ ليلها بموت حسين. وستحسب أنها تعود برفقة نعشه وابنه. لكن ربيع يلاقيها في مطار دمشق, ويرافقها إلى زقاق في الصالحية، فقط لترمي حقيبتها خلف باب الشقة المهجورة, ثم تسبق ربيع إلى هذه الغرفة. وستدمع عيناها فقط حين تتساءل: إياس عزاني بحسين فمن سيعزيني به؟

وكما جففت دمعتها ودفعت بالموت خارجاً وأقبلت على إياس كأنها تراه أول مرة, ولكن ليس في عزاء, بدت الآن وهي تلتفت عن النافذة إلى السرير: انتظمت أنفاس إياس ودقات قلبه. لكن ونسة لن تعود إلى سريرها, بل ستبحث في الخزانة عما يساهرها.

وســترمق في الرف الأعلى الكتابين اللذين ابتاعتهما منذ أكثر من شهر وقرأتهما كرمى لإياس: هذا لبيتر بيليتز: مع الله ضد الجميع ــ حمــلات أمــريكا العســكرية للسيطرة على العالم, وبيتر ممن أسسوا حزبنا حزب الخضر يا إياس, وهذا لإريك لوران: حروب عائلــة بــوش. سأترجم لك ما أظنه يهمك منهما: قالت مصطنعة الحماســة, فهمس إياس: ما الفائدة؟ وكان الدكتور واصف قد قرر إجراء العملية في الصباح.

مــن تحت الكتابين تناولتْ كتاب حَيْونة الإنسان, وتسلل صوت إيــاس: هذا الكتاب جديد. اشتريته قبل دخولي المستشفى بيومين. اقــرأيه لــتري كــيف يَتَحَيْون الإنسان. وأخذت تقلّب في الكتاب، وصــوت إياس يتابعِ: منذ سنتين قرأت رواية سمر الليالي، وقبلها روايــة رسمت خطاً في الرمال. وقبلها قرأت رواية رسمت خطاً فــي الــرمال ابحثــي عنهما، في وسط مكتبتي، إلى اليمين أظن، اقرأيهما لتري كيف يتَحَيْون الإنسان. وأغلقت الكتاب ونظرت إلى إيــاس كأنهــا تلومــه على ما اصطحب إلى المستشفى ليقرأه. ثم وضعت الكتاب فوق الكتابين الألمانيين. ومن زاوية الرف المقابلة تناولت دفتر إياس وعادت إلى سريرها.

***

بين صفحات الدفتر كانت قصاصات كثيرة ومتفاوتة مدسوسة. ووقــع بعضــها على حافة السرير وعلى الأرض فجمعتها جميعاً وأخذت تتصفحها. وفجأة استوقفتها قصاصة تقول: حيوان مذعور

حـــيوان يضحك حيوان يتلذذ حيوان يحرض حيوان يتفرج ونحن على الأرائك مضطجعون أو نملأ المدرجات والملاعب والساحات والشوارع والحدائق، بينما هذا الحيوان يعذب هذا الحيوان. وتسلل صوت إياس من القصاصة أكبر وهناً منه عندما كانوا ينقلونه إلى غرفة العمليات: حيوان جديد.

دسّتْ القصاصـــة في الدفتر وطافت نظراتها فوق القصاصة التالـــية، فتســـلل صوت إياس كلمة كلمة: شاشة التيلفزيون معتمة ولكننـــي أستطيع أن أرى هذا الديناصور العجوز الذي شبع تفككاً واهـــتراءً منذ عشر سنوات أو منذ عشرة قرون, لكنه يرفض أن يغـــادر الشاشـــة. وأستطيع أن أرى هذا الديناصور الفرخ الوسيم ينقضّ من الشاشة ليبدأ بالتهامنا حيواناً حيواناً ونحن نصفّق له.

لكننا بشر يا إياس: تتجرأ ونسة على أن تهمس. فلا يعبأ صوت إيـــاس بهمســـتها, بل يوالي كلمة كلمة: هم حقاً كثيرون، عجائز وأفراخ زغب الحواصل وسط الماء والشجر لكنني لا أستطيع أن أسمي منهم حتى صدام حسين كديناصور عجوز لأنه لا يزال حياً. ولا أستطيع أن أسمي كديناصور فرخ أي واحد من ولديه لأنهما لا يـــزالان مـــن الأحياء. حتى لو ماتوا جميعاً لا أستطيع أن أسميهم جمـــيعاً إلا بعـــد موتي. والله فكرة: لماذا لا يكون الدكتور عيسى نـــزهان هـــو الديناصـــور العجوز؟ لماذا لا يكون الأستاذ موسى نـــزهان هـــو الديناصور الفرخ؟ ستقول جنان: إنني ناكر للجميل فالأســـتاذ موســـى غمرنـــي بكـــرمه وأمر بتسديد المجمّع لنفقات علاجي. يكثّر خيركْ وخيره يا جنان. من جيبته عمْ يدفع؟

ابتسمت ونسة ودسّتْ القصاصة في الدفتر. وما كادت تنظر في التالية حتى صرخت القصاصة: يا حمار يا ترس يا كلب يا بغل يا قرد يا بومة يا سبع يا نمر يا حية التبن يا نمس يا أرنب يا بلبل يا عصفور.

ارتدت نظرة ونسة فزعة, لكن القصاصة تابعت الصراخ: هكذا نَتَحَـــيْون في البيت والعمل والمدرسة والشارع والسجن مع قطعة الحلـــوى وبطاقـــة التمويـــن والعصا الكهربائية والمنع من السفر وراتب أول الشهر. عال. الآن اجلس أيها الحيوان الإنسان أو أيها الإنســـان الحـــيوان, أي اجلـــس أيها الحيوان الجديد وتفرج على الشاشة المعتمة بعد نهارك المضني. احص القتلى في نشرة أخبار المساء. اشتر هذا الفيلم من أي صبي ينتظرك في ساحة المرجة أو علـــى ناصـــية الصالحية وشغّل الفيديو وتفرج على هذا الحيوان الجديـــد الـــذي يشـــق عضوه أحشاء بنت السنوات التسع وأحشاء شـــقيقها ابـــن السنوات السبع. لا تنس البنت من قدام وأخوها من خلف. الآن تتمم عليك الفرجة نعمة الحَيْونة و..

ودعكتْ ونسة القصاصة ورمتها بجانبها على السرير. ثم رمت فوقها القصاصات الأخرى, وأخذت تقلّب في الدفتر متوجّسة.

***

الصـــفحة 4: كلـــه عبيط وكله بيستعبط . عال. أنا إذا عشت سأصدر بياناً ضد العبط والاعتباط. يعني مثلاً أنا أرتشي وأسرّحك من الوظيفة إذا ارتشيت. وأنا أسمح لك بأن تكتب ضدي وأحاسبك

علـــى ما كتبت بعد خمس سنوات أي بمفعول رجعي. وأنا ألاحق مهربـــي الدخان ولا ألاحق مهربي المبيدات والعكس صحيح فكل شـــيء جائـــز وكـــل شيء ممنوع. يعني مثلاً كل معارض خائن وعميل ومأجور ولكن المعارضة ضرورية.

الصفحة 7: على ذمة هاني صادق أن مؤسس النيويورك تايمز ينصح بحجب المعلومات أو تزويرها حتى تجعل الإنسان حيواناً. والصحافة إذن مثل التيلفزيون ومثل المسرح أو السينما أو الكتب والأبحاث يمكن أن تكون طريقة للتحوين. ولكن يا أستاذ هاني هذه كلها وسائل تحوين عتيقة. الآن أمامك الانترنيت وأمامك من يأخذ بنصـــيحة صاحبك الأميركي فيحجب ويزوّر ما يزوّر حتى نصير حيوانات، ولكن حيوانات عصرية. يعني حيوانات الحداثة وما بعد الحداثة.

الصـــفحة 12: مايكل مور يخاطب رئيسه بلا كلفة: يا جورج، ويسأله ما إذا كان يجيد القراءة والكتابة كالناضجين! ويسأله أيضاً عـــن الجرائم التي ارتكبها عندما كان شاباً! يا سيد مايكل أنا لست من المخدوعين ولكن والحق يقال لولا الديمقراطية ما كنت تستطيع أن تقـــول مـــا تقول. أنا نفسي أقول لك: أي ديمقراطية هذه التي تخـــترع سجن غوانتنامو؟ ولكنها تظل أرحم بمليون مرة من هذا الذي بدأتم تستوردونه من السوق العربية المشتركة، يعني الأحكام العرفـــية وقـــانون الطـــوارئ وما أدراك. وعندما ترى ما ستفعل بضاعتنا ببضاعتكم تذكّرني بالله عليك.

* * *

كانت كل صفحة من صفحات الدفتر تحمل تاريخ يومٍ من أيام إياس في المستشفى سوى الصفحة التي بلغتها ونسة أخيراً: سأسأل ونسة عن موسيقى الميتال والهيفي ميتال التي يقال إنها صارت ممنوعة بعد الاشتباه بوجود عبدة الشيطان في بيروت وخوفاً من العدوى. هل هذه هي موسيقى الشيطان؟ لماذا أعاند ولا أتصل بونسة ولا أسمح لأحد أن يتصل بها ويخبرها بالعملية التي تنتظرني؟ الأفضل أن أطلب من ربيع أن يتصل بها. ستكون مفاجأة له ولها. يلله.. المهم أني إذا متّ يجب أن تكون ونسة حاضرة وإذا عشت يجب أن تكون ونسة حاضرة.

وأعادت ونسة قراءة السطرين الأخيرين، وطوت الدفتر وهي تنظر إلى إياس معاتبة ولهفى. وأرخت رأسها على الوسادة, ووضعت الدفتر على بطنها تفكر فيما يمكن أن يجعل إياس يؤمن بالرسخ والفسخ والمسخ والنسخ، لكي تكون له ويكون لها بعد الموت. وأغمضت عينيها لتعده بأن يتقمص من عدّد ومن لم يعدد ممن يُحَيْونون الإنسانْ، في حيوان أو شجرة أو حجرة، بينما تولد هي ويولد هو في قفّة تضيء على وجه الماء. وأخذت القفة تتراقص بهما فرحاً فخافت ونسة. ولما كادت القفة أن تنقلب شهقت ونسة وقفزت من السرير وأكبّتْ على وجه إياس, ثم نادته, ثم أمسكت برسغه، ثم تفرست في شاشة القلب, لكنها لم تستطع أن تتبين ما إن كان إياس حياً أم ميتاً.

البودي 2003 ـ 2004

فهرســة

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

April 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin